

تتمة

أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه

محمد الأمين بن محمد المختار

الجهكني الشنقيطي

طبع على نفقة المحسن صاحب المعالي الشيخ

محمد بن عوض بن لادن

رحمه الله

وقفاً لله على طلبة العلم

الجزء التاسع

والثاني من التتمة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّبَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ، عَنْ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿

عم أصله عن ما أدغمت النون في الميم ، ثم حذف ألف الميم ، لدخول حرف الجر عليه للفرق بين ما الاستفهامية وما الموصولة .

والمعنى : عن أى شيء يتساءلون ، وقد يفصل حرف الجر عن ما ، فلا يحذف الألف .

وأنشد الزمخشري قول حسان رضى الله عنه :

على ما قام يشتمنى لثيم كخنزير تمرغ في رماد

وقال في الكشف : وعن ابن كثير أنه قرأ عمه ، بهاء السكت ، ثم وجهها بقوله : إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن يقف ويتبدى يتساءلون عن النبى العظيم ، على أن يضمير يتساءلون ، لأن ما بعده يفسره .

وقال المقرئ : قوله : عن النبى العظيم : ليس متعلقا بيتساءلون المذكور في التلاوة ، ولكن يقدر فعل آخر عم يتساءلون عن النبى

العظيم ، وإلا لأعيد الاستفهام أعن النبي العظيم ؟

وعلى كل ، فإن ماتسألوا عنه أبهم أولا ، ثم بين بعده بأنهم يتسألون عن النبي العظيم ، ولكن بقي بيان هذا النبي العظيم ما هو ؟

ف قيل : هو الرسول صلى الله عليه وسلم في بعثته لهم .

وقيل : في القرآن الذي أنزل عليه يدعوهم به .

وقيل : في البعث بعد الموت .

وقد رجح ابن جرير : احتمال الجميع وألا تعارض بينها .

والواقع أنها كلها متلازمة ، لأن من كذب بواحد منها كذب بها كلها ، ومن صدق بواحد منها صدق بها كلها ، ومن اختلف في واحد منها لا شك أنه يختلف فيها كلها .

ولكن السياق في النبي وهو مفرد . فما المراد به هنا بالذات ؟

قال ابن كثير والقرطبي : من قال إنه القرآن : قال بدليل قوله : (قل هو نبياً عظيماً أنتم عنه معرضون)

ومن قال : إنه البعث قال بدليل الآتي بعدها : (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن أظهرها دليلاً هو يوم القيامة والبعث ، لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها ، وعقبها بالنص

على يوم الفصل صراحة ، أما براهين البعث فهي معلومة أربعة : خلق الأرض والسموات ، وإحياء الأرض بالنبات ، ونشأة الإنسان من العدم ، وإحياء الموتى بالفعل في الدنيا لمعاينتها وكلها موجودة هنا .

أما خلق الأرض والسموات ، فنبه عليه بقوله (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) ، وقوله : (وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا) ، فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى كما قال : (الخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

وأما إحياء الأرض بالنبات ففي قوله تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) كما قال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحي الموتى) .

وأما نشأة الإنسان من العدم ، ففي قوله تعالى : (وخلقناكم أزواجا) أى أصنافا ، كما قال تعالى : (قل يحياها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

وأما إحياء الموتى في الدنيا بالفعل ، في قوله تعالى : (وجعلنا نومكم سباتا) والسبات : الانقطاع عن الحركة . وقيل : هو الموت ، فهو مائة صغرى ، وقد سماه الله وفاة في قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) ، وقوله تعالى : (وهو

الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه) ، وهذا كقتيل بنى إسرائيل وطيور إبراهيم ، فهذه آيات البعث ذكرت كلها مجملة

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إيرادها مفصلة في أكثر من موضع ، ولذا عقبها تعالى بقوله : (إن يوم الفصل كان ميقاتا) أى للبعث الذى هم فيه مختلفون ، يكون السياق مرجعا للمراد بالنبأ هنا .

ويؤكد ذلك أيضا كثرة إنكارهم وشدة اختلافهم في البعث أكثر منهم في البعثة ، وفي القرآن ، فقد أقرأ أكثرهم ببلاغة القرآن ، وأنه ليس سحراً ولا شمراً ، كما أقرؤا جميعاً بصدقه عليه السلام وأمانته ، ولكن شدة اختلافهم في البعث كما في أول سورة ص و ق ، ففي ص قال تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) .

وفي ق قال تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) ، فهم أشد استبعاداً للبعث مما قبله ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾

لم يبين هنا هل علموا أم لا . ولكن ذكر آيات القدرة الباهرة

على إحيائهم بعد الموت بمثابة إعلامهم بما اختافوا فيه ، لأنه بمنزلة من يقول لهم : إن كنتم مختلفين في إثبات البعث ونفيه ، فهذه هي آياته ودلائله فاعتبروا بها وقايسوه عليها ، والقادر على إيجاد تلك ، قادر على إيجاد نظيرها .

ولكن العلم الحقيقي بالمعينة لم يأت بعد لوجود السين وهي للمستقبل ، وقد جاء في سورة التكاثر في قوله : (أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) ، وهذا الذي سيعلمونه يوم الفصل المنصوص عليه في السياق ، (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ .

قرىء بالإفراد ، مهداً أى كالمهد للطفل . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا) من سورة طه .

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذه الثلاثة ، كون النوم سباتاً : راحة أو موتاً ، والليل لباساً ، ساتراً ومريحاً ، والنهار معاشاً لطلب المعاش ، وذلك عند كلامه على قوله تعالى من

سورة الفرقان : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) وكلها آيات دالات على القدرة على البعث ، كما تقدمت الإشارة إليه

قوله تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

أى السماوات السبع ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى فى سورة قـ (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) وساق النصوص مماثلة هناك .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .

النفخ فى الصور للبعث ، وهذا معلوم ، وتأتون أفواجا : قد بين حال هذا الحىء مثل قوله تعالى : (يخرجون من الأجداث سراعا) ، وقوله : (كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع) والأفواج هنا قيل : الأمم المختلفة كقوله : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه — الآية) ، ولكن الآية بقاء الخطاب : فتأتون مما يشعر بأن الأفواج فى هذه الأمة .

وقد روى القرطبي وغيره أنرا عن معاذ ، أنه سأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : تحشر عشرة أصناف من أمتى » وساقها ،

وكذلك ساقها الزمخشري ، وقال ابن حجر في الكافي الشافى فى تخريج
أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبى وابن مردويه من رواية محمد بن
زهير ، عن محمد بن الهندي عن حنظلة السدوسي عن أبيه عن البراء
ابن عازب عنه بطوله وهى : بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم
على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون
عليها ، وبعضهم عمياء ، وبعضهم صمًا ، بكما ، وبعضهم يمضفون
ألسنتهم ، فهى مدلاّت على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرم
أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على
جذوع من نار ، وبعضهم أشد نفاقاً من الجيف ، وبعضهم ملبسون
جلباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

أما الذين على صورة الخنازير : فأهل السحت ، والمنكسون :
أكلة الربا ، والعمى : الجائرون فى الحكم ، والهم : المعجبون بأعمالهم ،
والذين يمضفون ألسنتهم : العلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم ،
ومقطوع الأيدي : مؤذوا الجيران ، والمصلّبون : السعاة بالناس إلى
السلطان ، والذين أشد نفاقاً : متبعوا الشهوات ، ومانعوا حق الله فى
أموالهم ، ولا بسوا الجلباب : أهل الكبر والفخر . انتهى بإيجاز بالعبارة ،
والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .

تقدم بيان أحوالها يوم القيامة ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك مفصلاً ، عند قوله تعالى من سورة طه : (ويسألونك عن الجبال قتل ينسفها ربي نسفاً) وعند قوله تعالى في سورة النمل : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) .

قوله تعالى ﴿ لَبِيشِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ .

لم يبين الأحقاب هنا كم عددها ، وهذه مسألة فناء النار ، وعدم فنائها .

وقيل : المراد بالأحقاب هنا جزء من الزمن لا كله ، وهي الأحقاب الموصوف حالهم فيها لما بعدهم من كونهم لا يذوقون فيها ، أى في النار أحقاباً من الزمن ، لا يذوقون برداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً .

أما بقية الأحقاب فيقال لهم : فلن تزيد إلا عذاباً ، وهذه المسألة مد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في كتاب دفع إيهام الاضطراب ، عند الكلام على هذه الآية ، وفي سورة الأنعام على قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) الآية ، وهو بحث مطول ، وسيطع الكتاب بإذن الله تعالى مع هذه التهمة .

وذكر القرطبي في معنى الحقب : آثاراً عديدة منها : عن عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً » الحقب :
 بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة
 مما تعدون . فلا يتمكن أحدكم على أنه يخرج من النار » . ذكره
 الثعلبي .

وقد رجح القرطبي دوامهم ، أى الكفار فى النار أبداً
 الأبدى . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ .

قيل المراد بالشيء هنا : أعمال العباد ، أى أنه بعد قوله (جزاء
 وفاقاً) أى وفق أعمالهم بدون زيادة ولا نقص ، قال : وقد أحصينا
 أعمالهم وكتبناها ، وهذا كقوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى
 المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يفاد
 صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم
 ربك أحداً) . وقوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)
 وقوله : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً
 يره) ، وقوله : (أحصاه الله ونسوه) .

واللفظ عام فى كل شيء ، ويشهد له قوله تعالى : (إنا كل شيء

خلقناه بقدر) وبقدر فيه معنى الإحصاء ، وفي السنة : حديث القلم المشهور ، وكقوله : (وكل شيء أحصيناه في إمام مبین) وتقدم في سورة الجن قوله تعالى : (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) .

وهذه الآية أعظم الدلالات على قدرته تعالى وسعة علمه ، وألا يفوته شيء قط ، وأنه يعلم بالجزئيات علمه بالكليات .

وكما تقدم في سورة المجادلة (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

وكذلك التفصيل في قوله : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة لا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ .

بينه بعده بقوله تعالى : (حدائق وأعناباً — إلى قوله — جزاء من ربك عطاء حساباً) .

قوله تعالى ﴿ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ .

في حق الكفار ، قال : جزاء وفاقاً ، وفي حق المؤمنين ، قال
عطاء حساباً .

ففي الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحداً .
وفي الثاني بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به
من الأصل ، وهو المفاز المفسر في قوله تعالى : (فمن زحزح عن النار
وأدخل الجنة فقد فاز) .

ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما في حديث : « لن يدخل
أحدكم الجنة بعمله » ، وقوله : حساباً : إشعار بأن تفاوت أهل الجنة
في الجنة بالحساب ونتائج الأعمال . وقيل حساباً : بمعنى كفاية ، حتى
يقول كل واحد منهم : حسبي حسبي . أى كافيني .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه ، عند الكلام على
قوله تعالى من سورة الكهف : (وعرضوا على ربك صفًّا) .

وقد ذكر ابن كثير لمعنى الروح هنا سبعة أقوال هي : أرواح
بنى آدم ، أو بنو آدم أنفسهم ، أو خلق من خلق الله على صور بنى
آدم ليسوا بملائكة ولا بشر ، وبأكلون ويشربون ، أو جبريل أو
القرآن ، أو ملك عظيم بقدر جميع المخلوقات . ونقلها الزمخشري وحكاها

للقرطبي ، وزاد : ثامنا وهم حفظة على الملائكة ، وتوقف ابن جرير في ترجيح واحد منها .

والذي يشهد له القرآن بمثل هذا النص أنه جبريل عليه السلام ، كما في قوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، ففيه عطف الملائكة على الروح من باب عطف العام على الخاص ، وفي سورة القدر عطف الخاص على العام . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ .

قال الزمخشري : لشدة هول الموقف ، وهؤلاء وهم أكرم الخلق على الله وأقربهم إلى الله ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، فغيرهم من الخلق من باب أولى .

وقال ابن كثير : هو مثل قوله تعالى : (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) ومثله قوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)

والواقع أن هذا كله مما يدل على أن ذلك اليوم لا ساطة ولا ساطان لأحد فقط ، حتى ولا بكلمة إلا ما أذن فيها ، كما قال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ .

هو يوم القيامة لاسم الإشارة ، وقد أشير إليه بالاسم الخاص
بالبعيد ذلك بدلا من هذا ، مع قرب التكلم عنه ، ولكن إما لبعده
زمانياً عن زمن التحدث عنه ، وإما لبعده منزلته وعظم شأنه ،
كقوله تعالى : (ألمّ ذلك الكتاب) ، وفي هذا عود على بدء في
أول السورة ، وهو إذا كانوا يتساءلون مستغربين أو منكرين ليوم
القيامة ، فإنهم سيعلمون حقاً ، وها هو اليوم الحق لا لبس فيه
ولا شك ليرونه عين اليقين .

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴾ .

المآب : المرجع ، كما تقدم مثله (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) «
فإذا كان هذا اليوم كائنًا حقاً ، والناس فيه إما إلى جهنم ، كانت
مرصاداً للطاغين مآباً ، وإما إلى مفازا حقائق وأعقاباً ، فبعد هذا
البيان ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، يؤب به عند ربه مآباً يرضاه
لنفسه ، ومن شاء هنا نص في التخيير ، ولكن المقام ليس مقام تخيير ،
وإنما هو بمثابة قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر
إننا أعتدنا للظالمين ناراً) الآية .

فهو إلى التهديد أقرب ، كما أن فيه اعتبار مشيئة العبد فيما
يسلك ، والله تعالى أعلم .

ويدل على التهديد ما جاء بعده .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .

وقوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، وهذا كله تحذير شديد ، وحث أكيد على السعى الحثيث لفعل الخير ، وطلب النجاة في اليوم الحق ، نسأل الله السلامة والعافية .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .

قد بين تعالى نتيجة هذا النظر إما المسرة به وإما الفزع منه ، كما في قوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء ، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

توابعه تعالى ﴿وَالنَّزِعَتِ غَرْقًا﴾ .

الواو للقسم ، والمقسم به محذوف ، ذكرت صفاته في كل المذكورات ، إلى قوله : (فالمدبرات أمرا) .

وقد اختلف في القسم به فيها كلها ، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله .

والنازعات : جمع نازعة ، والنزع : جذب الشيء بقوة من مقره ، كنزع القوس عن كبده ، ويستعمل في المحسوس والمعنوي ، فمن الأول نزع القوس كما قدمنا ، ومنه قوله : ونزع يده ، وقوله : (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وينزع عنهما لباسهما ، ومن المعنوي قوله تعالى : (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا) ، وقوله : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) ، والحديث : لعله غزعه عرق .

والإغراق المبالغة ، والاستفراق : الاستيعاب

أما المراد بالنازعات غرقا هنا ، فقد اختلف فيه إلى حوالي عشرة

أقوال منها : أنها الملائكة تنزع الأرواح ، والنجوم تنتقل من مكان إلى مكان آخر ، والأقواس تنزع السهام ، والفزاة ينزعون على الأقواس ، والفزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار الحرب للقتال ، والوحوش تنزع إلى الطلا ، أى الحيوان الوحشى .

والناشطات : قيل أصل الكلمة : النشاط والخفة ، والأنشطة : المقدمة سهلة الحل ، ونشطه بمعنى ربطه ، وأنشطه حله بسرعة وخفة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « كأنما أنشط من عقال » .

أما المراد به هنا فقد اختلف فيه على النحو المتقدم تقريباً ، فقول : الملائكة تنشط الأرواح ، وقيل : أرواح المؤمنين تنشط عند الفزع ، ولم يرجح ابن جرير معنى منها ، وقال : كلها محتملة ، وحكاها غيره كلها .

وقد ذكر فى الجلالين المعنى الأول منها فقط ، والذي يشهد له السياق والنصوص الأخرى : أن كلا من النازعات والناشطات : هم الملائكة ، وهو مما روى عن ابن عباس ومجاهد ، وهى صفات لها فى قبض الأرواح .

ودلالة السياق على هذا المعنى : هو أنهما وصفان متقابلان : الأول نزع بشدة ، والآخر نشاط بخفة ، فيكون النزع غرقاً لأرواح

الكفار ، والنشط بخفة لأرواح المؤمنين ، وقد جاء ذلك مفسراً في قوله تعالى في حق نزع أرواح الكفار (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية . وقوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) وقال تعالى في حق المؤمنين : (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) ، وقوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التي قبلها إذ جاء فيها : (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، ونظر المرء ما قدمت يداه يبدأ من حالة النزع حينما يشغل اللسان عن النطق في حالة الحشجة ، حين لا تقبل التوبة عند المعاينة لما سيؤول إليه ، فينظر حينئذ ما قدمت يداه ، وهذا عند نزع الروح أو نشطها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ، فَالسَّيِّحَاتِ سَبْقًا ﴾ .

قيل : السابحات النجوم . وقيل : الشمس والقمر والليل والنهار ،

والسحاب والسفن والحيتان في البحار ، والخيل في الميدان .

وذكرها كلها أيضاً ابن جرير ولم يرجح . وقال : كلها محتملة ،
وذكرها غيره كذلك .

والواقع ، فإنها كلها آيات عظام تدل على قدرته تعالى ، إلا أن
السياق في أمر البحث والمعاد ، وأقرب ما يكون إليه الآيات الكونية :
الشمس والقمر والنجوم ، وقد وصف الله الشمس والقمر بالسبعات
في قوله تعالى : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق
النهار ، وكل في فلك يسبحون) والسابقات من النجوم ،
السيارة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَلْمَدَبِ تَرَاتِ أَمْرًا ﴾ .

اتفق المفسرون على أنها الملائكة ، وذكر الفخر الرازي رأياً له
بعيدا ، وهو أنها الأرواح ، وأنها قد تدبر أمر الإنسان في المنامات ،
وهو قول لا يعول عليه كما ترى .

والذي يشهد له النص أنها الملائكة ، كما في قوله تعالى : (تنزل
الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) وكما وصف الله
الملائكة بتوابعه : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبِمُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ .

هما النفختان في الصور ، الراجفة هي الأولى ، والرادفة هي الثانية ، كما في قوله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة يس عند قوله تعالى : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) ، وسميت الأولى الراجفة ، لما يأخذ العالم كله من شدة الرجفة ، كما في قوله تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، وقوله (فصعق من في السماوات ومن في الأرض) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد رحمه الله بسنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه . فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » وسنده قال أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن أبي الطفيل ابن أبي كعب عن أبيه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — الحديث » .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ .

قال ابن كثير : يستنكر المشركون البعث بعد الموت ، والحافرة الحياة بعد موتهم ومصيرهم إلى القبور .

ونقل أن الحافرة النار ، وأكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى :
 يقال : عاد في حافرتة رجع في طريقه ، كأن محياه الأول حفر طريقه
 بمشيئه فيها ، وعليه لاعلاقة له بحفرة القبر ، وإنما هو تعبير عربى عن
 العودة في الأمر ، وبشهد له قول الشاعر :

أحافرة على صلح وشيب معاذ الله من صلح وعار

أى أرجع إلى الصبا بعد الصلح والشيب .

وقول الآخر :

أقدم أخا نهم على الأساوره ولا يهولنك رموس نادره

فإنما قصرك ترب الساهره حتى تعود بعدها فى الحافره

* من بعد ماصرت عظاما ناخره *

وقد دلت الآية بعدها ، إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة
 أخرى ، فى قوله : (قالوا تلك إذا كرة خاسرة) .

والكرة : هى العودة إلى الحياة الأولى ، وهى ما قبل حفرة القبر
 من تكرار الحياة السابقة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا كُنَّا عِظْمًا تَنَخَّرَ ﴾ .

العظام النخرة البالية ، والتى تخلصها الريح ، كما فى قول الشاعر :

وأخليتها من مغها فكانها قوارير فى أجوافها الريح تنخر

ونخرة الريح شدة صوتها ، ومنه المنخر ، لأخذ الهواء منه ، ويدل
لهذا قوله تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى
رميم) .

قوله تعالى : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) .

بين تعالى هذا الحديث وموضوعه ومكانه بقوله تعالى بعده : (إذ
ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى - إلى قوله -
فقال أنا ربكم الأعلى) .

قوله تعالى : (ناداه ربه بالواد المقدس) بين القرآن الكريم ،
أنه الطور فى قوله تعالى : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله
آنس من جانب الطور نارا - إلى قوله - فلما آتاها نودى من شاطئ
الواد الأيمن فى البقعة المباركة) والمباركة تساوى المقدس .

فبين تعالى أن المناداة كانت بالطور وهو الواد المقدس ، وهو
طوى ، وفى البقعة المباركة . وقد بين تعالى ما كان فى ذلك المكان
من مناجاة وأمر العصا والآيات الأخرى فى سورة طه من أول قوله تعالى
(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا - إلى قوله - اذهب إلى
فرعون) .

وقد فصل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القول فى ذلك

الموقف في سورة مريم عند قوله تعالى : (ونادينا من جانب الطور الأيمن) .

وقد بين تعالى في سورة طه ، كامل قصة المناداة من قوله : (إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله لا إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ، إن الساعة آتية) .

ثم قصة المصا والآية في يده عليه السلام ، وإرساله إلى فرعون إنه طغى ، وسؤال موسى : (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) واستوزار أخيه معه ، دون التعرض إلى أسلوب الدعوة ، وفي هذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة ، وما ينبغي أن يكون عليه نبي الله موسى مع عدو الله فرعون .

وأسلوب العرض : هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ، ثم تقديم الآية الكبرى ، ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف ، حيث لا يوجد اليوم أكثر من فرعون ، ولا أشد طغيانا منه حيث ادعى الربوبية والألوهية معا فقال : (أنا ربكم الأعلى) ، وقال : (ما علمت لكم من إله غيري) ، ولا يوجد اليوم أكرم على الله من نبي الله موسى وأخيه هارون .

ومع ذلك فيكون منهج الدعوة من أكرم خالق الله إلى أكرم عباد الله بهذا الأسلوب الهاديء اللين الحكيم منطلقا من قوله تعالى :

(فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) فكانا كما أمرها الله ،
وقالاً كما علمهما الله ، (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك
فتخشى) ، وهذا المنهج هو تحقيق لقوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك
بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وقد وضع القرآن منهجاً متكاملًا للدعوة إلى الله ، وفصله العلماء
بما يشترط في الداعي والمدعو إليه ، ومراعاة حال المدعو .

وقد قدم الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، (يا أيها الذين
آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) من سورة المائدة .
وقوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) في سورة هود .

وقوله تعالى : (وجادلهم بالتى هي أحسن) في سورة النحل .

ومجموع ذلك كله يشكل منهجاً كاملاً لمادة طريق الدعوة إلى الله
تعالى ، فيما يتعلق بالداعي والمدعو وما يدعو إليه ، وكيفية ذلك والحمد لله

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ، فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾

ذكر هنا الآية الكبرى فقط ، وذكر تعالى هـ ان فرعون جمع
بين التكذيب والعصيان ، وتقدم سورة القمر قوله : (ولقد جاء آل
فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ .

النكال : هو اسم لما جعل نكالا للغير ، أى عقوبة له حتى يعتبر به ، والكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد .
قاله القرطبي .

واختلاف فى الآخرة والأولى : أم الدنيا والآخرة ؟ أم هم الكلمتان العظيمتان اللتان تكلم بهما فرعون فى قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) .

والثانية قوله : (أنا ربكم الأعلى) .

قال ابن عباس : وكان بينهما أربعون سنة . وقد اختار ابن كثير الأول ، واختار ابن جرير الثانى ، ومعه كثير من المفسرين .

ولكن يرد على اختيار ابن كثير : أن السياق قدم الآخرة ، مع أن تعذيب فرعون مقدم فيه نكال الأولى ، وهى الدنيا .

كما يرد على اختيار ابن جرير ، أن الله تعالى جعل أخذه إياه نكالا ، ليعتبر به من يخشى ، والمبرة تكون أشد بالمحسوس ، وكلناه قبلنا فى زمنه .

والقرآن يشهد لما قاله ابن كثير ، فى قوله تعالى : (فاليوم ننجيكَ بيدنك لتكون لمن خلفك آية) ، وهذا هو محل الاعتبار .

وقد قال تعالى بعد الآية (إن فى ذلك لمبرة لمن يخشى) .

واسم الإشارة في قوله : إن في ذلك : راجع إلى الأخذ والنكال
المذكورين ، أى المصدر المفهوم ضمناً في قوله تعالى (فأخذه الله) وقوله :
نكال ، بل إن نكال مصدر بنفسه ، أى فأخذه الله ونكل به ،
وجعل نكاله به عبرة لمن يخشى .

قوله تعالى ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ ﴾ .

لما كان فرعون على تلك المثابة من الطغيان والكفر ، وكان من
أسباب طغيانه الملك والقوة ، كما في قوله تعالى : (وفرعون ذى
الأوتاد) ، وقوله : (إن فرعون علا فى الأرض) ، وقوله عنه :
(أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى) .

وهذه كلها مظاهر طغيانه وعوامل قوته ، خاطبهم الله بما آل لآله
هذا الطغيان ، ثم خاطبهم فى أنفسهم محذراً من طغيان القوة (أنتم
أشد خلقاً أم السماء) حتى لو ادعيتكم أنكم أشد قوة من فرعون ،
الذى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فهل أنتم أشد خلقاً أم السماء؟ .

وقد جاء الجواب مصرحاً بأن السماء أشد خلقاً منهم فى قوله
تعالى : (نخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر
الناس لا يعلمون) .

وبين ضعف الإنسان فى قوله فى نفس المعنى (فاستفتهم أم أشد
خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب) .

وفي هذا بيان على قدرته تعالى على بعثهم بعد إمامتهم وصيرورتهم عظاماً نخرة .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شيء من ذلك عند آية الصافات (فاستيقظهم أم أشد خلفاً أم من خلقنا) .

قوله تعالى : ﴿ بَنَيْنَا ، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك . في سورة ق عند قوله تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .

في هذه الآية الكريمة وصف الأرض بأن الله تعالى : دحاها ، وجاء في آية أخرى أنه طحاها بالطاء ، وجاء في آية أخرى أنه بسطها ، وهي قوله تعالى : (وإلى الأرض كيف سطحت) .

وقد اختلف في تفسير قوله : دحاها ، فقال ابن كثير : تفسيره ما بعده (أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها) وهذا قول ابن جرير عن ابن عباس .

وقال القرطبي : دحاها أي بسطها .

والعرب تقول : دحا الشيء إذا بسطه .

وقال أبو حيان : دحاها بسطها ومهدا للسكنى والاستقرار عليها ،
ثم فسر ذلك التمهيد بما لا بد منه من إخراج الماء والمرعى ، وإرسائها
بالجبال .

ومما ذكر يتأتى أمر السكنى والمعيشة حتى الملح والماء كل والشرب ،
وهذا هو كلام الزمخشري بعميقه .

وقال الفخر الرازي : دحاها بسطها ، فترى أن جميع المفسرين
تقريباً متفقون على أن دحاها بمعنى بسطها .

وقول ابن جرير وابن كثير : إن دحاها فسر بما بعده لا يتعارض
مع البسط والتمهيد ، كما قال أبو حيان : إنه ذكر لوازم القسكن إلى
المعيشة عليها من إخراج مائها ومرعاها لأن بهما قوام الحياة .

ومما يستأنس به أن الدحو معروف بمعنى البسط ، قول ابن
الرومي :

ما أنس لا أنس خبازا مرت به

يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة

وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ماتنداح دائرة

في صفحة الماء ترمى فيه بالحجر

وقد أثير حول هذه الآية مبحث شكل الأرض أمبسوطة هي أم
كروية مستديرة ؟

وإذا رجعنا إلى أمهات كتب اللغة نجد الآتي :
أولاً : في مفردات الراغب : قال دحاها ، أزالها من موضعها ومقرها .
ومنه قولهم : دحا المطر الحصى من وجه الأرض أى جرفها ،
ومر الفرس يدحو دحواً : إذا جر يده على وجه الأرض فيدحو ترابها .
ومنه أدحى النعام ، وقال : الطحو كالدهو ، وهو بسط الشيء
والذهاب به والأرض وما طحاها ، وأشد قول الشاعر :
* طحا بك قلب في الحسان طروب *
أى ذهب بك .

وفي معجم مقاييس اللغة ، مادة دحو : الدال والحاء والواو
أصل واحد يدل على بسط وتمهيد .

يقال : دحى الله الأرض يدحوها دحواً إذا بسطها .

ويقال : دحا المطر : الحصى عن وجه الأرض ، وهذا لأنه إذا كان كذلك
فقد مهد الأرض .

ويقال للفرس ، إذا رمى بيده رمياً لا يرفع سنبكه عن الأرض كثيراً :
حرّ يدحو دحواً ، ومن الباب أدحى النعام الموضع الذى يفرخ فيه

أفعل من دحوت ، لأنه يدحوه برجله ثم يبيض فيه ، وليس للنعام
عش .

وفي لسان العرب مادة دحا ، والدحو : البسط ، دحى الأرض يدحوها
دحواً : بسطها .

وقال الفراء في قوله عز وجل (والأرض بعد ذلك دحاها) قال
بسطها ، وذكر الأدحى مبيض النعام في الرمل ، لأن النعام تدحوه
برجلها ، ثم تبيض فيه .

وذكر حديث ابن عمر : فدحا السيل فيه بالبطحاء ، أى رمى
وألقى .

قال : وسئل ابن المسيب عن الدحو بالحجارة ، فقال : لا بأس به ،
أى المراماة بها والمسابقة .

وعن ابن الأعرابي : هو يدحو بالحجر ، أى يرمى به ويدفعه ،
والداحى : الذى يدحو الحجر بيده ، وأشد لأوس بن حجر بمقى
ينزع قوله :

ينزع جلد الحصا أحسين مبرك كأنه فاحص أولاعب داح ؟

وفي حديث أبي رافع : « كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان
الله عليهما بالمداحى ، هى أحجار أمثال القرصة ، كانوا يحفرون حفرة
يدحون فيها بتلك الحجارة ، فإذا وقع الحجر فيها غلب صاحبها ، وإن
لم يقع غلب .

والدحر : هو رمى اللاعب بالحجر والجوز وغيره . اهـ .

وما ذكره صاحب اللسان عن أبي رافع لازال موجودا حتى الآن بالمدينة ، ويسمى الدحل باللام ، كما وصف تماما .

وبعد إيراد أقوال أصول مراجع اللغة ، وما تقدم من أقوال المفسرين . فإننا نواجه الجدل القائم بين بعض علماء الهيئة ، وبعض العلماء الآخرين ، في موضوع شكل الأرض ، ولعلنا نوفق بفضل من الله إلى بيان الحقيقة في ذلك ، حتى لا يظن ظانّ تعارض القرآن ، وما ثبت من علوم الهيئة أو يفتر جاهل بما يقال في الإسلام .

وبنأمل قول المفسرين نجدها متفقة في مجموعها : بأن دحاها مهدا وسهل الحياة عليها ، وذكر لوازم التمكين من الحياة عليها من إخراج الماء ، والمرعى ، ووضع الجبال ، وهو المتفق مع نصوص القرآن في قوله : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا) .

وقوله : (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

وكل ذلك من باب واحد ، وهو تمهيدها والتمكين للعيش عليها ، وليس فيه معنى للتكوير والاستدارة .

وإذا جئنا إلى كتب اللغة نجدها كلها ، تنص على أن الدحر :

البسط ، والرمى ، والإزالة ، والتمهيد ، فالبسط والتمهيد والرمى بالحجر المستدير في الحفرة الصغيرة معانٍ مشتركة ؟ وكما تفسر دحاها ، بمعنى بسطها ومهدا . وأن الأذحية مبيض النعام لا بيضه ، كما يقولون . وسمى بذلك لأنها تدحوه بيدها لتبيض فيه ، إذ لا عش لها .

وعليه ، فلا دليل من كتب اللغة على أن الدحوه هو التكوير ، ولكن ما قول العلماء في شكل الأرض ، بصرف النظر عن كون القرآن تعرض له أو لم يتعرض ؟

إذا رجعنا إلى كلام من نظر في علم الهيئة من المسلمين ، فإننا نجدهم متفقين على أن شكل الأرض مستدير .

وقبل إيراد شيء من أقوالهم ننبه على أنه لا علاقة لهذا البحث بموضوع الحركة ، سواء للأرض أو غيرها ، فذاك بحث مستقل ، ليس هذا محله ، وإنما البحث في الشكل .

أما أقوال العلماء في شكل الأرض ، فإن أجمع ما وقفت عليه ، وأصرح وأبين ، هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة الهلال ، جاء فيها : قال في موضع منها قوله ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من علماء الأمة ، أن الأفلاك مستديرة ، قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) وقال : (وهو الذي

خلق الليل والنهار والشمس والقمر في فلك يسبحون (وقال تعالى :
(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل
في فلك يسبحون) .

قال ابن عباس : في فلكة مثل فلكة المغزل . وهكذا هو في
لسان العرب : الفلك الشيء المستدير . ومنه يقال : تفلك ثدى الجارية
إذا استدار . قال تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على
الليل) والتكوير هو التدوير . ومنه قيل : كار العمامة وكورها ،
ولهذا يقال للأفلاك : كروية الشكل ؛ لأن أصل الكرة كورة
تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلت ألفا .

وقال : (والشمس والقمر بحسبان) مثل حسابان الرحى ، وقال :
(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وهذا إنما يكون فيما يستدير
من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرها ،
فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه .

والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي ، ليس ببعضه مخالفاً لبعض .
وجاء فيها قوله أيضاً : وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن
المنادى ، من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار ،
في متون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد : لا خلاف
بين العلماء أن السماء على مثال الكرة ، وأنها تدور بجميع ما فيها

من الكواكب ، كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين ، أحدهما في الشمال ، والآخر في ناحية الجنوب .

قال : ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلا على ترتيب واحد في حركتها ومقادير أجزائها ، إلى أن تتوسط السماء ، ثم تنحدر على ذلك الترتيب ، فكانها ثابتة في كرة تدبرها جميعها دوراً واحداً .

هذه نبذة من أقوال علماء المسلمين في شكل الأفلاك ، ثم قال : وهذا محل القصد بالذات ، وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة .

قال : ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب ، لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب .

قال : فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء ، كالنقطة في الدائرة ، يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى في جميع نواحي السماء ، على قدر واحد ، فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد ، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء . هـ . بلفظه .

فهذا نقل لإجماع الأمة ، من إمام جليل في علمي المعقول والمنقول ،

على أن الأرض على شكل الكرة ، وقد ساق الأدلة الاضطرارية من حركة الأفلاك على ذلك .

ومن جهة العقل أيضاً يقال : إن أكل الأجرام هو المسقدير كما قال في قوله : (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) .

وعليه ، فلو قدر لسائر على وجه الأرض ، وافترضنا الأرض مسطحة كسطح البيت أو القرطاس مثلاً ، لكان لهذا السائر من نهاية ينتهى إليها ، وهى منتهى التسطيح أو يسقط فى هاوية ، وباعتبارها كرة ، فإنه يكمل دورته ، ويكررها ولو سار طيلة عمره لما كان لمسيره منتهى ، لأنه يدور على سطحها من جميع جهاتها . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

كان من الممكن أن نقدم هذه النتيجة من أول الأمر مادامت متفقة فى النهاية مع قول علماء الهيئة ، ولا نطيل القول من هنا وهناك ، ولكن قد سقنا ذلك كله لفرض أعم من هذا كله ، وقضية أشمل وهى من جهتين :

أولاهما : أن علماء المسلمين مدركون ما قال به علماء الهيئة ،

ولكن لا من طريق النقل أو دلالة خاصة على هذه الجزئية من القرآن،
ولكن عن طريق النظر، والاستدلال، إذ علماء المسلمين لم يجهلوا
هذه النظرية، ولم تخف عليهم هذه الحقيقة.

ثانيتها: مع علمهم بهذه الحقيقة وإدراكهم لهذه النظرية، لم
يمز واحد منهم دلالاتها النصوص الكتاب أو السنة.

وبناء عليه نقول: إذا لم تكن النصوص صريحة في نظرية من
النظريات الحديثة، لا ينبغي أن نقحمها في مباحثها نفيًا أو إثباتًا،
وإنما فطلب العلم من طريقه، فعلوم الهيئة من النظر الاستدلال،
وعلوم الطب من التجارب والاستقراء، وهكذا يبقى القرآن مصانًا
عن مجال الجدل في نظرية قابلة للثبوت والنفي، أو التغيير والتبديل،
كما لا ينبغي لمن لم يعلم حقيقة أمر في فنه أن يبادر بإنكارها ما لم
تكن مصادمة لنص صريح.

وعليه أن يتثبت أولاً وقد نهنا سابقاً على ذلك في مثل ذلك
في قصة نبي الله سليمان مع بلقيس والمهدد حينما جاءه، فقال:
(أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبيلٍ ينبئ يقين) وقص عليه
خبرها مع قومها، فلم يبادر عليه السلام بالإنكار. لكون الآتي
بالخبر مهدداً، ولم يكن عنده علم به ولم يسارع أيضاً بتصديقه، لأنه
ليس لديه مستند عليه، بل أخذ في طريق التثبت بواسطة الطريق الذي

جاءه الخبر به قال : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ،
وأرسله بالكتاب إليهم ، فإذا كان هذا من نبي الله سليمان ولديه وسائل
وإمكانيات كما تعلم ؛ فغيره من باب أولى .

تنبيه آخر

إذا كان علماء الإسلام يثبتون كروية الأرض ، فماذا يقولون في
قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت - إلى قوله - وإلى
الأرض كيف سطحت) . وجوابهم كجوابهم على قوله تعالى : (حتى
إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حثة) أى في نظر العين ،
لأن الشمس تغرب عن أمة ، وتستمر في الأفق على أمة أخرى ، حتى
تأتى مطلعها من الشرق في صبيحة اليوم الثانى ، ويكون بسط الأرض
وتمهيدها ، نظراً لكل إقليم وجزء منها لسمتها وعظم جرمها .

وهذا لا يتنافى مع حقيقة شكلها ، فقد نرى الجبل الشاهق ،
وإذا تسلقناه ووصلنا قمته وجدنا سطحاً مستوياً ، ووجدنا أمة بكامل
لوازمها ، وقد لا يعلم بعض من فيه عن بقية العالم ، وهكذا ، والله
تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً
أَوْ ضُحًى ﴾ .

العشية : ما بين الزوال إلى الغروب ، والضحى : ما بين طلوع
الشمس إلى الزوال ، وهذا تحديد بنصف نهار .

وقد جاء التحديد بساعة من نهار .

وجاء (يوماً أو بعض يوم .

وجاء : (إن لبثتم إلا عشراً) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة يونس : (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) ، وأحال على دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وسيطع إن شاء الله مع هذه التهمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ عَلِيسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ .

سبب نزول هذه السورة باتفاق المفسرين ، أنه صلى الله عليه وسلم كان مشفولا بدعوة صناديد قريش ، فأتاه ابن أم مكتوم ، وهو رجل أعمى وقال : « أقرئني يا رسول الله ، وعلمني مما علمك الله » وكرر ذلك ، فلم يتفق ذلك وما هو مشتغل به صلى الله عليه وسلم ، وما يرجوه مما هو أعظم ، فعبس وتولى عنه منصرفا ، لما هو مشتغل به .

قال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب على قوله تعالى : (أن جاءه الأعمى) ما فيه : عبرة تعالى عن هذا الصحابي الجليل الذي هو عبد الله ابن أم مكتوم ، بلقب بكرهه الناس ، مع أنه قال : (ولا تناجزوا بالألقاب) .

والجواب : هو مانبه عليه بعض العلماء : من أن السر في التعبير عنه بلفظ الأعمى ، للاشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه . اهـ . منه بلفظه .

وقال الفخر الرازي : إنه وإن كان أعشى لا يرى ، فإنه يسمع وبسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإقدامه على مقاطعته يكون مرتكباً معصية ، فكيف يعاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكلامه هذا يشعر بأنه إن كان معذوراً لعدم الرؤية ، فليس معذوراً لإمكان سماعه ، ولكن ذكره بوصفه ليوجب العطف عليه والرفق به .

والظاهر والله تعالى أعلم : أن كلام الرازي ليس بعيداً عما ذكره الشيخ ، لأن معناه أنه عاقبه لعدم رفقته به . ومراعاة حالة عماء .

فعليه ، يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولئك الصناديد وسادة القوم ، وكأنه يقول لهم : (إنها لا تعى الأبصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور) ، فهذا كفيف البصر ، ولكن وقاد البصيرة أبصر الحق وآمن ، وجاء مع عماء يسعى طلباً للمزيد ، وأنتم تغفلت قلوبكم وعميت بصائركم فلم تدركوا الحقيقة ولم تبصروا نور الإيمان ، كما في الآية الكريمة : (إنها لا تعى الأبصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور) والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

كما اتفق عليه المحدثون : جواز ذكر مثل هذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتنقيص ، فقالوا : الأعمى والأعور والأعرج .
وفي الحرف قالوا : الخراز ، والخرقي ، ونحو ذلك ، وهذا ما فيه مصلحة لترجمة الرجال في السند .

ومثله : ليس تنابزاً بالألقاب في هذا الفن . والله تعالى أعلم .
ومثله : إذا كان للتعريف في غرض سليم دون تنقص كما قدمنا .
وقوله تعالى (عبس وتولى) ، فان فيه مثل ما في قوله تعالى :
(أن جاءه الأعمى) لأن العبوسة أمر لا يتفق في الظاهر مع قوله تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم ، (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وقوله :
(واخفض جناحك للمؤمنين) ؛ ولم أقف على جواب لذلك ، ولم يتعرض له الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب .
والذي يظهر والله تعالى أعلم ، أنه لا يتأتى معه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بما يسيء إلى هذا الصحابي في نفسه بشيء يسمعه فيزعجه ، كل ما كان منه صلى الله عليه وسلم إنما هو تقطيب الجبين ، وهذه حركة مرئية لا مسموعة .

والحال : أن هذا أعمى لا يرى تلك الحركة ، فكأنه لم يلق إساءة منه صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم مطمئن له لما هو عليه من خير في دينه .
كما قال في حنين : وأكل أقواما إلى ما في قلوبهم ، أى لما أعطى المؤلفه
قلوبهم ، ولم يعط الأنصار على ما هو معروف في القصة ، فلم يعاتبه
الله على ذلك ؛ ورضى الأنصار وبكوا فرحا ورضا .

ثم إن تقطيب الجبين وانبطاس أسارير الوجه لحزن أو فرح ،
يكاد يكون جبليا مما كان منه صلى الله عليه وسلم ، فهو من باب
الجبلية تقريبا ، كأن المنير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها .
ومع ذلك فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان بعد نزولها يقول
له : « مرحبا فيمن عاتبنى فيه ربي » ، ويكرمه ، وقد استخلفه
على المدينة مرتين .

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران :

الأول : التسمي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم إلى ما لانهاية له ، إلى
حد لاحظ بالعين ، والتقطيب بالجبين ، ولو لمن لا يراه ، كما قال صلى الله
عليه وسلم « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين » وذلك في
صلح الحديبية .

والثاني : تأديب الأمة وللدعاة خاصة ، في شخصية رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، كما علمهم في شخصيته في بر الوالدين ، في قوله
قعالى : (إنا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف
ولا تنهرهما) .

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى : (كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره) بيان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يراعى في الدعوة إلى الله غنيا ولا فقيرا ، وأن يصبر على ضعفه المؤمنين . لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما وراء ذلك من مسئولية ، فلا يتكلف لهم .

وقد حثه الله تعالى على الصبر مع المؤمنين ، لإيمانهم في قوله تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

ومثله قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شيء من هذا البيان عند هذه الآية ، وبين أن هذه التنبيه قد وقع من نبي الله نوح إلى قومه ، حينما ازدروا ضعفه المؤمنين في قوله تعالى : (فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي - إلى قوله - وأما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم وليكني أراكم قوما تجهلون) .

وقد دلت هذه الآية وأمثالها ، على صدق مقالة هرقل حينما سأل أبا سفيان ، عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : أم سادة القوم أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم . فقال : هكذا هم أتباع الرسل .

وقال العلماء في ذلك : لأنهم أقرب إلى الفطرة ، وأبعد عن السلطان والجاه ، فليس لديهم حرص على منصب يضيع ، ولا جاه يهدر ، ويجدون في الدين عزاً ورفعة ، وهكذا كان بلال وصهيب وعمار ، وهكذا هو ابن أم مكتوم رضى الله عنهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى ، فَآَنَتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ .

بيان لموقفه صلى الله عليه وسلم من جميع الأمة ، وحرصه على إسلام الجميع حتى من أعرض واستفنى ، شفقة بهم ورحمة ، كما بين تعالى حاله صلى الله عليه وسلم بقوله : (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) وكقوله (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

وقوله : (وما عليك ألا يزكى) بيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس عليه ممن لا يزكى ، وقد صرح تعالى بذلك في قوله (إنما أنت منذر) وقوله (إن عليك إلا البلاغ) ، وقوله : (ليس عليك هدام) ، ومثل ذلك .

وقد جمع الأمرين من الجانبين في قوله تعالى عن نوح عليه السلام
(وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ، فِي
صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ،
كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝ ﴾ .

معلوم أن كلمة : كلا : ردع عما سبق ، وهو في جملة منصوب على
التصدي لمن استغنى ؟ والإلحاح عليهم والحرص على سماعهم منه ،
ولكن الله تعالى يقول : إن منزلة القرآن والوحي والدين أهل منزلة
من أن تبذل لقوم هذه حالتهم فهم على ما هي عليه من تكريم
ورفعة وطهارة وصيانة ، وما عليها من حفظة سفرة كرام بررة أخرى
بأن يسمى إليها ، والخير لمن أتاها يطلبها

(فمن شاء ذكره) ، وهذا للتهديد لا للتخيير بدليل ما بعده (قتل
الإنسان ما أكفره) قتل الإنسان : دعاء عليه ، والإنسان : للجنس
الكافر ، وما أكفره : أي ما أشد كفره بها ، بعد هذا كله من
علو منزلتها .

وقوله تعالى : (قتل الإنسان ما أكفره) قيل : ما أكفره هنا ،
ما أفعله أي ما أشد كفره .

وقال الزمخشري : هي تعجب من إفراطه في كفران نعم الله .

وقيل : أى شيء حمله على التكذيب والكفر ؟ وكلها محتملة ..

ولعل المعنى الأول أظهر لقوله قبله : قتل الإنسان ، ولجئ هذا المعنى فى مواضع آخر : إن الإنسان لظالم كفار ، وكذلك فعول فى قوله : (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) ، وهكذا صفة الجاحدين لآيات الله ، كما فى قوله (وما يحدد بآياتنا إلا كل ختار كفور) .

ثم رد تعالى عليه ذلك برده إياه إلى أصل خلقته ، ليمتعض من نفسه فى قوله تعالى (من أى شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره) ، لأن هذه الثلاثة مسلم بها ، ورتب عليها الرابعة (ثم إذا شاء أنشره) .

وقوله : (من نطفة خلقه فقدّره) تقدم مراراً بيان أصل خلق الإنسان وأطواره .

وقوله : (ثم السبيل يسره) قيل : السبيل إلى خروجه من بطن أمه ، حيث أدار رأسه إلى جهة الخروج ، بدلا مما كان عليه إلى أعلى ، وهذا من التيسير فى سبيل خروجه ، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره ، وهو اختيار ابن جرير .

وقيل : السبيل : أى الدين فى وضوحه ، ويسر العمل به ، كقوله تعالى : (إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً)

وهو مروي عن الحسن وابن زيد ، ورجحه ابن كثير .

ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح ، لأن تيسير الولادة أمر هام في كل حيوان ، وهو مشاهد ملموس ، فلا مزية للإنسان فيه على غيره ، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله ، وهو القدرة في قوله تعالى : (من نطفة خلقه فقدره)

وقد يكون تيسير الولادة داخلا تحت قوله : فقدره . أي قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه ، وتقديرات جسمه وقدر حياته ، وقدر مماته ، كما هو معلوم .

أما تيسير سبيل الدين ، فهو الخاص بالإنسان . وهو المطلوب التوجه إليه . وهو الذي يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره . وبين إمامته وإقباره . أي فترة حياته في الدنيا ، أي خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا . ويسر له الدين في التكاليف . ثم أماته ليرى ماذا عمل (ثم إذا شاء أنشره) .

ولذا جاء في النهاية بقوله : كلا لما يقض ما أمره . وليس هنا ما يدل على الأمر . إلا السبيل يسره . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ، أَنَا صَبَيْنَا الْكَمَاءَ

صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَيْنًا وَقَضْبًا ،
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَكِّهَةً وَأَبَاً ۝ .

بعد ما بين له مم خلق ، بين له هنا كيف يطعمه ، وفي كليهما آية
على القدرة .

وقد اتفقت الآيتان على خطوات ثلاث متطابقة فيهما . فصب الماء
من السماء إلى الأرض . يقابل دفع الماء في الرحم . وشق الأرض
للنبات . يقابل خروجه إلى الدنيا . وإنبت أنواع النباتات ، يقابل
تقدير الخلق المختلفة .

وفي التنصيص على أنواع النبات من حب وقضب وعنب ورمان
وزيتون ونخيل وفواكه متعددة . وحدائق ملتفة . لظهور معنى المفايرة
فيها ، مع أنها من أصلين مشتركين : الماء من السماء . والتربة في الأرض ،
يسقى بماء واحد .

ومرة أخرى . يقال للشيوعيين والدهريين : (قتل الإنسان
ما أكفره . من أى شيء خلقه) . (أفرايتم ما تمنون . أنتم تخلقونه
أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ۝) .
(أفرايتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء
لجعلناه حطاماً) .

لأنهم بلا شك لا يدعون لأنفسهم فعل شيء من ذلك . وإنما
ليعلمون أن ما خالقاً مدبراً . ولكنهم يكابرون .

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) صدق الله العظيم ، وكذب كل كفار أثيم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان خلق الإنسان في مواطن متعددة سابقة آخرها في سورة الرحمن (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) ، وبيان طعامه في كل من سورتي الواقعة والجمانية .

قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ .

الإسفار : الإضاءة ، وهو تهلل الوجه بالسرور ، كما قال تعالى : (ولقاهم نضرة وسروراً) والاستبشار من تقدم البشرى في قوله تعالى : (تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

وقوله تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في سورة الحديد .

وقوله تعالى : (ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قفرة) بينهم
تعالى بأنهم هم الكفرة الفجرة .

وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، في سورة
الرحمن على الكلام على قوله تعالى : (يعرف المجرمين بسيماهم) .

وقد جمع لهم هنا بين الكفر والفجور ، وهما الكفر في
الاعتقاد والفجور في الأعمال ، كما في قوله تعالى : (ولا يلدوا إلا
فاجراً كفاراً) والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .

اختلف في معنى كورت هنا أكثر من عشرة أقوال ، وكلها تدور على نهاية أمرها :

وقيل : كورت : لف بعضها على بعض ، فانطمس نورها .

وقيل : حجبت بكاراة ، أى لفت بها .

وقيل : ألقيت في البحر .

وقيل : دخلت في العرش

وقيل : اضمحلت .

وقيل : نكست .

وقال ابن جرير : نقول كما قال الله تعالى : (كورت) .

والذى يشهد له القرآن ، أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها ، لأن الله تعالى جعل لها أجلا مسمى ، ومعنى ذلك أنها تنتهى إليه على الوجه الذى يعلمه سبحانه وتعالى ، كما في قوله تعالى :
(وسنخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى) .

فمفهومه : أنه إذا جاء هذا الأجل توفت عن جريانها .

وهو ما يشير إليه قوله تعالى : (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) أى بعد أن لم يجتمعا قط ، وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت ، كما قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون) .

ولعل أقرب الأقوال المنقولة في ذلك : هو القول بأنه بمعنى نكست . أى ردت إلى حيث أتت ، كما في الحديث ، فقطلع من مغربها ، وعليه فتجتمع مع القمر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ .

قيل : انكدرت انصبت ، وقيل : تغيرت من الكدرة ، وكلها متلازمة ولا تعارض .

ويشهد الأول قوله تعالى : (وإذا الكواكب انتثرث) .
ويشهد للثاني (فإذا النجوم طمست) لأنها إذا تفتت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها ، فقد ذهب نورها وطمست .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .

أى ذهب بها من مكانها .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى مينا وعلمه ، بيان حالة الجبال

في نهاية الدنيا في عدة مواطن . من أهمها عند قوله تعالى في سورة طه
(ويسألوك عن الجبال فقل ينفسها ربي نسفا) ، وعند قوله تعالى
من سورة السكف : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْمُودَةُ مَسَّتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .
الوأة : الثقل ، كما في قوله تعالى : (ولا يؤوده حفظهما) .

والمؤودة : المثقلة بالتراب حتى الموت ، وهي الجارية ، كانت
تدفن حية ، فكانوا يحفرون لها الحفرة ويلقونها فيها ، ثم يهيلون عليها
التراب .

وقوله تعالى (: بأى ذنب قتلت) إشعار بأنه لا ذنب لها ، فقتل
بسببه ، بل الجرم على قاتلها .

ولكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها تبكيتم لوأدها .

وقد جاء عن عمر رضى الله عنه قوله : أمران في الجاهلية . أحدهما :
يبكىنى والآخر يضحكنى .

أما الذى يبكىنى : فقد ذهبت بائنة لى لوأدها ، فكنت أحفر لها
الحفرة وتنفض التراب عن لحيتى وهى لاتدرى ماذا أريد لها ، فإذا
تذكرت ذلك بكيت .

والأخرى : كنت أصنع إلهام من التمر أضعه عند رأسى يحرسنى
ليلا ، فإذا أصبحت معافى أكلته ، فإذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسى .

أما سبب إقدامهم على هذه الجريمة الشنيعة وما دفعهم على ارتكابها ، فقد ناقشه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بتوسع ، عند قوله تعالى من سورة النحل (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألساء ما يحكمون) .

وهذه المناسبة ، فإن هنا تنبيهين لا بد من إيرادهما .

الأول منهما : ما يشبه الواد في هذه الآونة الحديثة ، وهو التعرض لمنع الحمل بأي وسيلة كانت .

وقد بحثت هذه المسألة قديماً وحديثاً . أما قديماً ففي عملية العزل ، وجاء فيه حديث جابر « كنا نعزل والقرآن ينزل » رواه مسلم .

زاد إسحاق قال سفيان : لو كان شيئاً ينهى عنه لأنهانا عنه القرآن . وجاء فيه : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا .

كما جاء التحذير الشديد في حديث حذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس قال : « لقد هممت أن أنهي عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يفعلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً » ، فسألوه عن العزل ، فقال : « ذلك الواد الخفي »

زاد عبد الله فى حديثه عن المقرئ زيادة وهى : وإذا الموءودة
سئلت

ففى الحديث الأول : ما يفيد التقرير .

وفى الثانى : ما يفيد شدة النكير .

وجاء فى صحيح مسلم أيضاً عن أبى سعيد « غزونا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم غزوة بنى المصطلق ، فسبينا كرائم العرب ، فطالت
علمينا الغربية ، ورغبنا فى الفداء ، فأردنا أن نستمتع ونعزل ، فقلنا :
نفعل ذلك ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، لانسأله ،
فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب
الله خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » .

وفى رواية : « إن الله كتب من هو خالق إلى يوم القيامة »

وفى رواية : « فقال لنا : وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ،
وإنكم لتفعلون . ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هى كائنة »

وفى رواية : « لا عليكم ألا تفعلوا ، فإنما هو القدر » .

قال أبو محمد : وقوله : لا عليكم أقرب إلى النهى .

وقال الحسن : والله لكان هذا زجراً ، فأنت ترى قوله صلى الله
عليه وسلم : وإنكم لتفعلون ، مشعر بعدم علمه سابقاً ، مما يتعارض مع
(٥ - أضواء البيان ج ٩)

الزيادة في حديث جابر ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ،
فبقى قول جابر ، مما يستدل به المجوزون ، ويعارضه : وهى الموءودة ،
أو الوأد الخفى .

وكان الوأد عند العرب فى الجاهلية سببان :

الأول : اقتصادى ، خشية إملاق ، ومن إملاق حاضر .

والثانى : حمية وغيرة .

وقد رد القرآن عليهم فى السبب الأول ، فى قوله تعالى : (ولا تقتلوا
أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً
كبيراً) .

وقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) .
وأخيراً كان هذا التساؤل شديد التوبيخ لهم ، (وإذا الموءودة
سئلت) .

وفى هذه الآية أثبت مرة أخرى وبشكل آخر أثارها أعداء
المسلمين مكيدة للسذج ، فأثرت من الناحية الاقتصادية .

وكان مبدؤها المعروف عند كتاب هذا العصر بنظرية « مالتس »
والآن لفرض عسكري لتقليل عدد جنود المسلمين ، حينما علم العدو أن
الإسلام يبيع تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، فأرادوا أن يوقفوا
هذا النمو .

ويكفي أن فورد هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تفاسلوا فإني مباح بكم الأمم » .

وفي رواية « مكاز بكم الأمم » .

وفيه « تزوجوا الولود الودود » ونحو ذلك .

وقد كنت جئت في ذلك بحثاً في محاضرة وافية في هذا الفرض ، من حيث السياسة والاقتصاد ، والدفاع مع عمل إحصائيات للدول التي تطالب بهذا العمل ، مما يدفع رأى كل قائل به .

والذي يهمننا في هذا المقام تنبيه المسلمين ، إلى أن هذه الدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل منشؤها من اليهود ، وتشجيعها في الشرق من دول الغرب ، وكثير من الدول الغربية تبذل المال الطائل لتفشي هذا الأمر في دول الشرق الأوسط وخاصة الإسلامية والعربية .

التنبيه الثاني

وهو حول ما يصرح به دعاة تحرير المرأة في صورة مناصرة لها ، والواقع أنهم دعاة شقاؤها ومعاداة لها ، وهدم لما مكنها الله منه في ظل الإسلام .

وذلك أن المرأة في الجاهلية كانت هذه حالة من حالاتها تواد حية ، وتورث كالمتاع ، ومهمة الشخصية إلى غير ذلك . فبهاها الإسلام ما يثبت شخصيتها ابتداء من إيفائها حقها في الحياة كالرجل ، ثم اختيارها في الزواج ، وحقها في الميراث إلى غير ذلك .

وقد تقدم الحديث عن ذلك في عدة محلات ، منها للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى من سورة الحج : (ومن الناس من يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير) .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ .

الزلفى : القربى ، وأزلفت : قربت ، وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة ق عند قوله تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) .

قوله تعالى : ﴿ عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

المراد بالنفس هنا : العموم ، أى كل نفس ، كما في قوله تعالى : يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضرا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِالْخُنُوسِ ، الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَفَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

ظاهر قوله تعالى : (فلا أقسم) نفى القسم ، ولكنه قسم قطعا ،

بدليل التصريح بجواب القسم فى قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم) .

وبهذا يترجح ما تقدم فى أول سورة القيامة (لا أقسم بيوم القيامة) .

ومثل الآتى (لا أقسم بهذا البلد) .

تنبيه

يجمع المفسرون أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، لأنها دالة على قدرته ، وليس للمخلوق أن يحلف لا بالله تعالى .

ولكن هل فى المغايرة بما يقسم الله تعالى به معنى مقصود ، أم مجرد الذكر ، وتعدد القسم به ؟

وبعد التأمل ، ظهر والله تعالى أعلم ، أنه سبحانه لا يقسم بشئ فى موضع دون غيره ، إلا لفرض يتعلق بهذا الموضع ، يكون بين القسم به ، والقسم عليه مناسبة وارتباط ، وقد يظهر ذلك جلياً ، وقد يكون خفياً .

وهذا فعلاً ما تقتضيه الحكمة والإعجاز فى القرآن ، وإن كنت لم أقف على بحث فيه .

ولكن مما يشير إلى هذا الموضوع ، ما جاء بالإقسام بمكة مرتين ، وفى حالتين متغايرتين .

الأولى : قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد فوالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد) .

والموضع الثانى : قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) .

فالمقسم به في الموضعين : مكة المكرمة ، والمقسم عليه في الموضعين خلق الإنسان ، ولكن في الموضع الأول كان المقسم عليه مكابدة الإنسان من أرل ولادته إلى نشأته ، إلى كده في حياته ، إلى نهايته ومماته .

من ذلك مكابدته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله ، ولحقت به أمه ، وهو في طفولته ، وبعد الوحي كابد مع قومه ولقى منهم عنقا شديداً ، حتى تأمروا على قتله ، فلـكأنه يقول له : اصبر على ذلك ، فإن المكابدة لا بد منها ، وهى ملازمة للإنسان كـلازمته لهذا البلد منذ ولادته .

وفى ذكر (والد وما ولد) إشعار ببـداء المكابدة ، وبأشدها من حالة الولادة وطبيعة الطفولة ، ولذا ذكر هنا هذا البلد بدون أى وصف .

أما في الموضع الثانى : فالمقسم عليه ، وإن كان هو خلق الإنسان ، إلا أنه فى أحسن تقويم ، وهى أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضاً

للنعم ، وتمددها من التين والزيتون ، سواء كان المراد بهما الناكهة المذكورة أو أماكنها ، وهو بيت المقدس مع طور سينين .

جاء بمكة أيضاً ولكن بوصف مناسب فقال : (وهذا البلد الأمين) ، فكأنه يقول : إن من أنعم على تلك البقاع بالخير والبركة والقداسة ، أنعم على الإنسان بنعمة حسن خلقه وحسن تقويمه وفضله على سائر مخلوقاته . والله تعالى أعلم .

وهنا يقسم بحالات الكواكب على أصبح الأقوال ، في ظهورها واختفائها وجريانها ، وبالليل إذا عسعس : أقبل وأدبر ، أو أضاء وأظلم ، والصبح إذا تنفس : أى أظهر وأشرق ، وهما أثران من آثار الشمس في غروبها وشروقها .

والمقسم عليه : هو أن القرآن قول رسول كريم كأنه يقول : إن القرآن المقسم عليه حاله في الثبوت والظهور ، وحال الناس معه . كحال هذه الكواكب الثوابت لديكم في ظهورها تارة ، واختفائها أخرى .

وكحال الليل والصبح ، فهو عند أناس موضع ثقة وهداية كالصبح في إسفاره ، قلوبهم متفتحة إليه وعقولهم مهتدية به ، فهو لهم روح ونور ، وعند أناس مظلمة أمامه قلوبهم عمى عنه بصائرهم ، وفي آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، وأناس تارة وتارة كالنجوم أحياناً ، وأحياناً ، تارة ينقذح نوره في قلوبهم ، فتظهر معالمه فيسيرون معه ، وتارة يغيب

عنهم نوره فتخنس عنه عقولهم وتكنس دونه قلوبهم ، كما قال تعالى عنهم : (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) .

وليس بعيداً أن يقال : إنه من وجه آخر ، تعتبر النجوم كالكتب السابقة ، مضى عليها الظهور في حينها والخفاء بعدها .

والليل إذا عسعس : هو ظلام الجاهلية .

والصبح إذا تنفس : يقابله ظهور الإسلام ، وأنه سينتشر انتشار ضوء النهار ، ولا تقوى قوة قط على حجبها ، وسيم الآفاق كلها ، مهما وقفوا دونه (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

وقد يكون في هذا الإيراد غرابة على بعض الناس ، ولا سيما وأنى لم أقف على بحث مستقل فيه ، ولا توجيه يشير إليه ، ولكن مع المتبع وجدت اطراداً في مواضع متعددة ، وجدير بأن يفرد برسالة

ومما اطرده فيه هذا التوجيه سورة الضحى ، يقول الله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى) فإن المقسم عليه عدم تركه صلى الله عليه وسلم ولا التخلي عنه ، فجاء بالمقسم به قسمي الزمن ليلاً ونهاراً ، كأنه يقول له : ما قلاك ربك ولا تخلى عنك ، لا في ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك ، ولا في ظلمة الليل حين تأوى إلى بيتك .

ومعلوم ما كان من عمه أبى طالب حينما كان يجعله ينام مع أولاده ليلاً ، حتى إذا أخذ الجميع مضاجعهم يأتى خفية فيقيمه من مكانه . ويضع أحد أولاده محله ، حتى لو كان أحد نواه بسوء ، وقد رآه فى مكانه الأول يصادف ولده ، ويسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (وللآخرة خير لك من الأولى) أى من كل ما طلعت عليه الشمس وسجاء الليل .

ومنه أيضاً : وهو أشد ظهوراً فى سورة العصر قال تعالى : (والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا) إلى آخر السورة . فإن المقسم عليه هو حالة الإنسان ، الفالية عليه من خسر ، إلا من استثنى الله تعالى ، فكان المقسم به ، والعصر للمعاصر للإنسان : طيلة حياته وهو محل عمله ، الذى به يخسر ويربح ، وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه .

وكنت قد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول : لأن العمر وزمن الحياة حجة على الإنسان كالرسالة والندارة سواء ، وذكر قوله تعالى : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ، فجعل فى الآية التصير ، وهو إشغال العمر موجباً للتذكر والتأمل ، ومهلة للعمل ، كما تنبه إنساناً بأمر ثم تمهله إلى أن يفعل ما مر به ، فهو أمكن فى الحجة عليه .

فكان القسم في العصر على الربح والخسران ، أنسب ما يكون بينهما ، إذ جعلت حياة الانسان كسوق قائمة والساعة فيه العمل والعامل هو الانسان . كما قال تعالى : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله) .

وفي الحديث الصحيح عند مسلم : « سبحان الله تملأ الميزان ، وفيه كل الناس يقدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ، فإن كان يشغل عمره في الخير فقد ربح ، وأعتق نفسه وإلا فقد خسر وأهلكها » .

ويشير لذلك أيضاً قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

فصح أن الدنيا سوق ، والسلامة فيها عمل الإنسان ، والمعاملة فيه مع الله تعالى ، فظهر الربط والمناسبة مع المقسم به ، والمقسم عليه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

أجمعوا على أن المراد بالقول هو القرآن ، وأما المراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام . بدليل قوله تعالى : (ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون) .

فصاحبكم هنا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي صحبه منذ ولادته وذو القوة عند ذي العرش : هو جبريل عليه السلام ، وفي إسناد القول

إليه ما قد يثير شبهة أن القول منه ، مع أنه كلام الله تعالى .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، بإيراد النصوص الصريحة في أن القرآن كلام الله تعالى ، وقال : وإن في نفس هذه الآية ما يرد هذه الشبهة ، ويثبت تلك الحقيقة ، وهي قوله تعالى : (لقول رسول) لأن الرسول لا يأتي بقول من عنده ، وإنما القول الذي جاء به هو ما أرسل به من غيره ، إلى ما أرسل إليه به .

تنبيه

في وصف جبريل عليه السلام بتلك الأوصاف

نص في تمكينه من حفظ ما أرسل به ، وصيانيته عن التغير والتبديل ، لأنه مكن ، فلا يصل إليه ما يخل برسالته ، ولأنه مطاع ثم . والمطاع لا يؤثر عليه غيره ، والأمين لا يخون ولا يبدل ، فكان القرآن الذي جاء به مصوناً من أن يتسلط أحد عليه فيغيره ، ومن أن يغيره الذي جاء به ، وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقى القرآن الكريم .

وقوله : (وما صاحبكم بمجنون) بيان لقيمة السند ، حيث قال : (ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين) ، فنفي عنه صلى الله عليه وسلم نقص التلقى بنفي آفة الجنون ، فهو في كمال العقل

بقوة الإدراك ، ومن قبل أثبت له كمال الخلق (وإنك لملى خلق عظيم) .

وأثبت له اللقب ، فلم يلتبس عليه جبريل بغيره ، وهى أعلى درجات السند ، فاجتمع له صلى الله عليه وسلم الكمال الخلقى .

والكمال الخلقى — بضم الخاء وكسر ها — أى الكمال حساً ومعنى ، ثم نقي عنه التهمة بأن يضمن بشيء مما أرسل به مع نفاسته وعلو منزلته وجليل علوه ، وأنه كلام رب العالمين .

وفى الختام إفهامهم : بأنه ليس بقول شيطان رجيم ، حيث تقدم (إلههم عن السمع لمعزولون) .

وأن من يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، فلم يبق لهم موجب للانصراف عنه ، وألزموا بالأخذ به حيث أصبح من الثابت أنه كلام الله ، جاء به رسول كريم ، وبلغه لصاحب الخلق العظيم ، وليس بقول شيطان رجيم .

فلزمهم الأخذ به ، وإلا فآين تذهبون . أين تسيرون عنه ، بعد أن ثبت لكم سنده ومصدره ؟

ونظير هذا السند فى تمجيد القرآن وإثبات تيمانه من الله ، قوله تعالى فى أول سورة النجم : (وما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى) .

وقوله تعالى : (فأين ذهبون) بمثابة من يسد عليهم الطريق
إلا له لأنه — أى القرآن — ليس فى نزوله من الله على رسول الله
صلى الله عليه وسلم أى شبهة ولا تهمة ، فليس للعاقل أن يحيد عنه ،
وكل ذهاب إلى غيره فطرق مسدود ، وضلال وهلاك .

قوله تعالى ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُم أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ .

أى بعد هذا البيان وقوة هذا السند ، ولإظهار ثبوت الرسالة ،
فقد أعذر من أنذر ، لمن شاء منكم أن يستقيم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فيه قضية القدر والإرادة الكونية والقدرية .

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى عدة مواطن .
منها فى سورة الزخرف عند قوله تعالى : (لو شاء الرحمن ما عبدناهم)
وفى مناظرة المعتزلى مع السنى .

ومنها فى سورة الذاريات : (وما خلقت الجن والإنس إلا
ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق) ، والفرق بين الإرادة الكونية
والقدرية .

تنبيه

إذا كان الكثيرون يستدلون فى قضية القضاء والقدر بهذه الآية ،

فإنه ينبغي ألا تغفل أهميتها في جانب الضراعة إلى الله دائماً ، بطلب
التفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلاً من عنده ، كما
أمرنا في الصلاة في كل ركعة منها أن نطلبه هذا الطلب (اهدنا
الصراط المستقيم) .

تنبية آخر

لقد أجهلت الاستقامة هنا ، وهي منه عليها في سورة الفاتحة : إلى صراط
الذين أنعم الله عليهم ، كما هو معلوم . والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ .

أى انشقت ، كما فى سورة الانشقاق (إذا السماء انشقت) قيل:
هيبة لله .

وقيل : لنزول للملائكة ، كقوله تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام
ونزل الملائكة تنزيلا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فى سورة الشورى عند
الكلام على قوله تعالى فى وصف أهوال القيامة (يوما يجعل الولدان
شيبا . السماء منفطر به) .

ومثل الانفطار والتشقق الانفراج ، كقوله : (فإذا النجوم طمست ،
وإذا السماء فرجت) .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ .

أى بعث من فيها . كما فى قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ،
وحصل ما فى الصدور) .

وقد دل هذا اللفظ على سرعة الانتشار ، كبعثرة الحب من الكف
(٦ - أضواء البيان ج ٩)

كما في قوله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) .
وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة ق عند قوله
تعالى : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا)

قوله تعالى : ﴿ عَمِيتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

أى كل نفس ، كما تقدم في سورة التكاوير .

وقد تكلم الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه على ذلك في دفع
إيهام الاضطراب في سورة الانفطار هذه ، عند نفس الآية .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ
مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في سورة
الكهف عند قوله تعالى : (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت
بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أى هذه
أطوار الإنسان في خلقه .

ومما يشهد لحسن الخلقة ، وكمال الصورة قوله تعالى : (لقد خلقنا
الإنسان في أحسن تقويم) .

واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم ،

كما قال : (هو الذى بصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .
وتقدم فى سورة الحشر (هو الله الخالق البارئ المصور) .
وفى اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى
قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَايَةَكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَامًا كَاتِبِينَ ،
يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى سورة
قـ عند الكلام على قوله تعالى : (إذ يلقى المتلقيان عن اليمين وعن
الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وأحال عندها على بعض ما جاء فى سورة مريم عند قوله تعالى :
(كلا سنكتب ما يقول) .

وبين رحمه الله تعالى علينا وعليه أن هذه الكتابة لإقامة الحجة
على الإنسان ، كما فى قوله : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه
منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) .

وقيل فى حافظين : يحفظون بدن الإنسان .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه فى سورة الأنعام عند
الكلام على قوله تعالى : (ويرسل عليكم حفظة) مستدلاً بقوله تعالى :
(له مصقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن في وصف الحفظة هنا بهذه الصفات ، من كونهم حافظين كراما يعلمون ، فاجتمعت لهم كل صفات التأهيل ، لا على درجات الكفاية من حفظ وعلو منزلة ، وعلم بما يكتبون .

وكأنه توجيه لما ينبغي لولاة الأمور مراعاته في استكتاب الكتاب والأمناء .

ولذا قالوا : على القاضي أن يتخير كاتباً أميناً حسن الخط فاهماً .
ومن هذا الوصف يعلم أنه لا يختلط عليهم عمل بعمل ، وكونهم حفظة لا يضيعون شيئاً ، ولو كان مثقال الذرة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .

أى دائم ، كما في قوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً) .

قوله تعالى ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾

دال من دلة خلود الكفار في النار .

لقوله : (وإن الفجار لفى جهيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم

عنها بغائبين) .

كقوله تعالى : وقال الذين تبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم ،

كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) .

وهكذا غالبا أسلوب المقابلة بين الفريقين ومثلها .

ثم بين أن ذلك يوم الدين وهو يوم الجزاء ، كما تقدم في سورة القاتمة (مالك يوم الدين) .

ثم بين تعالى شدة الهول في ذلك اليوم (وما أدراك ما يوم الدين) .

وتقدم في (الحاقة ما الحاقة) .

ومثله قوله تعالى : (القارعة ما القارعة) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

أى لشدة هوله وضمف الخلائق ، كما تقدم في قوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) ، وقوله : (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

ولحديث الشفاعة : « كل نبي يقول : نفسي نفسي ، إلى أن تنتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها » .

وحديث فاطمة : « اعملى . . . »

وقوله تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) ، ونحو ذلك .
 وقوله : (والأمر يومئذ لله) ظاهر هذه الآية تقييد الأمر
 بالظرف المذكور ، ولكن الأمر لله فى ذلك اليوم ، وقيل ذلك
 اليوم - ، كما فى قوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

وبقوله : (ألا له الخلق والأمر) أى يتصرف فى خلقه بما يشاء
 من أمره لا يشركه أحد ، كما لا يشركه أحد فى خلقه .
 ولذا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل إن الأمر كله لله) .

وقال : (ليس لك من الأمر شيء) ونحو ذلك .

ولكن جاء الظرف هنا لزيادة تأكيد ، لأنه قد يكون فى الدنيا
 لبعض الناس بعض الأوامر ، كما فى مثل قوله تعالى : (وأمر أهلك
 بالصلاة) .

وقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

وقوله : (فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد) ، وهى
 كلها فى الواقع أوامر نسبية . وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

ولكن يوم القيامة حقيقة الأمر كله ، والملك كله لله تعالى وحده ،
 لقوله تعالى : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

فلا أمر مع أمره ، ولا متقدم عليه حى ولا بكلمة ، إلا من أذن

له الرحمن وقال صوابا ، وهو كقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن)
مع أن هنا في الدنيا ملوكا ، كما في قصة يوسف ، (وقال الملك :
ائتوني به) .

وفي قصة الخضر وموسى (وكان وراءهم ملك)

أما يوم القيامة فيكونون كما قال تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى
كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) .

وكقوله : (هلك عنى سلطانيه) ، فقد ذهب كل سلطان وكل
ملك ، والملك يومئذ لله الواحد القهار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَطْفِقِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ .

التطفيف : التنقيص من الطفيف ، وهو الشيء القليل .

وقد فسر ما بعده في قوله تعالى (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) .

قالوا : نزلت في رجل كان له مكيالان كبير وصغير ، إذا اكتال لنفسه على غيره ، اكتال بالمكيال الكبير ، وإذا كال من عنده لغيره ، اكتال بالمكيال الصغير ، ففي كلتا الحالتين تطفيف ، أى تنقيص على الناس من حقوقهم .

والتقديم في افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففين ، يشعر بشدة خطر هذا العمل ، وهو فعلا خطيراً ، لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل ، فإذا اختل أحدث خللاً في اقتصاده ، وبالتالي اختلال في التعامل ، وهو فساد كبير .

وأكبر من هذا كله ، وجود الربا إذا بيع جنس بنفسه ، وحصل تفاوت في الكيل أو الوزن .

وفيه كما قال تعالى : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) .

ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن ، والحث على العناية بهما في عدة مواطن ، بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام .

فقد ورد في الأنعام والأعراف وهود وبني إسرائيل والرحمن والحديد ، أى في ست سور من القرآن الكريم .

أولا في سورة الأنعام ، في سياق ما يعرف بالوصايا العشر : (قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) . وذكر برّ الوالدين والنهي عن قتل الأولاد والقرب من الفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله ، والنهي عن مال اليتيم .

ثم قال : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عندها كلاماً موجزاً مفيداً ، بأن الأمر هنا بقدر الوسع ، ومن أخل من غير قصد التعدي ، لا حرج عليه .

وقال : ولم يذكر هنا عقوبة لمن تعمد ذلك ، ولكنه توعد به بالويل في موضع آخر ، وساق أول هذه السورة : (ويل للطففين) .

كما بين عاقبة الوفاء بالكيل بقوله : (ذلك خير وأحسن تأويلاً)
أى مآلاً .

وهنا يلفت كلامه رحمه الله النظر إلى نقطة هامة . وهى فى قوله
تعالى : (لا تكلف نفساً إلا وسعها) حيث إن التطفيف الزيادة
للطفيفة ، والشئ الطفيف القليل .

فكان الآية هنا تقول : تحروا بقدر المستطاع من التطفيف ولو يسيراً .
وبعد بذل الجهد لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وهذا غاية فى
التحرى مع شدة التحذير والتوعد بالويل ، وإذا كان الوعيد بالويل
على الشئ الطفيف ، فما فوقه من باب أولى .

الموضع الثانى فى سورة الأعراف من قوله تعالى : (وإلى مدين
أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم إله غيره ، قد جاءكم
بينه من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم
ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم
مؤمنين) .

فاقترن الأمر بالوفاء بالكيل ، بالأمر بعبادة الله وحده ، لأن
فى الأمرين إعطاء كل ذى حق حقه ، من غير ما نقص .

وبين أن فى عدم الإيفاء المطلوب بخس الناس أشياءهم ، وفساد
فى الأرض بعد إصلاحها .

الموضع الثالث في سورة هود ، ومع شعيب أيضاً : (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) .

وبنفس الأسلوب أيضاً كما تقدم ، ربطه بعبادة الله تعالى وحده ، وتكرار الأمر بعد النهي ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، ثم أوفوا الكيل والميزان بالقسط نهى عن نقصه ، وأمر بإيفائه نفس على المفهوم بالتأكيد . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، مع التوجيه بأن ما عند الله خير لهم .

الموضع الرابع في سورة بني إسرائيل (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) أي اعتدال في الإنفاق مع نفسه ، فضلاً عن غيره ، ثم إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ثم (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وكلها في مجال الافتصاد وبعدها (ولا تقربوا الزنا) (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) .

وقد يكون الباعث عليهما أيضاً غرض مالي (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) ، وهو من أخص أبواب المال .

ثم الوفاء بالعهد ثم (وأوفوا الكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً) ، فمع ضروريات الحياة حفظ النفس والعرض والمال يأتي الحفاظ على الكيل والوزن .

الموضع الخامس في سورة الشورى وهو أعم مما تقدم ، وجعله مقرونا بإنزال الكتاب في قوله تعالى : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب) .

وتكلم الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه عند هذه الآية ، بما أشرنا إلى أنه عام ، فقال : الميزان هنا مراد به العدل والإنصاف ، وأن هذا المعنى متضمن آلة الوزن وزيادة .

وأورد بقية الآيات هنا في مبحث مفصل ، فذكر آية الرحمن وآية الحديد ، وتكلم على الجميع بالتفصيل .

وفي قوله تعالى في سورة الرحمن : (والسماء رفعها ووضع الميزان) مقابلة عظيمة بين رفع السماء الذى هو حق وعدل وقدره ، والميزان وضعه فى الأرض ، لتقوموا بالعدل والإنصاف ، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض .

وفي سورة الحديد اقتران الميزان بإرسال الرسل وإنزال الكتب (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) .

ومعلوم أن الميزان الذى أنزل مع الكتاب هو ميزان الحق

والعدل ، والنهي عن أكل أموال الناس بغير حق ، وعدم بخس الناس أشياءهم .

فكانت هذه الآية أعم وأشمل آيات الوفاء في الكيل والوزن ، بمثابة قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه .

وكذلك هنا الميزان مع الكتاب المنزل ، وبه يستوفى كل إنسان حقه في أي نوع من أنواع التعامل ، فكل من غش في سلعة أو دلس أو زاد في عدد ، أو نقص أو زاد في ذر ، أو نقص فهو مطفف للكيل ، داخل تحت الوعيد بالويل .

فمن باع ذهباً مثلاً على أنه صافٍ من الفش وزن درهم ، وفيه من النحاس عشر الدرهم ، فقد نقص وطفف لنفسه فأخذ حق درهم كامل . ذهباً ، ونقص حيث أعطى درهماً إلا عشراً .

ومن باع رطلاً سمناً وفيه عشر الرطل شحماً ، فقد طفف بمقدار هذا العشر لنفسه ، ونقص وبخس المشتري بمقدار ذلك :

وهكذا من باع ثوباً عشر أمتار وهو ينقص ربع المتر فقد طفف وبخس بمقدار هذا الربع .

وهكذا في القسمة بين الناس وبين الأولاد ، وبين الأهل وكل ما فيه عطاء ، وأخذ بين اثنين ، الله تعالى أعلم .

ومن باب ما يذكره العلماء في مناسبات السور بعضها من بعض .
 فقد قال أبو حيان لما ذكر السورة التي قبلها مصير الأبرار والفجار
 يوم القيامة ، ذكر هنا من موجبات ذلك وأهمها تطفيف الكيل ،
 وبخس الوزن ، وهذا في الجملة متوجه ، ولكن صريح قوله تعالى في
 السورة السابقة (وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت)
 فهو وإن كان عاما في كل ما قدمه لنفسه من عمل الخير ، وما أخر من
 أداء الواجبات عليه ، فإنه يتضمن أيضا خصوص ما قدم من وفاء في
 الكيل ورجحان في الوزن ، وما أخر من تطفيف في الكيل وبخس
 طمعا في المال وجمعا للتراث ، كما قال تعالى : (وتأكلون التراث
 أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما ، كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ،
 وجاء ربك والملك صفا صفا ، وحى يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان
 وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحياتى) .

ومن هنا يعلم للعاقل أن ماطفف من كيل أو بخس من وزن ،
 مهما جمع منه ، فإنه يؤخره وراءه ومستول عنه ، ونادم عليه ، وقائل :
 يا ليتنى قدمت لحياتى ، ولات ساعة مندم .

قوله تعالى أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

تقريب وتوبيخ لهؤلاء الناس ، وفيه مسألتان :

الأولى : أن الباعث على هذا العمل هو عدم اليقين بالبعث أو

(٧ - أضواء البيان ج ٩)

اليقين موجود ، لكنهم يعملون على غير الموقنين أى غير مبطلين ،
كما قال الشاعر فى مثل ذلك ، وهو مايسعى فى البلاغة بلازم
الفائدة :

جاء شقيق عارضا ربحه — إن بنى عمك فيهم رماح

فالمكلم يعلم أن شقيقا عالم بوجود الرماح فى بنى عمه ، وأنهم
متمدون للحرب معه ، ولكنه رأى منه عدم المبالاة وعدم الاستعداد ،
بأن وضع ربحه أمامه معترضا فهو بمنزلة من لا يؤمن بوجود الرماح
فى بنى عمه ، وهو لم يرد بكلامه معه أن يخبره بأمر يجهله ، ولكنه
أراد أن ينبه لما يجب عليه فعله من التأهب والاستعداد ، وهكذا
هنا ، وهذا عام فى كل مسوّف ومتساهل كما جاء : « لا يزنى الزانى
حين يزنى وهو مؤمن » إلخ .

أى وهو مؤمن بالإيمان ولوازمه من الجزاء والحداب .

المسألة الثانية من قوله تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين)
يفهم أن مطفف السكيل والوزن وهم يعلمون هذا حقيقة غالبا ولا يطلع
عليه الطرف الآخر ، فيكون الله تعالى هو المطلع على فعله ، فهو الذى
سيحاسبه ويناقشه ، لأنه خان الله الذى لا تخفى عليه خافية سبحانه ،
وإذا قال تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ولم يقل : يوم
يقتص لكل إنسان من غريمه ، ويستوفى كل ذى حق حقه .

تَحذِيرٌ شَدِيدٌ

قال القرطبي عند هذه الآية : وعن عبد الملك بن مروان أن
أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال الله في المطففين ، فما ظنك بنفسك
وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . ١٠ هـ .

إنها مقالة ينبغي أن يقال لكل آكل أموال الناس بغير حق
أَيَّا كَانَ هُوَ ، وبأى وجه يكون ذلك .

تَنْبِيْهُ

من المعلوم أن كل متبايعين يطلب كل منهما الأحظ لنفسه ،
فالطَّفُّ لابد أن يخفى طريقه على غريمه .

وذكر علماء الحسبة طرقا عديدة مما ينبغي لولى الأمر خاصة ،
والمعامل مع غيره عامة ، أن يتنبه لها .

من ذلك قالوا . أولا من ناحية المكيال قد يكون جرم الميكال ليناً
فيضفطه بين يديه ، فتقارب جوانبه فينقص ما يحتوى عليه ، ولذا
يجب أن يكون إناء الكيل صلبا ، والغالب جملة من الخشب أو
ما يعادله .

ومنها : أنه قد يكون خشباً منقوراً من حوفه ، ولكن لا يبلغ

بالتجويف إلى نهاية المقدار المطلوب ، فيرى من خارجه كبيرا ، ولكنه من الداخل صغير لقرب قعره .

ومنها : قد يكون منقورا إلى نهاية الحد المطلوب ، ولكنه يدخل فيه شيئا يشغل فراغه من أسفله ، ويثبت في قعره . فينقص ما يكال بقدر ما يشغل الفراغ المذكور ، فقد يضع ورقا أو خرقا أو جبا أو نحو ذلك .

ثانيا : من ناحية الميزان قد يبرد السنج ، أى معاير الوزن حتى ينقص وزنها ، وقد يحوف منها شيئا ويملا التجويف بمادة أخف منها .

ولذا يجب أن يتفقد أجزاء المماير ، وقد يتخذ معايرا من الحجر فتتناقص بكثرة الاستعمال بسبب ما يتحقت منها على طول الأيام .

ومنها : أن يضع تحت الكفة التى يزن فيها السلعة شيئا مثقلا لاصقا فيها ، لينتقص من الوزون بقدر هذا الشيء .

ولكيلا يظهر هذا ، فتراه دائما يضع المعيار فى الكفة الثانية لتكون راجعة بها .

وهناك أنواع كثيرة ، كأن يطرح السلعة فى الكفة بقوة ، فترجع بسبب قوة الدفع ، فيأخذ السلعة حالا قبل أن ترجع إلى أعلا ، موهما الناظر أنها راجعة بالميزان .

أما آلة الذرع فقد يكون المقياس كاملا وافيا ، ولكنه بمد أن
يقيس المتر الأول يدفع بالآلة إلى الخلف ، ويسحب بالمدروع إلى الأمام
بمقدار الكف مثلا ، فيكون النقص من المدروع بقدر ما سحب من
القماش .

وكلها أمور قد تخفى على كثير من الناس ، وقد وقع لى مع بائع
أن لاحظت عليه فى ميزان مما يرفعه بيده حتى أعاد الوزن خمس مرات
فى كل مرة ، يأتى بطريقة تفاير الأخرى ، حتى قضى ماعنده فالتفت
إلى وقال لى : لا أبيع بهذا السعر ، فقلت له : خذ ما تريد وزن كما
أريد ، فطلب ضعف الثمن فأعطيته فأعطانى الميزان لأزن بنفسى .

وهنا ينبى أن ننبه على حالات الباعة حينما يكون السعر مرتفعا
ونجد بائعا يبيع برخص ، فقد يكون لعله فى الوزن أو فى الساعمة أو مضرة
الآخر .

تنبيه آخر

بهذه الأسباب وحقائقها وشدة خطرها كان عمر رضى الله عنه
يتجول فى السوق بنفسه ، ويتفقد المكيال والميزان . يخرج من السوق
من يجد فى مكياله أو ميزانه نقصانا ، ويقول : لاتمنع عنا المطر .

وهكذا يجب على ولاة الأمور تفقد ذلك باستمرار ، ولا سيما فى
البلاد التى يقل فيها الوازع الدينى وتشتد فيها الأسعار ، بما يلجىء الباعة
إلى التحايل أو العناد .

وقد منع عمر بائع زيب أرخص السمر لعله أن تاجراً قدم ومعه زيب بكثرة ، فقبل لعمر : لماذا منعت البيع برخص ؟ فقال : لأنه يقصد السوق ، فيخسر القادم قيمته من الجلب إلى المدينة ، وهذا قد ربح من قبل .

تنبيه آخر

مما ينبغي أن يعلم أن نوع المكيال ومقداره ونوع الميزان ومقداره مرجعه إلى السلطان ، كما قال علماء الحسبة : أن على الأمة أن تطيع السلطان في أربع : في نوع المكيال والميزان ، ونوع العملة التي يطرحها للتعامل بها ، وإعلان الحرب أو قبول الصلح .

فإذا اتخذ الصاع أو المد أو الكيلة أو الويبة أو القدح ، أو أى نوع كبيراً كان أو صغيراً ، فيجب التقييد به في الأسواق .

وكذلك الوزن اتخذ الدرهم والأوقية والرطل أو الأقة أو اتخذ الجرام والكيلو فكل ذلك له .

أما إذا كان الأمر بين اثنين في قسمة مثلاً كقسمة صبرة من حب ففترضوا على أن يقسموها بإناء كبير للسرعة وكان مضبوطاً ، لا يختلف به المرات ، بأن يكون صلباً ويمكن السكيل به .

أو كذلك الوزن اتفقوا على قطعة حديد معينة ، لكل واحد وزنها

عدة مرات فلا بأس بذلك ، لأن الفرض قسمة المجموع لامثامنة على
على الأجزاء .

أما المكاييل الإسلامية الأساسية والموازن ، فقد تقدم بيانها من
الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في زكاة ما يخرج من الأرض ،
وزكاة النقدين ، وقد منّا بيان مقابله بالوزن الحديث في زكاة الفطر ،
عند قوله تعالى : (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وبالله
تعالى التوفيق .

غريبة

في ليلة الفراغ من كتابة هذا المبحث رأيت الشيخ رحمة الله
تعالى علينا وعليه فيما يرى النائم ، وبعد أن ذهب عني رأيت من
يقول لي : إن لتطقيف الكيل والوزن دخلا في الربا ، فألحقته في أول
المبحث ، بعد أن تأماتته فوجدته صحيحاً بسبب المفاضلة .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

ران : بمعنى غطى كما في الحديث « إذا أذنب العبد نكت في
قلبه نكتة سوداء ، وما يزال كذلك حتى يغطيه » الحديث .

وقال الشاعر :

وكم ران من ذنب على قلب فاجر فتاب من الذنب الذي ران فأنجلي

وقال أبو حيان : وأصل الرين : الغلبة : يقال : رانت الخمر على عقل شاربها واشتدت :

ثم لما رآه رانت به الخمر وألا يريه بانتفاء

بيان القراءات في هذه الآية :

قال أبو حيان : قرىء بل ران بإدغام اللام في الراء وبالإظهار وقف حفص على بل وقفاً خفيفاً يسيراً ليتبين الإظهار .

وقال أبو جعفر بن الباذش : وأجمعوا ، يعني القراء ، على إدغام اللام في الراء ، إلا ما كان من سكت حفص على بل ، ثم يقول : ران . وهذا الذي ذكره كما ذكر من الإجماع .

ففي كتاب اللوامع عن قالون من جميع طرقه : إظهار اللام عند الراء نحو قوله : بل رفعه الله إليه بل ربكم .

وفي كتاب ابن عطية . وقرأ نافع : بل ران من غير مدغم .

وفيه أيضاً : وقرأ نافع أيضاً : بالادغام والإمالة .

وقال سيبويه : البيان والإدغام حسنان .

وقال الزمخشري : وقرىء بإدغام اللام في الراء ، وبالإظهار والإدغام أجود ، وأميت الألف وفخمت . اهـ .

أما المعنى فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك وافيافي سورة الكهف عند الكلام على قوله تعالى : (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَهُمْ مِّسْكَ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

توجيه إلى ما ينبغي أن تكون فيه المنافسة ، وهي بمعنى الرغبة في الشيء .

قال أبو حيان : نافس في الشيء رغب فيه ، ونفست عليه بالشيء أنفس نفاسة ، إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه .

والذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أن ذلك من المطالبة والمكاثرة بالشيء النفيس ، فكل يسابق إليه ليحوزه لنفسه .

وفي هذه الآية الكريمة لفت لأول السورة ، إذا كان أولئك يسمعون لجمع المال بالتطافيف ، فلهم الويل يوم القيامة .

وإذا كان الأبرار في نعيم يوم القيامة ، وهذا شرابهم ، فهذا هو محل المنافسة ، لافي التطافيف من الحب أو أى مكيل أو موزون .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ .

وصفهم بالإجرام هنا يشعر بأنه السبب في ضحكهم من المؤمنين

وتغامزهم بهم ، وتقدم في سورة البقرة بيان موجب آخر في قوله تعالى :
(زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) .

وقد بين تعالى في سورة البقرة أن الذين اتقوا فوق هؤلاء يوم
القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وتكلم الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه هناك ، وأحال على
هذه الآية في البيان لنوع السخرية ، وزاد البيان في سورة الأحقاف
على قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا
ما سبقونا إليه) .

ومن الدافع لهم على هذا القول ونتيجة قولهم ، وساق آية المطففين
عندها ، وكذلك عند أول سورة الواقعة على قوله تعالى (خافضة
رافعة) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هذه الحالة ليست خاصة بهذه الأمة ،
بل تقدم التنبيه على أنها في غيرها ممن تقدم من الأمم .
ففي قوم نوح : (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه
سَخَرُوا مِنْهُ)

وكان نفس الجواب عليهم : (قال إن تسخروا منا فإننا نسخر
منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه
عذاب مقيم)

وجاء بما يفيد أكثر من ذلك حتى بالرسول في قوله تعالى :
 (ولقد استهزىء برسل من قبلك لحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا
 به يستهزون) .

ومثلها في سورة الأنبياء بنص الآية المذكورة .

تنبيه

إذا كان هذا حال بعض الذين أجرموا مع بعض ضعفة المؤمنين ،
 وكذلك حال بعض الأمم مع رسلها ، فإن الداعية إلى الله تعالى يجب
 عليه ألا يتأثر بسخرية أحد منه ، ويعلم أنه على سنن غيره من
 الدعاة إلى الله تعالى ، وأن الله تعالى سينتصر له إما عاجلاً وإما آجلاً ،
 كما في نهاية كل سياق من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَرِ يَضْحَكُونَ ،
 عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، هَلْ ثَوَّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وهذا رد على سخرية المشركين منه في الدنيا ، وهو كما قال تعالى :
 (والذين اتقوا ^{فيهم} يوم القيامة) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في سورة المؤمنون
 على الكلام على قوله (إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)
 والحمد لله رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَنْشُقَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴾ .

تقدم الكلام عليه في أول سورة الانفطار ، عند قوله تعالى :
(إذا السماء انفطرت) ، والإحالة على كلام الشيخ رحمه الله تعالى علينا
وعليه في سورتي الشورى وق

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾

تقدم بيان مادة أذن في سورة الجمعة ، عند الكلام على الأذان ،
وأذنت هنا بمعنى استمعت وأطاعت ، وحقت أى حق لها أو هى محققة
بذلك ، أى لا يوجد ممانع لهذا الأمر .

وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازى فى أذنت ، أى لما لم
يكن ممانعة من تشققها ، كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع .

وقد قدمنا أن للجادات بالنسبة إلى الله تعالى حالة لا كهى بالنسبة
للمخلوقين ، فى مبحث أول الحشر فى معنى التسبيح من الجادات .

وقد جاء صريحاً فى حق السماء والأرض من ذلك قوله تعالى :
إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها

وأشفقن منها) ، وقال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .

أى سويت وأزيلت جبالها ، وسويت وهادها ، كما قال تعالى : (ويسألونك عن الجبال فقل ينفسها ربي نسفا فيزرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) .

ومن هذا الحديث عن ابن عباس وعن علي . وساق هذا الثاني ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى ابن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى » الحديث .

وعن ابن عباس « تمد كما يمد الأديم المكافى » .

وعند القرطبي عن ابن عباس « يزداد فيها كذا وكذا » .

وقال الرازي : هو بمعنى تبدل الأرض غير الأرض ، والواقع أن استبدال الأرض غير الأرض ليس على معنى الذهاب بهذه الموجودة والإتيان بأرض جديدة ، لما جاء في حديث الأذان : « مامن حجر ولا مدر ولا شجر ، يسمع صوت المؤذن إلا يشهد له يوم القيامة » والذي يؤتى ، من جديد ، لا يتأتى له أ يشهد على شيء لم يشهده ،

وعلى كل فإن تسير الجبال وتسوية الأرض لاشك أنه يوحد زيادة في وجه الأرض ومساحتها ، فسواء مدت بكذا وكذا . كما قال ابن عباس ، أو مدت بتوسعة أديمها وزيد في بسطها ، بعد أن تلقى مافي جوفها كالشيء السميكة إذا ماضط ، نخت سماكته وزادت مساحته ، كما يشير إليه قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) .

وقوله : (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فمى يومئذ واهية) .

فيكون مد الأرض بسبب دكها ، فيزاد في بسطها ، ولعل هذا الوجه هو ما يشهد له القرآن لجمع الأمرين هنا ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء ، فهو وفق مافي هذه السورة (إذا السماء انشقت) ، وبعدها (وإذا الأرض مدت) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

قيل : ألت كنوزها وتخلت عنها ، ورد هذا بأن ذلك قد يكون قبل الساعة .

وقيل : ألت الموتى وتخلت عنهم بعد قيامهم وبعثهم من قبورهم فلم يبق في جوف الأرض أحد .

وقوله تعالى : وتخلت : أى بعد أن كانت لهم كفافة أحياء وأموانا ، وبعد أن كانت لهم مهادا ، لفظتهم وتخلت عنهم ، وهذا مايزيد فى رهبة الموقف وشدته والتضييق على العباد ، وألا ملجأ لهم ولا منجى إلا إلى الله ، كما قال تعالى : (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر)

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت ﴾ .

أى كما أذنت السماء ، فالكون كله إذن مطيع منقاد لأوامر الله ، طوعا أو كرها .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ .

قيل : الإنسان للجنس وقيل لفرد ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن السياق يدل للأول للتقسيم الآتى ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، لأنه لا يكون لفرد ، وإنما للجنس وعلى أنه للجنس فالكدح العمل جهد النفس .

وقال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

وقال غيره مشيراً إلى أن الكدح فيه معنى النصب :

ومضت بشاشة كل عيش صالح وبقيت أكدح للحياة وأنصب

ويشهد لهذا قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في كبد) كما قدمنا في محله .

تنبيه

من هذا العرض القرآني الكريم من مقدمة تغيير أوضاع الكون سماء وأرضاً ، ووضع الإنسان فيه يكدر إلى ربه كدحاً ففلاقيه ، أى بعمله الذى يحصل عليه من خلال كدحه ، فإن العاقل المتبصر لا يجعل كدحه إلا فيما يرضى الله ويرضى هو به ، إذا لقي ربه مادام أنه كادح ، لاحالة كما هو مشاهد .

تنبيه آخر

قوله تعالى : (يأيها الإنسان) عام في الشمول لكل إنسان مهما كان حاله من مؤمن وكافر ، ومن بر وفاجر ، والكل يكدر ويعمل جاهد التحصيل ما هو مقبل عليه ، كما في الحديث : « اعملوا كل ميسر لما خلق له » أى ومجد فيه وراض به ، وهذا منتهى حكمة العليم الخبير .

ومما هو جدير بالتنبيه عليه ، هو أنه إذا كانت السماء مع عظم جرمها ، والأرض مع مساحة أصلها أذنت لربها وحققت ، مع أنها لم تتحمل أمانة ، وإن تسأل عن واجب فكيف بالإنسان على ضعفه ، (أنتم أشد خلقاً أم السماء) ، وقد تحمل أمانة التكليف فأشفقن

منها وحملها الإنسان ، فكان أحق بالسمع والطاعة في كدحه ، إلى أن يلقى ربه لما يرضيه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ، وَيَصْلَى سَعِيرًا ، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ، إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ

في هذا التفسير بيان لمصير الإنسان نتيجة كدحه ، وما سجل عليه في كتاب أعماله ، وذلك بعد أن تقدم في الانفطار قوله : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) .

وجاء في المطففين (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) ثم بعده (كلا إن كتاب الأبرار لفي علين) .

جاء هنا بيان إتيانهم هذه الكتب مما يشير إلى ارتباط هذه السور بعضها ببعض ، في بيان مآل العلم كله ومصير الإنسان نتيجة عمله .

وتقدم للشيخ مباحث إتيان الكتب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر ، عند كل من قوله تعالى : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) في سورة الإسراء — إلى قوله تعالى — (فمن أوتى كتابه يمينه)

وبين أحوال الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال ، وأحوال على أول
السورة .

وقوله (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) في سورة
الكهف وهنا ذكر سبحانه وتعالى حالة من حالات كلا الفريقين .

فالأولى محاسب حساباً يسيراً وهو العرض فقط دون مناقشة ، كما
في حديث عائشة رضي الله عنها « من نوقش الحساب عذب »

والثانية : يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك ، ومنه : المواطأة
على الشيء سميت مثابرة ، لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه في طلبه .

وهنا مقابلة عجيبة بالغة الأهمية ، وذلك بين سرورين أحدهما
آجل والآخر عاجل .

فالأول في حق من أوتى كتابه بيمينه ، أنه ينقلب إلى أهله
مسروراً ينادى فرحاً (هوؤم اقرءوا كتابيه) ، وأهله آنذاك في الجنة
من الحور والولدان ، ومن أقاربه الذين دخلوا الجنة ، كما في قوله تعالى
(جنات عدن يدخلونها ومن صالح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)

وقوله : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم
ذريتهم) ، فهم وإن كانوا ملحقين بهم إلا أنهم من أهلهم ، وهذا
من تمام النعمة أن يعلم بها من يعرفه من أهله ، وهذا مما يزيد سرور
العبد ، وهو السرور الدائم .

والآخر سرور عاجل ، وهو لمن أعطوا كتبهم بشمالهم ، لأنهم كانوا في أهلهم مسرورين في الدنيا ، وشتان بين سرور وسرور .

وقد بين هنا نتيجة سرور أولئك في الدنيا ، بأنهم يصلون سعيرا ، ولم يبين سبب سرور الآخرين ، ولكن بينه في موضع آخر وهو خوفهم من الله في قوله تعالى : (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم) .

وهنا يقال : إن الله سبحانه لم يجمع على عبده خوفان ، ولم يعطه الأمان معاً ، فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة (وإن خاف مقام ربه جنتان) .

(فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى) .

ومن أمن مكر الله وقضى كل شهواته وكان لا يبالي فيؤتى كتابه بشماله ويصلى سعيرا ، كما في قوله تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصررون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لبعوثون) تكذيبا للبعث . وقوله هذا هو بعينه المذكور في هذه الآيات (إنه ظن أن لن يحور) .

وقوله : (إنه ظن أن لن يحور) ، هذا الظن مثل ما تقدم في حق
المطففين (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) مما يشعر أن
عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه ، هو الدافع لكل سوء والمضيق
لكل خير ، وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والمانع
لكل شر ، والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة كما في
مستهل المصحف (هدى للمتقين) الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ
إِذَا اتَّسَقَ ، لَنَرَكُ كَبْنًا طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ .

الشفق لغة : رقة الشيء .

قال القرطبي : يقال شيء شفيق ، أى لا تماسك له لرقته ، وأشفق
عليه أى رق قلبه عليه ، والشفقة الاسم من الإشفاق وهو رقة القلب ،
وكذلك الشفق .

قال الشاعر :

تهوى سياتى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم

فالشفق بقية ضوء الشمس وحررتها ، فكأن تلك الرقة من ضوء

الشمس .

ونقل عن الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت

العشاء الآخرة إذا ذهب ، قيل : غاب الشفق . اهـ .

وهذا ما عليه الأئمة الثلاثة في توقيت وقت المغرب من غروب الشمس إلى غياب الشفق ، وهو الحمرة بعد الغروب ، كما قال الخليل .

وعند أبي حنيفة رحمه الله : أن الشفق هو البياض الذي بعده .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في بيان أوقات الصلوات الخمس عند قوله تعالى : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون) ورجح أن الشفق : الحمرة .

ونقل القرطبي قولاً ، قال : وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلاً .

وقال الخليل : صعدت منارة الاسكندرية فرمقت البياض فرأيت أنه يتردد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب .

وقال ابن أويس : رأيت أنه يتمادى إلى طلوع الفجر ، ثم قال : قال علماءنا : فلما لم يتجدد وقته سقط اعتباره . اهـ .

فهو بهذا يرجح مذهب الجمهور في معنى الشفق ، والنصوص في ذلك من السنة فيها مقال .

فقد روى الدارقطني حديثاً مرفوعاً : الشفق الحمرة .

وتكلم عليه الشوكاني ثم ذكر من يقو به من الصحابة وهم ابن عمر ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وعبادة . ومن الأئمة : الشافعي ،

وابن أبى ليلي ، والثوري ، وأبو يوسف ومحمد ، من الفقهاء ، والخليل
والفراء من أهل اللغة .

فأنت ترى أن أبا يوسف ومحمداً من أصحاب أبى حنيفة وافقا
الجمهور .

وفى شرح الهداية أيضاً : رواية عن أبى حنيفة .

أما ما ذكره القرطبي ففيه نظر ، أى من جهة عدم غياب البياض ،
فإن المعروف عند علماء الفلك أن بين الأحمر والأبيض مقدار درجتين ،
والدرجة تعادل أربع دقائق ، وعليه فالفرق بسيط ، والله تعالى أعلم

وقوله : (والليل وما وسق) هو الجمع والضم للشئ الكثير ،
ومنه سمي الوسق بمقدار معين من مكيل الحب ، وهو ستون صاعا .
وقيل : فيه معانٍ أخرى ، ولكن هذا أرجحها .

والمعنى هنا : والليل وما جمعه من المخلوقات . قيل : كأنه أقسم بكل
شئ كقوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) .

وقوله : (والقمر إذا تسق) أى انسع أى تكامل نوره ، وهو
افتعل من وسق ، والقاعدة الصرفية أن فاء الفعل المثالي ، أى الذى
فاؤه واو ، إذا بنى على افتعل تقلب الواو تاء وتدغم التاء فى التاء ،
كما فى : وصلته فاتصل ووزنته فاتزن ، أو تصل أو تزن ، وهكذا هنا
أو تسق .

وقوله : (لتركبن طبقاً عن طبق) .

قال ابن جرير : اختلف القراء في قراءته ، فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قراء مكة والكوفة لتركبن بفتح التاء والتاء ، واختلف قارئوا ذلك في معناه ، فقال بعضهم : يعنى يا محمد ، ويعنى حالات الترقى والعلو والشدائد مع القوم ، وهذا المعنى عن مجاهد وابن عباس .

وقيل : طبقاً عن طبق : يعنى سماء بعد سماء ، أى طباق السماء ، وهو عن الحسن وأبى العالية ومسروق .

وعن ابن مسعود : أنها السماء تتغير أحوالها تتشقق بالغمام ، ثم تحمر كاللؤلؤ ، إلى غير ذلك . وقد رجح القراءة الأولى والمعنى الأول .

وقرأ عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين : لتركبن بالتاء وبضم التاء على وجه الخطاب للناس كافة .

وذكر المفسرون لمعناه حالا بعد حال معان عديدة طفولة وشباباً وشيخوخة ، فقرراً وغنى ، وقوة وضعفاً ، حياة وموتاً وبعثاً ، رخاءً وشدة ، إلى كل ما تحتمله الكلمة .

وقال القرطبي : السكل محتمل ، وكله مراد ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن ذلك إنما هو بعامة الناس ويكون يوم القيامة ، إذ السياق فى أصول البعث ، إذا السماء انشقت ، وإذا الأرض مدت ،

فأما من أوتى كتابه بييمنه وذكر الحساب المنقلب ، ثم التعبير بالمستقبل
التركن ، ولو كان لأمر الدنيا من تغير الأحوال لكان أولى به الحاضر
أو الماضي ، وإن كان من المستقبل ماسيأتى من الزمن لكنه ليس
بجديد ، إذ تقلب الأحوال فى شأن الحياة أمر مستقر فى الأذهان ،
ولا يحتاج إلى هذا الأسلوب .

أما أمور الآخرة من بعث ، وحشر ، وعرض ، وميزان وصراط
وتطـاير كتب ، واختلاف أحوال الناس باختلاف المواقف ،
فى عرصات القيامة فهى الحرية بالتنبيه عليها والتحذير منها والعمل
لأجلها فى كدحه إلى ربه ، فلذا جاء بذلك وهو مشعر باستمرار حالة
الإنسان بعد الكدح إلى حالات متعددة ودرجات متفاوتة .

ولو اعتبرنا حال المقسم به من حيث تطور الحال من شفق أو
آخر ضوء الشمس ثم ليل ، وما جمع وغطى بظلامه ، ثم قر يبدأ
ـللا إلى اتساق نوره ، لكان إنتقالا من تغير حركات الزمن إلى
تغير أحوال الإنسان قطعا ، وأن القادر على ذلك فى الدنيا قادر على
ذلك فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ
غَيْرُ مَمْنُونٍ .

قيل : المن : القطع والنقص ، ومنه قول الشاعر :

لمعفر قهد تنائر شلوه عنس كواسب مايمن طعامها
والقهد : ضرب من الضأن تعلوه حرة صغيرة آذانه ، والكواسب :
الوحوش ، أى ذئاب أو سباع لا ينقطع طعامها .

وقال القرطبي : مننت الحبل إذا قطعه .

وسأل نافع بن الأزرق ، ابن عباس عنها فقال : غير مقطوع ، فقال
هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم ، قد عرفه أخو بشكر ،
حيث يقول :

فترى خلفهن من سرعة الرجـع منينا كأنه أهباء

قال المبرد : المنين الغبار لأنها تقطعه ورائها .

وقيل : غير ممنون أى غير ممنون به عليهم ، ليكمل النعمة عليهم .

وقال ابن جرير : غير ممنون : أى غير محسوب ولا منقوص .

وذكره عن ابن عباس ومجاهد .

وقال ابن كثير : غير مقطوع ، كقوله تعالى (عطاء غير

مجدوذ) ورد قول من قال إنه غير ممنون به عليهم ، لأن الله تعالى
أن يمتن على عباده وهم ما دخلوا الجنة إلا بفضل من الله ومنه
عليهم . انتهى .

ومما يشهد لقول ابن جرير غير محسوب عموم قوله تعالى : (إن

الله يرزق من يشاء بغير حساب) وخصوص قوله تعالى : (ومن

عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يرزقون فيها
بغير حساب) .

وقوله تعالى : (جزاء من ربك عطاء حساباً) فهو بمعنى كافياً
من قولك : حسبي بمعنى كافيني .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن كلا من المعنيين مقصود ولا
مانع منه ، وما ذهب إليه ابن كثير لا يتعارض مع قول الآخرين ،
لأن المن المنوع هو ما فيه أذى وتنقيص ، كما في قوله : (ثم لا
يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى) أما المن من الله تعالى على عبده ، فهو
عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه . والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبُرُوجِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ .

البروج : جمع برج ، واختلف في المعنى المراد به هنا هل هي المنازل أو الكواكب أو قصور في السماء عليها حراسها ؟

وتقدم لشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة الحجر ، عند الكلام على قوله تعالى (ولقد جعلنا في السماء بروجا) ، وفي سورة الفرقان عند قوله تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً) .

وقال : إن أصل هذه المادة من الظهور ، ومنه تخرج المرأة ، وساق بيان المعنى المقصود من يروج السماء وعدد المنازل المذكورة .

وبمناسبة ارتباط السور بعضها ببعض ، فإن بعض المفسرين يقول : لما ذكر مآل الفريقين وتطائر الصحف في السورة الأولى ، ذكر هنا عملاً من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين في قصة الأخدود .

والذي يظهر أقوى من هذا ، هو والله تعالى أعلم : أنه لما ذكر

سابقا انقطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء ، وإذنها لربها وحق لها ذلك ، جاء هنا بيان كنه هذه السماء أنها عظمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة ، فهي مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر ، فأولى بك أيها الإنسان ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .

هو يوم القيامة بإجماع المفسرين ، وقد كانوا يوعدون به في الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين ، كما قال تعالى في حق المؤمنين (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وفي حق الكفار (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) وسيترفون بذلك عند البعث حينما يقولون : (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فاليوم الموعود هو يوم للقيامة الموعود به لمجازات كلا الفريقين على هملهم .

قوله تعالى : ﴿ وَشَهِيدٌ وَمَشْهُودٌ ﴾ .

لم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود ، وقد ذكر الشاهد في القرآن . بمعنى الحاضر ، كقوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقوله : (عالم الغيب والشهادة) .

وذكر المشهود بمعنى المشاهد باسم المفعول ، كقوله تعالى : (ذلك يوم - مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) .

فالشاهد والمشهود قد يكونان من المشاهدة ، وذكر الشاهد من الشهادة ، والمشهود من المشهود به أو عليه ، كما في قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

فشهيد الأولى : أى شهيد على الأمة التى بعثت فيها ، وشهيد الثانية : أى شاهد على الرسل فى أمهم .

ومن هنا اختلف أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولاً .

قال ابن جرير : ما ملخصه : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة أو النحر ، وعزاه لعلى وأبى هريرة ، والشاهد محمد

صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لابن عباس والحسن ابن علي .

والشاهد الإنسان ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لمجاهد وعكرمة .

والشاهد هو الله ، والمشهود هو يوم القيامة ، وعزاه لابن عباس .

ثم قال : والصواب عندي أنه صالح لكل ما يقال له مشاهد ، ويقال له مشهود فلم يفصل ما إذا كان بمعنى الحضور ، أو الشهادة ، ومثله القرطبي وابن كثير .

وقد فصل أبو حيان على ما قدمنا ، فقال : إن كان بمعنى الحضور ، فالشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة ، ولما ذكر اليوم الموعود ناسب أن يذكر كل من يشهد في ذلك اليوم ، ومن يشهد عليه ، وذكر نحواً من عشرين قولاً .

وقال : كل له متمسك ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أنه من باب الشهادة لأن ذكر اليوم الموعود وهو يكفي عن اليوم المشهود ، بل إنه يحتاج إلى من يشهد فيه وتقام الشهادة على ما سيمرض فيه لإقامة الحجة على الخلق لا لإثبات الحق .

وقد جاء في القرآن تعداد الشهود في ذلك اليوم ، مما يتناسب مع العرض والحساب .

ومجمل ذلك أنها تكون خاصة وعامة وأعم من العامة ، فمن الخاصة شهادة الجوارح على الإنسان كما في قوله تعالى : (حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) ، وقوله (اليوم نحتم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وهذه شهادة فعل ومقال لا شهادة حال ، كما بينها قوله تعالى عنهم : (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) ، ورد الله زعمهم ذلك بقوله : (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

وتقدم للشيخ بيان شهادة الأعضاء في سورة يس وفي سورة النساء عند قوله تعالى : (ولا يكتُمون الله حديثا ، وشهادة الملائكة وهم الحفظة كما في قوله تعالى : (وقال قريته هذا ما لدى عقيد) ، وقوله : (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، ثم شهادة الرسل كل رسول على أمته ، كما في قوله عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل

الصلاة والتسليم ، (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) فهذا وإن كان في الحياة فسيؤديها يوم القيامة .

وكقوله في عموم الأمم (ويوم نبئ في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل كما في قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

ومنها : شهادة هذه الأمة على سائر الأمم ، كما في قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة لقوله تعالى : (ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

ومنها : شهادة الله تعالى على الجميع .

وهذا ما يتناسب مع ذكر اليوم الموعود وما يكون فيه من الجزاء والحساب على الأعمال وبجازاة الخلائق عليها : وسيأتي في نفس السياق قوله (والله على كل شيء شهيد) ، وهو كما ترى لا يقتيد بشاهد واحد ، وأيضا لا يعارض بعضها بعضا .

فاختلاف الشهود وتعدددهم باختلاف المشهود عليه ، وتعددده من فرد إلى أمة إلى رسل ، إلى غير ذلك . وكلها داخلة في المعنى وواقعة بالفعل .

وقد ذكرت أقوال أخرى ، ولكن لا تختص بيوم القيامة .

ومنها : أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم ، والمشهود به وحدانية الله تعالى .

ومنها : الشاهد المخلوقات ، والمشهود به قدرة الله تعالى ، فتكون الشهادة بمعنى العلامة .

وأكثر المفسرين إيرادا في ذلك الفخر الرازي حيث ساقها كلها بأدلتها إلا ما ذكرناه من السنة فلم يورده .

وقد جاء في السنة تعيين الشهادات لغير ما ذكر .

منها الشهادة للمؤذن : ما يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر ، إلا شهد له يوم القيامة .

ومنها : شهادة الأرض على الإنسان بما عليها المشار إليه في قوله تعالى : (يومئذ تحدث أخبارها) .

ومنها : شهادة المال على صاحبه فيم أنفقه .

ومنها : شهادة الصيام والقرآن وشفاعتهما لصاحبهما . ونحو ذلك
والله تعالى أعلم .

تنبيه

في هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكال العدالة ، وهو إذا
كان رب العزة سبحانه وتعالى ، وهو على كل شيء شهيد ، وبكل شيء
عليم ، وموكل حفظة يكتبون أعمال العباد ، ومع ذلك لم يقض بين
المخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته ويستنطق أعضاءهم ،
ويستشهد الرسل على الأمم والرسول صلى الله عليه وسلم على الرسل ،
أى بأنهم بلغوا أمهم رسالات الله إليهم ، فلأن لا يقضى القاضي بعلمه
من باب أولى . والعلم عند الله تعالى .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إنكم تحتكمون إلي » ،
وإنما أنا بشر أقضى لكم على نحو ما أسمع ، فمن اقتطعت له شيئاً
من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من نار » الحديث . أى كان من
الممكن أن ينزل عليه الوحي ، ولا سيما في تلك القضية بعينها ، إذ قالوا
في موارد درست معالمها ولا يذنب بينهما ، ولكن إذا نزل الوحي
عليه صلى الله عليه وسلم فيها ، فمن بالوحي لمن يأتي بعده في
القضاء ؟

ولذا قال صلى الله عليه وسلم « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر » .

ومعلوم أن البينة فعيلة من البيان ، فتشمل كل ما يبين الحق من شهادة وقرينة ، كما في قصة يوسف من القرائن مع إخوته ومع امرأة العزيز . إلخ .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ .

قال أبو حيان ، وجواب القسم في قوله تعالى : (والسماء ذات البروج) ، قيل : محذوف ، فقيل : لتبعض ونحوه ، وقيل : مذكور ، فقيل : إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ونحوه ، وقيل : قتل ، وهذا نختاره ، وحذفت اللام أى لقتل وحسن حذفها كما حسن في قوله : (والشمس وضحاها) ، ثم قال : (قد أفلح من زكاها) أى لقد أفلح ، ويكون الجواب دايلا على لعنة الله على من فعل ذلك ، وتنبيها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

وإذا كان قتل هو الجواب فهي جملة خبرية ، وإذا كان الجواب غيرها فهي جملة إنشائية ، دعاء عليهم .

وقرىء : قتل بالنشيد ، قرأها الحسن وابن مقسم ، وقرأها الجمهور بالتخفيف اهـ .

والأخدود : جمع خد ، وهو الخشق في الأرض طويلاً . وقوله : (النار ذات الوقود) الوقود بالضم وبالفتح ، والقراءة بالفتح كالسحور ، والوضوء . فبالفتح ما توقد به كصبور والماء المتوضأ به والطعام المتسحر به ، وبالضم المصدر ، والفعل والوقود بالضم ما توقد به .

ذكر صاحب القاموس ، والنار ذات الوقود : بدل من الأخدود .

وقيل في معناها : عدة أقوال ، حتى قال أبو حيان : كسبت عن نقلها .

ونقل الفخر الرازي ثلاثة منها .

والمشهور عند ابن كثير ما رواه أحمد ومسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم ملك ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبر سني وحضر أجلي ، فادفع إلي غلاماً لأعلمه السحر ، فدفعت إليه غلاماً كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر والملك راهب ، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه ، وقال ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر ضربك فقل : حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك ، فقل : حبسني الساحر ، فبينما هو ذات يوم إذا أتى على دابة عظيمة فظيمة

قد حبست الناس ، فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم
 أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ؟ قال : فأخذ حجراً فقال :
 اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل
 هذه الدابة ، حتى يجوز الناس ورمها فقتلها ، ومضى الناس فأخبر
 الراهب بذلك ، فقال : أي بني أنت أفضل مني ، وإنك ستبتلى ،
 فإن اجتليت فلا تدل عليّ ، فكان الفلام يبرئ الأكمة والأبرص وسائر
 الأدوية ويشفيهم ، وكان للملك جليس أعشى فسمع به ، فأتاه بهدايا
 كثيرة ، فقال : اشفني . فقال : ما أنا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله
 عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك ، فآمن فدعا الله فشفاه ،
 ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان
 من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي ، فقال : أنا . قال : لا ، ربي
 وربك الله ، قال : ولك رب غيري ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله ،
 فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الفلام ، فبعث إليه فقال : أي بني بلغ من
 سعرك أن تبرئ الأكمة والأبرص ، وهذه الأدوية ، فقال : أما أشفي
 أحداً إنما يشفي الله عز وجل ، قال : أنا . قالا : لا ، قال : أولك
 رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله فأخذه أيضاً بالعذاب حتى دل على
 الراهب فأوتى بالراهب فقيل : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في
 مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعشى : ارجع عن دينك ، فأبى ،
 فوضع المنشار في مفرقه أيضاً ، وقال للفلام : ارجع عن دينك فأبى ،

فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغت فروته ،
فإن رجع عن دينه وإلا فدهدوه ، فذهبوا به فلما علوا به الجبل ،
قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدوها أجمعون ،
وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك . فقال : ما فعل أصحابك ؟
فقال : كفانيهم الله تعالى ، فبعث به نفراً إلى البحر في فرفور ، فقال :
إذا لجئتم به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه ، فقال الغلام :
اللهم اكفنيهم بما شئت ففرقوا هم ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك
فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به ، قال : ماهو ؟
قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، ثم تصاليني على جذع وتأخذ سهماً
من كنفاتي . ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إن فعلت ذلك
قتلتني ففعل ، ووضع السهم في قوسه ورماه به صدغه ، فوضع الغلام ،
يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس آمنا برب الغلام ، فقيل للملك :
أرأيت ما كنت تحذر ، فقد والله وقع بك ، قد آمن الناس كلهم فأمر
بأفواه السكك ، فخذت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران ، وقال :
من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يقيمادون
ويقدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكانها تقاعست أن تقع في
في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أماء فإنك على الحق . وقد قيل :
إن الغلام دفن فوجد زمن همر بن الخطاب ويده على صدغه ، كلما
رفعت خرج الدم من جرحه ، وإذا تركت أعيدت على الجرح .

وقد سقنا هذه القصة ، وهي من أمثل ما جاء في هذه المعنى لما فيها من العبر ، والتي يمكن أن يستفاد منها بعض الأحكام ، حيث إن ابن كثير ، عزاه للإمام أحمد بن ومسلم ، أى لصحة سندها مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الآتى :

الأول : أن السحر بالعمل كما جاء قصة الملكين بابل ، هاروت وماروت تعلمان الناس السحر .

الثانى : إمكان اجتماع الخير مع الشر : إذا كان الشخص جاهلاً بحال الشر ، كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر .

ثالثاً : إجراء خوارق المعاداة على أيدي دعاة الخير ، لبيان الحق والتثبت في الأمر ، كما قال الغلام : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ؟

الرابع : أنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب ، إذ قال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك ، فسأل عن أمر الراهب ولم يسأل عن أمر الساحر ؟

الخامس : اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه ، كاعتراف الراهب للغلام .

السادس : ابتلاء الدعاة إلى الله ووجوب الصبر على ذلك ، وتفاوت درجات الناس في ذلك .

السابع : إسناد الفعل كله لله ، إنما يشفي الله .

الثامن : رفض الداعي إلى الله الأجر على عمله وهدايته (قل لا أسألكم عليه أجراً) .

التاسع : بيان ركن أصيل في قضية القوسل ، وهو أن مبناه على الإيمان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى .

العاشر : غباوة الملك المشرك المفلق قلبه بظلام الشرك ، حيث ظن في نفسه أنه الذي شفى جليسه . وهو لم يفعل له شيئاً ، وكيف يكون وهو لا يعلم ؟

الحادى عشر : اللجوء إلى العنف والبطش عند المعجز عن الإقناع والإفهام ، أسلوب الجهلة والجهابرة .

الثانى عشر : منتهى القسوة والغلظة في نشر الإنسان ، بدون هوادة .

الثالث عشر : منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين ، وهكذا كان في الأمم الأولى ، وبيان فضل الله على هذه الأمة ، إذ جاز لها التلطف بما يخالف عقيدتها وقلوبها مطمئن بالإيمان .

وقد جاء عن الفخر الرازى قوله : الآية تدل على أن المكروه على

الكفر بالإهلاك العظيم الأولى به أن يصبر على ماخوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك ، وقال . وروى الحسن أن مسيلة أخذ رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : تشهد أنى رسول الله ؟ فقال : نعم ، فتركه ، وقال الآخر مثله ، فقال : لا بل أنت كذاب . فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما الذى ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعه عليه ، وأما الذى قتل فأخذ بالأفضل فهنيئاً له . »

وتقدم بحث هذه المسألة للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

الرابع عشر : إجابة دعوة الغلام ونصرة الله لعباده المؤمنين : اللهم اكفنيهم بما شئت .

الخامس عشر : التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة ، حيث دل الغلام الملك على الطريقة التى يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله ، ولو كان الوصول لذلك على حياته هو .

السادس عشر : إبقاء جسمه حتى زمن عمر رضى الله عنه إكراماً لأولياء الله ، والدعاة من أن تأكل الأرض أجسامهم .

السابع عشر : إثبات دلالة القدرة على البعث .

الثامن عشر : حياة الشهداء لوجود الدم وعودة اليد مكانها ، بحركة

مقصودة .

التاسع عشر : معرفة تلك القصة عند أهل مكة حيث حدثوا بها تخويفاً من عواقب أفعالهم بضممة المؤمنين ، كما هو موضح في تمام القصة .

المشروث : نطق الصبي الرضيع بالحق .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ .

الضمير في قوله : هم ، والضمير في قوله : قعود ، ذكر فيهما خلاف .

ف قيل : راجعان إلى من أحرقوا وأقعدوا عليها .

وقيل : راجعان إلى الكفار .

وعليه ففى قوله : عليها قعود ، إشكال وهو كيف يتمكن لهم القعود على النار .

ف قيل : إنها رجعت عليهم فأحرقتهم ، فتعودهم عليها حقيقة .

وقيل : قعود على حافتها كما تقول : قعود على النهر أو على البئر أو على حافته وحوله ، كما يقال : نزل فلان على ماء كذا ، أى عنده .

وأنشد أبو حيان بيت الأعشى :

تشب لمقرورين بصطليانها وبات على النار الندى والملاق

و قد استدل صاحب القول الأول بقوله تعالى الآتى (فلمهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) ، فقال : الحريق فى الدنيا وجهنم فى الآخرة .

ولكن فى الآية قرينة ، على أن الضمائر راجعة إلى الكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم ، وهى قوله : (ثم لم يتوبوا فلمهم عذاب جهنم) حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة ، وجاء بـ ثم التى هى للتراخى ، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقاماً منهم حالا ، بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة ، وإلا فلمهم العذاب المذكور فى الآخرة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .

بمعنى حضور يتفق قوله تعالى : (إذ هم عليها قعود) أى حضور يشاهدون إحراق المؤمنين ، وهذا زيادة فى التبكيت بهم ، إذ يرون هذا المظهر بأعينهم ولم يشفقوا بهم ولم يعتبروا بشبائهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .

هذا ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم ونظيره فى العربية أقوال الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
 وذكر أبو حيان قول الشاعر ، وهو قيس الرقيات :
 ما تقموا من بني أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا
 وقول الآخر :

ولا عيب فيها غير شكاة عينها كذلك عناق الطير شكلا عيونها
 يقال عين شكلاء : إذا كان في بياضها حمرة قليلة بسيرة .

وقد منا أن نقتهم عليهم للمستقبل ، كما في قوله تعالى : (إلا أن يؤمنوا بالله) لا على الماضي إلا أن آمنوا ، لأنهم كانوا يقولون لهم : إما أن ترجعوا عن دينكم ، وإما أن تلقوا في النار ، ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق ، بل على إصرارهم على الإيمان للمستقبل .

والإتيان هنا بصفتي الله تعالى العزيز الحميد إشعار بأنه سبحانه قادر على نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين ، إذ العزيز هو الغالب ، كما يقولون : من عزّ بز ، ولكن جاء وصفه بالحميد ، ليظهر بأمرين .

الأول : أن المؤمنين آمنوا رغبة ورهبة ، رغبة في الحميد على ما يأتي الغفور الودود ، ورهبة من العزيز كما سيأتي في قوله : (إن بطش ربك لشديد) وهذا كالإيمان رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمنين .

والأمر الثاني : حتى لا ييأس أولئك الكفار من فضله ورحمته ، كما

قال : (ثم لم يتوبوا) إذ أعطاهم المهلة من آثار صفته الحميد سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

تأكيد وبيان العزيز الحميد ، إذ لا يخرج عن سلطانه أحد ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو المدبر أمر ملكه ، سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ربط بأول السورة وشاهد ومشهود ، فهو سبحانه على كل شيء شهيد ، ومن ذلك فعل أولئك ، وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم ومن على شاكلتهم ، بأن الله تعالى شهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية . وقد جاء بصيغة المبالغة في شهيد ، لما يتناسب مع هذا المقام كما فيه المقابلة بالفعل ، كما كانوا قعوداً على النار وشهوداً على إحراق أولياء الله تعالى ، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل ، إذ يحرقهم وهو عليهم شهيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ .

يحتمل أن يكون مراداً به أصحاب الأخدود ، وفتنوا بمعنى أحرقوا ، ويحتمل أن يكون عاماً في كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأي أنواع الفتنة والتعذيب .

وقد رجح الأخير أبو حيان وحمله على الموم أولى ، ليشمل كفار

قريش بالوعيد والتهديد ، وتوجيههم إلى التوبة مما أوقعوه بضمفنة المؤمنين ، كعمار وبلال وصهيب وغيرهم .

ويرجع هذا العموم ، العموم الآخر الذى يقابله فى قوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) فهذا عام بلا خلاف فى كل من اتصف بهذه الصفات .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَطَّشْنَا رَبَّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .

فى مقام المنطوق بالمفهوم من العزيز الحميد ، كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ .

قيل : يبدىء الخلق ويعيده ، كالزراع والنبات والإنسان بالمولد والموت ، ثم بالبعث .

وقيل : يبدأ الكفار بالمذاب ويعيده عليهم ، واستبدل لهذا بقوله (كما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا المذاب) .

وفى الحديث : « ما من صاحب إبل لا يؤدى زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة ، بطح لها بقاع قرقر ، ثم يأتى بها أوفر ما تكون سمنا فتطؤه بخفافها فتستن عليه كلما مر عليه أخراها أعيد عليه أولها ، حتى يقضى بين الخلائق فىرى مصيره إما إلى جنة ، وإما إلى نار » إلى آخر الحديث فى صاحب البقر والغنم والذهب .

ولكن الذى يظهر والله تعالى أعلم هو الأول ، لأنه يسكن فى

القرآن كقوله تعالى : (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) . وقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون) .

وجعله آية على قدرته ودليلا على عجز ونقص الشركاء ، في قوله في أول هذه الآية : قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ورد عليهم بقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) ، وقوله (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ، فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ ﴾ .

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسليية للمؤمنين وتثبيتا لهم ، وزجراً للمشركين وردعاً لهم ، جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم وفرعون وثمود بدل من الجنود ، وهم جمع جند ، وهم الكثرة وأصحاب القوة ، وحديثه ما قص الله من خبره مع موسى وبني إسرائيل .

وفي اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة ، إذ فرعون طفى وادّعى الربوبية ، كذلك أصحاب الأخدود الذي قال لجأيسه : ألك رب غيره ؟ ولتعذيبه بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء ، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم ، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الدّاعية ، إذ موسى عليه السلام قدّم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذب وعصى ، والفلام قدّم لهذا الملك الآيات الكبرى : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ،

وعجز فرعون عن موسى وإدراكه ، وعجز الملك عن قتل الفلام إذ نجاه الله من الإغراق والذهبة من قمة الجبل ، فكان لهذا أن يرعى عن ذلك ويتفطن للحقيقة ، ولكن سلطانه أعماه كما أعى فرعون .

وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجداً .

وهكذا هنا آمن الناس برب الفلام ، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون . إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته ، فانقلب الموقف عليه ، وكان أول الناس إيماناً هم أعوان فرعون على موسى ، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذي جمعهم الملك ليشهدوا قتله للفلام .

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة ، وإن كان في الكل عظة وعبرة ، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه ، والله تعالى أعلم .

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والظفر ، وقد جمعهم الله أيضاً معاً في سورة الفجر في قوله : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد) وهكذا جمعهم هنا فرعون وثمود .

قوله تعالى ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ .

أى مستمر في كل الأمم ، وتقدم في سورة الانفطار قبلها (بل الذين كفروا يكذبون) .

فقال الكرمانى ، محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء فى كتابه
أسرار التكرار فى القرآن : إن المغايرة لمراعاة ردوس الآى
والفواصل ، ولكن الظاهر من السياق فى الموضعين مراعاة السياق
لا فواصل الآى ، لأن فى سورة الانشقاق الحديث مع المشركين
(لتركبن طبقاً عن طبق فما لهم لا يؤمنون ، وإذا قرئ عليهم
القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون) .

وفى سورة البروج هنا ذكر الأمم من فرعون ونمود وأصحاب
الأخدود والمشركين فى مكة ، ثم قال (بل الذين كفروا فى تكذيب)
فناسب هذا هنا ، وناسب ذاك هناك . والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ .

أصل الطرق في اللغة : الدق ، ومنه المطرقة ، ولذا قالوا للآتي
ليلاً : طارق ، لأنه يحتاج إلى طرق الباب .

وعليه قول امرئ القيس :

فمثلك حبل قد طرقت ومرضع فألهميتها عن ذي تمام هول

أى جئتها ليلاً ، وقول الآخر :

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

وقول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

وفي الحديث : « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا

طارقاً بطرق بخير يارحمن » ، فهو لفظ عم في كل ما يأتي شيئاً مفاجئاً ،

ولكأنه يأتي في حالة غير متوقعة ، ولكنه هنا خص بما فسر به

بعده في قوله تعالى : (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) .

فقيل : ما يتقرب الشياطين عند استراق السمع ، كما تقدم في قوله

تعالى : (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) فيكون عاماً في كل نجم .

وقيل : حاص ، فقيل : زحل وقيل : المريخ ، وقيل : الثريا ،
لأنه إذا أطلق النجم عند العرب ، كان مراداً به الثريا .

وتقدم هذا للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة النجم .

وقيل : الثاقب المضيء ، يثقب الظلام بضوئه ، وعليه فهو للجنس
عامة ، لأن النجوم كلها مضيئة .

قال القرطبي ، وقال سفيان : كل ما في القرآن وما أدراك فقد
أخبره به ، وكل شيء قال فيه : وما يدريك ، لم يخبره به .

والواقع أنه الغالب ، فقد جاءت : وما أدراك ثلاث عشرة مرة ،
كلها أخبره بها إلا واحدة ، وهي في الحاقة (وما أدراك ما الحاقة)
وما عداها ، فقد أخبره بها ، وهي : (وما أدراك ما سقر ، لا تبقى
ولا تذر) .

وفي المرسلات (وما أدراك ما يوم الفصل) .

وفي الانفطار : (وما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس
لنفس شيئاً) .

وفي المطففين : (وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم) .

وفي البلد : (وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة) .

وفي القدر : (وما أدراك ما ليلة القدر ؛ ليلة القدر خير من ألف شهر)

وفي القارعة (وما أدراك ما القارعة) .

وأيضاً : (فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية) ، وفي هذه
السورة (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) ، فكلها أخبره عنها
إلا في الحاقة .

تنبيه

يلاحظ أنها كلها في قصار السور من الحاقة وما بعدها ، أما
ما يدريك ، فقد جاءت ثلاث مرات فقط ، (وما يدريك لعل الساعة
تكون قريباً) في الأحزاب ، (وما يدريك لعل الساعة قريب) في
الشورى ، (وما يدريك لعله يزكى) في عبس وتولى ، فلم يخبره فيها
صراحة ، إلا أنه في الثالثة قد يكون أخبره لأنه قال (لعله يزكى)
فهو وإن لم يصرح هل هو تزكى أم لا ، إلا أن لعل من الله تعالى
للتحقيق ، كما هو معلوم .

تنبيه آخر

قال كثير من المفسرين : أقسم الله بالسماء ، وبالنجم الطارق
لعظم أمرها ، وكبر خلقهما كما في قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم ،
وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، ولأنه أقسم بالنجم إذا هوى .

وفيا تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ترجيح كون مواقع

النجوم ، والنجم إذا هوى : إنما هو نجوم القرآن وتنزيله منجماً وهو به نزول الملك به على النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۖ ﴾ .

قيل : حافظ لأعماله يحصيها عليه ، كما في قوله : (ما يافظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وقيل : حافظ ، أى حارس ، كقوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، والسياق يشهد للمعنيين معا ، لأن قوله تعالى بعده (فليَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) يدل على أنه في تلك المراحل في حفظ ، فهو أولاً في قرار مكين .

وفي الحديث : « أن الله وكل بالرحم ملكاً » الحديث .

وبعد بلوغه سن التكليف يجرى عليه القلم فيحفظ عليه عمله ، فلا مانع من إرادة المعنيين معا ، وليس هذا من حمل المشترك على معنييه ، لأن كلا من المعنيين له متعلق ، يختص بزمان خلاف الآخر .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ ﴾ .

الإنسان هنا خاص ببنى آدم وذريته عامة ، ولم يدخل فيه آدم

ولا حواء ولا عيسى عليه السلام لأنه بيّن ما خلق منه ، وهو في قوله تعالى (خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذه الآية عند قوله تعالى (خلق الإنسان من نطفة) في سورة النحل ، وفي سورة الواقعة عند قوله تعالى : (أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ، وتقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) في سورة الدهر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .

إنه هنا أى إن الله على رجعه ، الضمير فيه ، قيل : راجع للماء الدافق ، أى أنه سبحانه قادر على رجوع هذا الماء من حيث خرج ، كرد اللبن إلى الضرع مثلاً ، ورد الطفل إلى الرحم ، وهذا مروي عن عكرمة ومجاهد .

وقيل : على رجوع الإنسان بعد الموت ، وهذا وإن كان في الأول دلالة على القدرة ، ولا يقدر عليه إلا الله ، إلا أن في السياق ما يدل على أن المراد ، هو الثاني لعدة أمور :

الأول : أن رد الماء لم يتعلق به حكم ولا أمر آخر سوى إثبات

القدرة بخلاف رجوع الإنسان بعد الموت ، فهو قضية الإيمان بالبعث .
ويتعلق به كل أحكام يوم القيامة .

الثانى : مجيء القرآن بالخلق الأول ، دليل على الإعادة بعد الموت ،
كقوله تعالى فى يس : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه - أى من ماء
دافق - قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها
أول مرة) ، أى من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

الثالث : أن الأول يحتاج معه إلى تقدير عامل ليوم تبلى السرائر ،
نحو اذكر مثلاً بخلاف الثانى ، فإن العامل فيه : هو لقادر ، أى لقادر
على رجعه يوم تبلى السرائر .

ونقل أبو حيان عن ابن عطية قوله : وكل من خالف ذلك إنما
فر من أن يكون لقادر هو العامل فى الظرف ، لأنه يوم أن قدرته على
رجعه مقيدة بذلك .

ولكن يتأمل أسلوب العرب يعلم جوازه ، لأنه قال : إنه على
رجعه لقادر على الإطلاق أولاً وآخراً ، وفى كل وقت ثم ذكر تعالى :
وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء
والوصول إلى العذاب للتحذير منه : اهـ

فظهر بذلك أن الضمير فى رجعه عائد للإنسان أى بعد موته
بالبعث ، وأن العامل هو لقادر .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند الكلام على قوله تعالى : (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) ، وساق عندها هذه الآية ، وسيأتى التصريح به في سورة العاديات عند قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور) وقد أجل ابتلاء السرائر .

وكذلك أجل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بإيراد الآيات . وذكر المفسرون : أن المراد بها أمانة التكليف فيما لا يعلمه إلا الله ، ومثلوا لذلك بالحفاظ على الطهارة للصلاة ، وغسل الجنابة ، وحفظ الصوم ، ونحو ذلك . ومنه العقائد وصدق الإيمان أو النفاق ، هياذا بالله .

والسرائر : هى كل ما يخفيه الإنسان حتى فى المعاملات مع الناس ، كما فى الأثر « الكيس من كانت له عند الله خبيثة سر » ، وقوله : (وأمروا قولكم أو اجهروا به) ، فالسر ضد الجهر ، وقال الأحوص :

سبقتى لها فى مضمير القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

قال أبو حيان : سمعه الحسن ، فقال : ما أغفله عما فى السماء والطارق . (١١ - أضواء البيان ج ٩)

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

قالوا : ليس من قوة في نفسه لضعفه ، وبديل عليه قوله
(وهرضوا على ربك صفًا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) .

وقوله : (خاشمة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى من الضعف وشدة
الخوف ، ولا ناصر له من غيره ، كما في قوله : (ولم تكن له فئة ينصرونه
من دون الله وما كان منتصرًا) .

وقوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله) .

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ
الصَّدْعِ ﴾ .

قيل : رجع السماء : إعادة ضوء النجوم والشمس والقمر .

وقيل : الرجوع : الملائكة ترجع بأعمال العباد .

وقيل الرجوع : المطر وأرزاق العباد . والأرض ذات الصدع ، قيل :

تنشق عن الخلائق يوم البعث .

وقيل : تنشق بالنبات .

والذى يشهد له القرآن : أن الرجوع والصدع متقابلان من السماء

والأرض بالمطر والنبات ، كما في قوله تعالى . (فليُنظر الإنسان إلى

طعامه أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً
وعنباً وقضباً (والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ .

قال ابن كثير : قال ابن عباس حق . وكذا قال قتادة ، وقال
آخرون : حكم عدل . وقال القرطبي : إنه أى القرآن ، يفصل بين الحق
والباطل .

وقيل : هو ما تقدم من الوعيد في هذه السورة (إنه على رجمه
لقادر يوم تبلى السرائر) .

وقال أبو حيان بما قال به القرطبي أولاً ، ثم جواز أن يكون مراداً
به الثانى ، أى أن الإخبار عن رجوع الإنسان يوم تبلى السرائر ، قول
فصل ، وهذا ما يفيد كلام ابن جرير ، وعزاه النيسابورى إلى القفال .

وسياق السورة يشهد لهذا القول الثانى ، لأن السورة كلها في معرض
إثبات القدرة على البحث ، وإعادة الإنسان بعد الفناء ، حيث تضمنت
ثلاثة أدلة من أدلة البعث .

الأول : السماء ذات الطارق . لعظم خلقها ، وعظم دلالاتها
على القدرة .

الثاني : خلق الإنسان أولاً من ماء دافق ، كما في قوله : (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) .

الثالث : مجموع قوله : (والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع) أى إنزال المطر ، وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها . فناسب أن يكون الإقسام على تحقق البعث .

وأكد هذا ما جاء بعده من الوعيد بالإمهال رويدا ، وقد سمي يوم القيامة بيوم الفصل ، كما في قوله : (لأى يوم أجأت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين) .

وذكر الويل في هذه الآية للمكذبين يعادل الإمهال في هذه السورة للكافرين ، وإذا ربطنا بين القسم والمقسم عليه ، لكان أظهر وأوضح ، لأن رجوع الماء بعد فنائه بتلقيح السحاب من جديد يعادل رجوع الإنسان بعد فنائه في الأرض ، وتشقق الأرض عن النبات يناسب تشققها يوم البعث عن الخلائق ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُوا كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾

نسبة هذا الفعل له تعالى قالوا إنه : من باب المقابلة كقوله : (ومكروا ومكر الله) ، وقوله : (إنما نحن مستهزءون ، الله يستهزئ)

بهم) ، وهو في اللغة ، كقول القائل ، لما سئل عن أى الطعام يريد ، وهو عارٍ يريد كسوة .

قالوا اختر طعاما نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة و قميصا

وقد اتفق السلف ، أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق ، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد ، لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله تعالى ، وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة ، والكيد أصله المعالجة لشيء بقوة .

وقل ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : والعرب قد تطلق الكيد على المكر ، والعرب قد يسمون المكر كيداً ، قال الله تعالى : (أم يريدون كيداً) ، وعليه فالكيد هنا لم يبين ، فإذا كان بمعنى المكر ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شيء منه عند قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ، بأن مكروهم محاولتهم قتل عيسى ، ومكر الله إلقاء الشبه ، أى شبه عيسى على غير عيسى .

وتقدم قوله تعالى : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم

من القواعد نخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) ، وهذا في قصة المروء ، فكان مكرهم بنيان الصرح ليصعد إلى السماء ، فكان مكر الله بهم أن تركهم حتى تصاعدوا بالبناء ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فهدمه عليهم .

وهكذا الكيد هنا ، إنهم يكيّدون للإسلام والمسلمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله يكيّد لهم بالاستدراج حتى يأتي موعد إهلاكهم ، وقد وقع تحقيقه في بدر ، إذ خرجوا محادة لله ولرسوله ، وفي خيلائهم ومفاخرتهم وكيّد الله لهم أن قتل المؤمنين في أعينهم ، حتى طمعوا في القتال ، وأمطر أرض المعركة ، وهم في أرض مسبخة ، والمسلمون في أرض رملية فكان زلزالا عليهم واثباتا للمؤمنين ، ثم أنزل ملائكته لقتالهم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلِهِمْ رُوَيْدًا ﴾ .

قال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، مانصه : هذا الإمهال المذكور هنا ينافيه قوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية .

والجواب : أن الإمهال منسوخ بآيات السيف . اهـ .

وهذا ما يفيد كلام الطبري ، وإن لم يصرح به وهو منصوص
القرطبي . ولعل في نفس الآية ما يدل على ذلك وهو قوله : (أمهلهم
رويداً) لأن رويدا بمعنى قليلا ، فقد قيد الإمهال بالقلّة مما يشعر
بمجيء النسخ وأنه ليس نهائياً . والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَعْلَى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ .

تقدم معنى التسبيح وهو التنزيه عن كل ما لا يليق ، والأمر بالتسبيح هنا منصب على اسم ربك ، وفي آيات أخر ، جاء الأمر بتسبيح الله تعالى كقوله : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) .

ومثل : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) .

وتسبيح الرب سبحانه كقوله : (سبحان رب العزة عما يصفون) ، فاختلف في هذه الآية ، هل المراد تسبيح الله سبحانه أو المراد تسبيح اسمه تعالى ، كما هو هنا ؟

ثم اختلف في المراد بتسبيح اسم الله تعالى ، وجاءت مسألة الاسم والمسمى .

وقد تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة الواقعة ، عند قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) ، قوله : إن الباء هناك داخلة على المفعول كدخولها عليه في قوله : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) ، وأحال على متقدم في ذلك ، وحكى كلام القرطبي أن الاسم بمعنى المسمى ، واستشهد له من كلام العرب بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقال : لا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا ، لإمكان كون المراد نفس الاسم ، لأن أسماء الله أُلحِد فيها قوم ونزَّهها آخرون ، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن ، لاشتمالها على صفاته الكريمة ، كما في قوله : (والله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

وقوله تعالى : (أياً ما تدعوا لله الأسماء الحسنى) .

ثم قال : ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى ، هل الاسم هو المسمى أو لا ؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية . اهـ .

فتضمن كلامه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، احتمال كون المراد : تنزيه اسم الله عما أُلحِد فيه الملحدون ، كاحتمال تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ، كما تضمن عدم لزوم كون الاسم هنا بمعنى المسمى ، وأملنا نورد مجمل بيان تلك النقاط إن شاء الله .

أما تنزيه أسماء الله فهو على عدة معان .

منها : تنزيهها عن إطلاقها على الأصنام كاللات والعزى واسم الآلهة .

ومنها : تنزيهها عن اللغو بها واللمب ، كالتلفظ بها في حالة تنافي الخشوع والإجلال كمن يعبث بها ويلهو ، ونظيره من يلهو وبسهو عن صلاته ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أو

وضعها في غير مواضعها ، كنفقش الثوب أو الفراش المتهن .

ومنها : تنزيها عن المواطن غير الطاهرة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لميا فيه من نقش محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه : صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال صوتا لاسم الله .

وعلى هذا تكون هذه الآية موضحة لآية الواقعة ، وأن اسم ربك واقع موقع المفعول به ، وهو المراد بالتسبيح ، وعلى أن المراد تسبيح الله تعالى ، فقالوا : إن الاسم هو المسمى ، كما قال القرطبي وغيره ، وقالوا : الاسم صلة ، كما في بيت لبعد المتقدم .

أما مسألة الاسم هل هو عين المسمى أم لا ، فقد أشار إليها الفخر الرازي ، وقال : إنه وصف ركيك .

أما قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا يلزم في نظري كون الاسم بمعنى المسمى هنا ، فإنه بلازم إلى بسط قليل ، ليظهر صحة ما قاله .

وقد ناقشها الرازي بعد مقدمة ، قال فيها : من الناس من تمسك بهذه الآية ، في أن الاسم نفس المسمى .

فأقول : إن الخوض في الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل

النزاع ، فلا بد ها هنا من بيان أن الاسم ما هو والمسمى ما هو .
 فنقول : إن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك
 الذات ، فالعاقلة لا يمكن أن يقول : الاسم هو المسمى ، وإن كان
 المراد من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات . كان
 قولنا الاسم نفس المسمى ، هو أن تلك الذات هي تلك الذات . وهذا
 لا يمكن أن يغازع فيه عاقل ، فعلمنا أن هذه المسألة في وصفها ركيكة ،
 وذكر الاشتباه على المتأخرين بسبب لفظ الاسم الذي هو قسم الفعل
 والحرف ، إذ هو مراد المتقدمين في إطلاقه وإرادة مسماه .

ومن هنا تعلم : لماذا أعرض الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن
 بيانها ؟ وقد أوردنا هذا البيان الجمل ، لنطلع القارئ إليه ، وعلى
 كل تقدير عند المتقدمين أو المتأخرين فإنه إن وقع الاحتمال في القدوات
 الأخرى ، فلا يقع في ذات الله وأسمائه ، لأن لأسماء الله أحكاماً لا
 لأسماء الآخرين ، ولأسمائه سبحانه حق التسبيح والتنزيه والدعاء بها
 كما تقدم .

وهنا وجهة نظر لم أر من صرح بها ، ولكن قد تفهم من كلام
 بعض المفسرين وتشير إليها السنة . وهي : أن يكون التسبيح هنا بمعنى
 الذكر والتعبد ، كالتحميد والتهليل والتكبير .

وقد جاء في كلام الرازي قوله : ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه ،
 ونحوه في بعض نقول الطبري .

أما إشارة السعة إلى ذلك ، فقد روى الطبري وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت ، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأها (سبحان ربي الأعلى) .

وكذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال : « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت هذه قال : « اجعلوها في سجودكم » .

وساق القرطبي أثراً طويلاً في فضلها في الصلاة وخارج الصلاة ، لكنه ليس بصحيح .

وجاء الحديث الصحيح « تسبحون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وتكبرون ثلاثاً وثلاثين ، وتختمون المائة بلا إله إلا الله » .

وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ، بعد أن نزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، وقالت : يتأول القرآن » .

وقالت أم سلمة « إنه كان يقولها في قيامه وقعوده ، ومجيئه وذهابه ، صلى الله عليه وسلم » فيكون سبع اسم ربك : أي اذكر ربك .

وهذا ما دلت عليه الآية الأخرى في هذه السورة نفسها في قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فصرح بذكر

اسم ربك ، كما جاء سبّح اسم ربك ، فوضع الذكر موضع التسبيح ،
وهو ما أشرنا إليه . وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

أطلق الخلق ليعم كل مخلوق كما تقدم في السجدة ، الذي أحسن
كل شيء خلقه ، والتسوية التقويم والتعديل ، وقد خلق الله كل مخلوق
مستوياً على أحسن ما يتناسب خلقة وما خلق له ، فخلق السماوات
فسواها في أقوى بناء ، وأعلى سمك ، وأشد تماسك ، لا ترى فيها من
نشقق ولا فطور ، وزينها بالنجوم ، وخلق الأرض ودحاها ، وأخرج
منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها وجعلها فراشا ومهاداً ، وخلق الأشجار
فسواها على ما تصلح له من ذوات الثمار ووقود النار وغير ذلك .

وهذه الحيوانات في خلقتها وتسويتها آية (أفلا ينظرون إلى الإبل
كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى
الأرض كيف سطحت) .

أما الإنسان فهو في أحسن تقويم ، كل ذلك مما يستوجب حقاً
له سبحانه أن يسبح اسمه في ذاته ، وجميع صفاته ، حيث جمع بين
الخلق والتسوية ، فلكمال القدرة والقنزية عن كل نقص .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

أطلق هنا التقديم ليعم كل مقدور ، وهو عائد على كل مخلوق ،

لأن من لوازم الخلق التقدير ، كما قال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، وقوله (قد جعل الله لكل شيء قدرا) ، وهذه الآية ومثيلاتها من أعظم آيات القدرة ، وقد جمعها تعالى عند التعريف التام لله تعالى ، لما سأل فرعون نبي الله موسى عن ربه قال : (فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

وقد تقدم بيان عموم قوله تعالى : (الذى خلق فسوى) ، وهنا قدر كل ما خلق ، وهدى كل مخلوق إلى الله ما قدره له ، ففى العالم العلوى قدر مقادير الأمور ، وهدى الملائكة لتنفيذها ، وقدر مسير الأفلاك ، وهداها إلى ما قدر لها ، كل فى فلك يسبحون .

وفى الأشجار والنباتات قدر لها أزمنة معينة فى إبتائها وهدايتها إلى ما قدر لها ، فالجذر ينزل إلى أسفل والنبته تنمو إلى أعلى ، وهكذا الحيوانات فى تلقيحها ونتاجها وإرضاعها ، كل قد هداه إلى ما قدر له ، وهكذا الإنسان .

وقد قال الفخر الرازى : إن العالم كله داخل تحت منطوق هذه الآية .

أما معناها بالتفصيل ، فتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : (قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

قوله تعالى : ﴿ سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى نقرئك في سورة طه في الكلام على قوله تعالى : (ولا تمجّل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه) ، وبينه بآية القيامة (لا تحرك به لسانك لتمجّل به إن علينا جمعه وقرآنه) .

وقوله : فلا تنسى : بحمته رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب مع ما ينسخ من الآيات فينساها ، وسيطع إن شاء الله تعالى مع هذه التهمة ، تنمة للفائدة .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكَرْهُ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ﴾ .

هل ، إن هنا بمعنى إذ أو أنها بشرطية ؟ وهل للشرط مفهوم مخالفة أم لا ؟ كل ذلك بحمته الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بهوسع في دفع إيهام الاضطراب ، ورجح أنها شرطية ، وقسم المدعو إلى ثلاثة أقسام مقطوع بنفعه ، ومقطوع بعدم نفعه ، ومحمّل وقال : محل التذكير ما لم يكن مقطوعاً بعدم نفعه ، كن بين له مراراً فأعرض ، كأنى لهب ، وقد أخبر الله عنه بما له فلا نفع في تذكره .

قوله تعالى : ﴿ مَيِّذٌ كَرُّهُ مَنْ يَخْشَى ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الحكمة من الذكرى :

ومنها تذكير المؤمنين ، وذلك فى الكلام على قوله تعالى : (وذكر
فان الذكرى تنفع المؤمنين) فى سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ .

أى بسبب شقاوتهم السابق أزلا ، كما قال تعالى : (فأما الذين
شقوا فى النار لهم فيها زفير وشهيق) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ .

نفى عنه الضدين ، لأن الإنسان بالذات إما حى وإما ميت ،
ولا واسطة بينهما ، ولكن فى يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير ،
وهذا أبلغ فى التعذيب ، إذ لو مات لاستراح ، ومع أنه يتلقى من
العذاب ما لاهياة معه ، كما فى قوله تعالى : (لا يقضى عليهم فيموتوا
ولا يخفف عنهم من عذابها) .

وقوله : (ويأتية الموت من كل مكان وما هو بميت) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ذلك فى سورة
طه عند الكلام على قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرما فإن له
جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

أسند الفلاح هنا إلى من تزكى وذكر اسم ربه صلى ، وفى غير
هذه الآية أسند التزكية لمشيئة الله فى قوله : (ولولا فضل الله عليكم

ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) ، وفي آية أخرى ، نهى عن تزكية النفس .

وقد تقدم للشيخ بيان ذلك في سورة النور عند الكلام على قوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد) على أن زكى بمعنى تطهر من الشرك والمعاصي ، لا على أنه أخرج الزكاة ، والذي يظهر أن آية النجم إنما نهى فيها عن تزكية النفس لما فيه من امتدادها ، وقد لا يكون صحيحاً كما في سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنْتُمْ بِلِىَ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

قرىء : تؤثرون بالتاء وبالياء راجعاً إلى (الأشتى الذى يصل النار الكبرى) ، وعلى أنها بالتاء للخطاب أعم ، وحيث إن هذا الأمر عام في الأمم الماضية ، ويذكر في الصحف الأولى كلها عامة ، وفي صحف إبراهيم وموسى ، مما يدل على خطورته ، وأنه أمر غالب على الناس .

وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك منها الجهل وعدم العلم بالحقائق ، كما في قوله تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ،

وان الدار الآخرة لى الحيوان لو كانوا يعلمون (أى الحياة الدائمة .

وقد روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله : لو كانت الدنيا من ذهب يفتى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفتى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفتى ؟

ومن أسباب ذلك أن الدنيا زينت للناس وعجلت لهم كما فى قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

ثم قال : (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .
ويبين تعالى هذا المآب الحسن وهو فى وصفه يقابل والآخرة خير وأبقى ، فقال : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد) .

تأمل هذا البديل ، ففى الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث ، وقد قابل ذلك كله بالجنة فعمت وشملت ، ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة ، كما تقدم فى (أنهار من عسل مصفى ولبن لم يتغير طعمه ، وماء آسن وخر لذة للشاربين لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وغير ذلك مما ينص على الخيرية فى الآخرة .

ولاشك أن من آثر الآخرة غالب على من آثر الدنيا ، وظاهر عليه ، كما صرح تعالى بذلك في قوله : (زين للذين كفروا الحياة ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

فمن هذا يظهر أن أسباب إثارة الناس للحياة الدنيا هو تزيينها وزخرفتها في أعينهم بالمال والبنين والخليل والأنعام (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات للصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) . وقد سبق هذا ، لأعلى سبيل الإخبار بالواقع فحسب ، بل إن من ورائه ما يسمى لازم الفائدة ، وهو ذم من كان هذا حاله ، فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة .

وإذا ذهبنا نطلب العلاج فإننا في الواقع نواجه أخطر موضوع على الإنسان ، لأنه يشمل حياته الدنيا ومآله في الآخرة ، ويتحكم في سعادته وفوزه أو شقاوته وحرمانه ، وإن أقرب مأخذ لنا هو هذا الموطن بالذات من هذه السورة ، وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى) ، وبعدها (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة إلى قسمين .

أما التذكير والإنذار ، إذ قال تعالى : (فذكر إن نفعت

الذكرى) ، فهذا موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء تقسيم الأمة إلى القسمين الآيتين : سيدكر من يخشى : فينتفع بالذكر وتنفعه ، ويتجنبها الأشقى : فلا تنفعه ولا ينتفع بها ، ثم جاء الحكم بالفلاح : قد أفلح من تزكى ، أى من يخشى وذكر اسم ربه فصلى ، ولم يفقل عن ذكر الله تعالى ، وهذا الموقف بنفسه هو المفصل في سورة الحديد ، وفي معرض التوجيه لنا والتوبيخ للأمم الماضية أيضاً (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .

ففسوة القلب وطول الأمد والتسويق : هي العوامل الأساسية للغفلة وإيثار الدنيا . والخشية والذكر : هي العوامل الأساسية لإيثار الآخرة ثم عرض الدنيا في حقيقتها بقوله : (اعلّموا إنما الحياة الدنيا لمب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث - إلى قوله - والله ذو الفضل العظيم) .

فوصف الداء والدواء معاً في هذا السياق . فالداء : هو الغرور ، والدواء : هو المسابقة إلى مغفرة من الله ورضوانه .

وقوله : (إن هذا لفي الصحف الأولى) قيل : اسم الإشارة راجع إلى السورة ، كلها لتضمنها معنى التوحيد والمعاد والذكر والعبادات ،

والصحف الأولى : هي صحف إبراهيم وموسى ، على أنها بدل من الأولى .

وجاء عند القرطبي : أن صحف إبراهيم كانت أمثالا ، وصحف موسى كانت مواعظ ، وذكر نماذج لها .

وعند الفخر الرازي من رواية أبي ذر رضى الله عنه ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة كتب على آدم عشر صحف ، وعلى شئت خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

وفي هذا نص على أن في القرآن مما في الصحف الأولى ، وقد جاء ما يدل أن معان أخرى كذلك في صحف إبراهيم وموسى كما في سورة النجم في قوله : (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى) إلى آخره .

وهذا يؤيد أنها أكثرها أمثالا ومواعظ ، كما يؤكد ترابط الكتب السماوية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْغَاسِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ ، وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
خُشِمَةٌ ، حَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ، تَصْلِي نَارًا حَامِيَةً ، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي
مِنْ جُوعٍ ۖ .

الكلام في هل هنا ، كالكلام في هل التي في أول سورة الإنسان ،
أنها استفامية أو أنها بمعنى قد ؟

ورجح أبو السمود وغيره أنها استفهامية للفت النظر وشدة التعجب
والتنويه ، بشأن هذا الحديث ، وهو مروي عن ابن عباس قال : رضي
الله عنه : « لم يكن أتاه فأخبره به » وحديث الفاشية هو خبرها الذي
يتحدث عنها .

والفاشية قال أبو حيان : أصلها في اللغة : الداهية تفشى الناس ،
واختلف في المراد بها هنا : فقيل : يوم القيامة .

وقيل : النار . واستدل كل قائل بنصوص . فمن الأول قوله : (يوم
يفشاهم العذاب) .

قال الفخر الرازي . وإنما سميت القيامة بهذا الاسم ، لأن ما أحاط
بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له ، والقيامة كذلك من وجوه .
الأول ، أنها ترد على الخلق بفتة ، وهو كقوله : (أفأمنوا أن تأتيهم
غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بفتة) .

والثاني : أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين .

والثالث : أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد .

ومن استدلالهم على أنها النار ، قوله تعالى : (وتغشى وجوههم
النار) .

وقيل الغاشية : أهل النار يغشونها أى يدخلونها ، فالغاشية
كالدافة في حديث الأضاحي .

وقال الطبري : والراجح عندي أن الله تعالى أطلق ليهم ، فيجب
أن تطلق ليهم أيضاً .

والذى يظهر رجحانه والله تعالى أعلم : أنها في عموم القيامة وليس
في خصوص النار ، فالنار من أهوال ودواهي القيامة ، وهو ما يشهد
له القرآن في هذا السياق من عدة وجوه ، ومنها : أنه جاء بعدها
قوله : (وجوه يومئذ) ويوم أنسب للقيامة منه للنار .

ومنها : التصريح بعد ذلك ، بأن من كانت تلك صفاتهم تصلي

ناراً حامية ، مما يدل على أن الفاشية شيء آخر سوى النار الحامية .

ومنها : أن التعميم ليوم القيامة يشمل جميع الخلائق ، وهو الأنسب بالموقف ، ثم ينجى الله الذين اتقوا .

وقد بين تعالى قسم هذا الصنف ، مما يدل على أن الحديث المراد إلغاؤه ، إنما هو عن حالة عموم الموقف .

قوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) الآيات.

اتفقوا على أن يومئذ ، يعنى يوم القيامة .

وقال أبو حيان : والتنوين فيه تنوين عوض . وهو تنوين عوض عن جملة ، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً عنها ، لكن لما تقدم لفظ الفاشية .

وأل موصولة باسم الفاعل ، فتنحل للتي غشيت أى للداهية التي غشيت ، فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الفاشية إليها ، وإلى الموصول الذي هو التي ، وهذا مما يرجح ويؤيد ما قدمناه ، من أن الفاشية هي القيامة . وجوه يومئذ خاشعة ، بمعنى ذليلة .

قال أبو السعود : هذا وما بعده وقع جواباً عن سؤال ، نشأ من

الاستفهام التشويقي المتقدم ، كأنه قيل من جانبه صلى الله عليه وسلم
« ما أتاني حديثها ، فأخبره الله تعالى . فقال : وجوه » . إلخ .

قال : ولا بأس بتذكيرها لأنها في موقع التنويع ، أى سوغ الابتداء
بالذكر كونها في موقع التنويع : وجوه كذا ، وجوه كذا .

وخاشعة : خبر المبتدأ ، أى وما بعده من صفاتهم .

وقوله (عاملة ناصبة) العمل معروف ، والنصب : التعب ، وقد
اختلف في زمن العمل والنصب هذين ، هل هو كان منها في الدنيا أم
هو واقع منهم فعلا في الآخرة ، وما هو على كلا التقديرين : فالذين
قالوا : هو كان منهم في الدنيا ، منهم من قال : عمل ونصب في العبادات
الفاسدة كعمل الرهبان والقسيسين والمبتدعة الضالين ، فلم ينفعهم
يوم القيامة ، أى كما في قوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه
هباء منثورا) .

ومنها من قال : عمل ونصب والتذ ، فيما لا يرضى الله ، فعامله
الله بنقيض قصده في الآخرة ، ولكن هذا الوجه ضعفه ظاهر ، لأن
من هذه حالهم لا يعدون في عمل ونصب بل في متعة ولذة .

والذين قالوا : سيقع منهم بالفعل يوم القيامة ، اتفقوا على أنه عمل
ونصب في النار من جر السلاسل ، عياذاً بالله . وصمودهم وهبوطهم الوهاد

والوديان ، أى كافي قوله (سارهقه صمودا) ، وقوله (ومن يعرض
عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعبا) .

وقد ذكر الفخر الرازى تقسيما ثلاثيا ، فقال : إما أن يكون ذلك
كله فى الدنيا أو كله فى الآخرة ، أو بعضه فى الدنيا وبعضه فى الآخرة ،
ولم يرجح قسما منها إلا أن وجه القول بأنها فى الدنيا وهى فى القسيسين ،
ونحوهم . فقال : لما نصبوا فى عبادة إله وصفوه بما ليس متصفا به ، وإنما
تخيّلوه تخيلا أى بقولهم ثلاث ثلاثة وقولهم : (عزيز ابن الله) فكانت
عبادتهم لتلك الذات المتخيلة لا لحقيقة الإله سبحانه .

ولا يبعد أن يقال على هذا الوجه : إن من كان ممن لا ينطق
بالشهادتين ويعمل على جهالة فيما لا يعذر بجهله أن يخشى عليه من هذه
الآية ، كما يخشى على من يعمل على علم ، ولكن فى بدعة وضلالة .

ومما يشهد للأول حديث المسىء صلواته ولأثر حذيفة « رأى رجلا
يصلى فطافق فقال له : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال : منذ أربعين سنة .
قال له : ما صليت منذ أربعين سنة ولو مت على ذلك ، مت على غير
فطرة محمد صلى الله عليه وسلم » .

والأحاديث الواردة فى ذلك على سبيل العمومات مثل قوله صلى الله
عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرى فهو رد » أى مردود .

وحديث الحوض « فيزداد أقوام عن حوضي ، فأقول : أمتي أمتي »
فيقال : إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك إنهم غيروا وبدّلوا .

ونحو ذلك مما يوجب الانتباه إلى صحة العمل وموافقته لما جاء به
النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك القسم الثاني كما في قوله : (قل هل أنبئكم بالأخسرين
أعمالا الذين ضل سعيهم) الآية .

أما الراجح من القولين في زمن عاملة ناصبة أهو في الدنيا أم في
الآخرة ؟ فإنه القول بيوم القيامة ، وهو مروي عن ابن عباس وجماعة .
والأدلة على ذلك من نفس السياق .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام جيد جداً في هذا الترجيح ، ولم
أقف على قول لغيره أقوى منه ، نسوق مجمله للفائدة :

قال في المجموع في تفسير هذه السورة بعد حكاية القولين : الحق
هو الثاني لوجوه ، وساق سبعة وجوه :

الأول : أنه على القول الثاني يتعلق الظرف بما يليه ، أي وجوه يوم
الفاشية ، خاشعة عاملة ناصبة صالية .

أما على القول الأول فلا يتعلق إلا بقوله : تصلى . ويكون قوله :

خاشعة صفة للوجوه ، قد فصل بينها وبين الموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى . والتقدير : وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى ناراً حامية . والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه ، والتقديم والتأخير ، إنما يكون مع قرينة .

والثاني : أن الله ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة بعد ذلك (وجوه يومئذ ناعمة لسميها راضية في جنة عالية) أى في ذلك اليوم ، وهو يوم الآخرة : فالواجب تناظر القسمين أى في الظرف.

الثالث : أن نظير هذين القسمين ما ذكر في موضع آخر في قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) ، وفي موضع آخر في قوله (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قفرة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) وهذا كله وصف للوجوه في الآخرة .

الرابع : أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب في القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله : (سيامهم في وجوههم) وقوله : (فلمرقتهم سيامهم) ، وهذا الوجه لم تقضح دلالة على المقصود .

الخامس : أن قوله : خاشعة عاملة ناصبة ، لو جعل صفة لهم (١٣ - أضواء البيان ٩ ج)

في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم ، فإن هذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص ، لقليل : خاشعة للأوثان مثلاً ، عاملة لغير الله ، ناصبة في طاعة الشيطان ، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً ولا وعيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن ، وهذا الوجه من أقواها في المعنى وأوضحها دلالة .

وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام للغرورون بغيرهم ، ويندمون غاية الندم يوم القيامة على اتباعهم إياهم ، كما في قوله تعالى : (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) .

السادس : وهو مهم أيضاً ، أنه لو جعل لهم في الدنيا لكان خاصاً ببعض الكفار دون بعض ، وكان مختصاً بالعباد منهم ، مع أن غير العباد منهم يكونون أسوأ عملاً ويستوجبون أشد عقوبة .

السابع : أن هذا الخطاب لو جعل لهم في الدنيا لكان مثله ينفر من أصل العبادة والتنسك ابتداءً ، أي وقد جاءت السنة بترك أصحاب الصوامع والمتنسكين دون التعرض لهم بقتل ولا قتال ، كما أنها

أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم ، مما يشعر باحترام أصل التعبد لعموم
الجنس ، كما أشار رحمة الله تعالى عليه .

وقد أوردنا مجمل كلامه رحمه الله ، لئلا تتخذ الآية على غير ما هو
الراجح فيها ، أو يحمل السياق على غير ما سبق له ، وقد ختم كلامه
بتوجيه لطيف بقوله : ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة ،
وليس في الخطاب تقييد ، كان هذا سمياً في إصلاح الخطاب بما لم
يذكر فيه . اهـ .

ومن الذى يعطى نفسه حق إصلاح الخطاب في كلام رب العالمين ،
إنها لفتة إلى ضرورة ومدى أهمية تفسير القرآن بالقرآن ، الذى نهجه
الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أضواء البيان في تفسير القرآن
بالقرآن .

وقد بدا لى وجه آخر ، وهولو جعل هذا العمل الكفار والمبتدعة ،
لكان منطوقه أن العذاب وقع عليهم مجازاة على عملهم ونصيبهم في
عبادتهم تلك ، والحال أن عذاب الكفار عموماً إنما هو على ترك العمل
لله وحده ، وعقاب المبتدعة فيما ابتدعوه من ضلال ، فإذا كان ما ابتدعوه
لا علاقة له بأركان الإسلام ولا بالعقيدة ، وإنما هو في فروع من العبادات
ابتدعوها لم تكن في السنة ، فإنهم وإن عملوا ونصبوا فلا أجر لهم فيها ،

ولا يقال : إنهم يعذبون عليها بطل ذلك المذكور مع سلامة العقيدة في التوحيد ، والقيام بالواجب في أركان الإسلام ، إذ العذاب المذكور ليس مقابلا بالعمل والنصيب المذكور ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَسْقَى مِنَ عَيْنٍ إِنِّيَّةٍ ﴾ :

قيل : حاضرة ، وقيل : شديدة الحرارة ، وهذا الأخير هو ما يشهد له القرآن في قوله تعالى : (يطوفون بينها وبين حميم آن) ، ومعلوم أن الحميم شديد الحرارة ، كما أن حملها على معنى حاضرة لم يكن فيه بيان معنى ما في تلك العين من أنواع الشراب المعد والمحضر لهم ، وفي المعجم حميم آن : قد انتهى حره ، والفعل : أنى الماء المسخن يأنى بكسر النون . قال عباس :

علانيه والخليل يغشى متونها حميم وأن من دم الجوف ناعم

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ .

تكلم الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الجمع بينه وبين قوله تعالى : (فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) ، وبين الصحيح من معنى الضريع ماهو ، وأنه ثبت معروف للعرب ، وهو على الحقيقة لا المجاز

وقد أورد الفخر الرازى سؤالاً والجواب عليه ، وهو كيف ينبت الضريع فى النار ؟ فأجاب بالإحالة على تصور كيف يبقى جسم الكفار حياً فى النار ، وكذلك الحيات والعقارب فى النار .

وهذا وإن كان وجيهاً من حيث منطق القدرة ، ولكن القرآن قد صرح بأن النار فيها شجرة الزقوم ، وأنها فتنة للظالمين فى قوله : (أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه ردوس الشياطين فإنهم لا يكون منها فمالئون منها البطون) فأثبت شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، وأثبت لها لازمها وهو طلعها فى تلك الصورة البشعة ، وأثبت لازم اللازم وهو أكلهم منها حتى ملء البطون .

والحق أن هذا السؤال وجوابه قد أثاره المبطلون ، ولكن غاية ما فى الأمر سلب خاصية الإحراق فى النار عن النبات ، وليس هذا ببعيد على قدرة من خلق النار وجعل لها الخاصية .

وقد وجد نظيره فى الدنيا فقلبك نار النروذ ، كانت تحرق الطير فى الجو إذا اقترب منها . وعجزوا عن الدنو إليها ليلقوا فيها إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق ورموه من بعيد ، ومع ذلك حفظه الله منها بقوله

تعالى لها : (كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) فسبحان من بيده ملكوت كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يَوْمَ ذِئْبِ نَاعِمَةٍ ، لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

وهذا هو قسيم القسم الأول في بيان حال أهل الجنة ، ولم يعطف بالواو إيدانا بكمال تباين مضمونيهما . ويومئذ : هو يوم الفاشية المتقدم ، وهذا يقتضى أن الفاشية عامة في الفريقين . وإن اختلفت أحوالها مع مختلف الناس ، وعليه فمنهم من تغشاه بهولها ، ومنهم من تغشاه بنعيمها . وهي بالنسبة لكل منهما متناهية فيما تغشاه به ، وهي صادقة على الفريقين .

ومعلوم أن الفاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر ، بمعنى الشمول والإحاطة التامة . ومن إطلاقها على الخير ما جاء في الحديث : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم .

وبيان ذلك وتحقيقه في حق كلا القسمين كالآتي :

أما الأول منهما : وهو الفاشية في حق أهل النار فقد غشيهم العذاب حساً ومعنى ظاهراً وباطناً أو لا خشوع في ذلة ، وهي ناحية نفسية ، وهي أثقل أحياناً من الناحية المادية ، فقد يختار بعض الناس الموت عنها ، ثم مع الذلة العمل والنصب حساً وبدناً ، ومع النصب الشديد تصلى ناراً حامية ، وكان يكفي تصلى ناراً . ولكن إتباعها بوصفها حامية فهو زيادة في إبراز عذابهم وزيادة في غشيان العذاب لهم ، ثم يستقون من عين آنية متناهية في الحرارة فيكونون بين نار حامية من الخارج وحميم من الداخل تصهر منه البطون ، فهو أتم في الشمول للفاشية لهم من جميع الوجوه ، وفي حق القسم المقابل تعميم كامل وسرور شامل كالآتي ، وجوه ناعمة مكتملة النعمة ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم .

وهذا في شموله من الناحية المعنوية كمقابلة في القسم الأول بدلا من خاشعة في ذلة ناعمة في نضرة لسعيها راضية الذي سعته في الدنيا ، والذي تسعى لتحصيله أو ثوابه في لجنة عالية بدلا من عمل ونصب ، لا تسمع فيها لاغية : منزلة أدبية رفيعة حيث لا تسمع فيها كلمة لغو ولا يليق بها ، فهو إكرام لهم حتى في الكلمة التي يسمعونها ، كما في قوله : (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً) . فيها عين جارية . ومعلوم أنها عيور وأنهار تجري ، كقوله : (في

جنات وعيون) ، ومن لوازم العيون والأنهار ، هو كمال النعيم ، فأشجار ورياحين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وهذا في التعميم يقابل العين الآنية في الجحيم للقسم الأول ، فيها سرر مرفوعة وهم عليها متكئون بدل من عمل الآخرين في نصب وشقاء . وأكواب موضوعة لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية . ونمارق مصفوفة متكئا ووزرابى مبعثرة مفروشة في كل مكان ، فاكتمل النعيم من كل جانب ، حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره .

فيكون بذلك قد غشيتهم النعمة ، كما غشيت أولئك النقرة . وتكون الفاشية بمعنى الشاملة ، وعلى عمومها للفريقين ، وهى صالحة لغة وشرعاً للمعذبين بالعذاب ، وللمنعمين بالنعيم . وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

مجيء فيها مرتين : فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة . للدلالة على قسمي نعيم الجنة . الأول : عيون ونزهة . والثاني : سرر وسكن .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾ .

توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة ، لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة وعلى البعث وثم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية ، نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه .

أما الإبل فلعلها أقرب المعلومات للعرب وألصقها بحياتهم في مطعمهم من لحها ومشربهم من ألبانها ، وملبسهم من أوبرها وجلودها ، وفي حلهم وترحالهم بالحمل عليها مما لا يوجد في غيرها في العالم كله لا في الخيل ولا في الفيلة ، ولا في أي حيوان آخر ، وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها في معرض امتنانه تعالى عليهم في قوله : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) .

وكذلك في خصوصها في قوله : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) .

إنها نعم متعددة ومنافع بالغة لم توجد في سواها البتة ، وكل منها دليل على القدرة بذاته . أما الجبال فهي مما يملأ عيونهم في كل وقت ويشغل تفكيرهم في كل حين ، لقربها من حياتهم في الأمطار والمرعى في سهولها ، والمقيل في كهوفها وظلها ، والرغبة والعظمة في تناولها وثباتها

في مكابها . وقد وجه الأنظار إليها أيضاً في موطن آخر في قوله تعالى :
 (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً) ثوابت ، كما بين تعالى أنها :
 رواسي للأرض أن تميد بكم والجبال أرساها مقاعاً لكم ولأنعامكم .
 فهي مرتبطة بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا .

أما السماء ورفعها أي ورفعتها في خلقها وبدون عمد ترونها وبدون
 قطور أو تشقق على تطاول زمنها ، فهي أيضاً محط أنظارهم ، وملتقى
 طلباتهم في سقيا أنعامهم .

ومعلوم أن خلق السماء والأرض من آيات الله الدالة على البعث ، كما
 تقدم مرار .

وتقدم للشيخ عند قوله تعالى : (إن في خلق السموات والأرض)
 الآية . بيان كونها آية . أما الأرض وكيف سطحت ، فإن الآية
 فيها مع عمومها كما في قوله : (نخلق السماوات والأرض أكبر من
 خلق الناس) .

وقوله : (كيف سطحت) آية ثابتة ، لأن جرمها مع إجماع
 المفسرين على تكويرها ، فإنها ترى مسطحة أي من النقطة التي هي
 في امتداد البصر ، وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها ، لأن الجرم
 المتكور إذا بلغ من الكبر والضيخامة حداً بعيداً يكاد سطحه يرى
 مسطحاً من نقطة النظر إليه ، وفي كل ذلك آيات متعددة للدلالة على

قدرته تعالى على بعث الخلائق ، وعلى إيقاع مايفشـاهم على مختلف أحوالهم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبية على هذا المعنى ، عند الكلام على قوله تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) الآية . من سورة يونس .

تنبيه

التوجيه هنا بالنظر إلى الكيفية في خلق الإبل ونصب الجبال ، ورفع السماء ، وتسطيح الأرض ، مع أن الكيف للحالة ، والله تعالى لم يشهد أحداً على شيء من ذلك كله (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) فكيف يوجه السؤال إليهم للنظر إلى الكيفية وهي شيء لم يشهده .

والجواب والله تعالى أعلم : هو أنه بالتأمل في نتائج خلق الإبل ، ونصب الجبال إلخ . وإن لم يعلموا الكيف ، بل ويمجزون عن كنهه وتحقيقه ، فهو أبلغ في إقامة الدلائل عليهم ، كمن يقف أمام صنعة بدیعة يجهل سر صنعتها ، فينساءل كيف تم صنعها ؟ وقد وقع مثل ذلك وهو الإحالة على الأثر بدلا من كشف الكنه والكيف ، وذلك في سؤال الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه ، أن يريه كيف يحيى الموتى . فكان الجواب : أن أراه الطيور تطير ، بعد أن ذبحها بيده وقطعها ، وجعل على كل جبل منها جزءاً . فلم يشاهد كيفية وكنهه ، وحقيقة الإحياء ،

وهو ديب الروح فيها وعودة الحياة إليها . لأن ذلك ليس في استطاعته ،
ولكن شاهد الآثار المترتبة على ذلك ، وهي تحركها وطيرانها وعودتها
إلى ما كانت عليه قبل ذبحها . مع أنه كان للعزير موقف مماثل وإن
كان أوضح في البيان حيث شاهد العظام وهو سبحانه ينشرها ، ثم
يكسوها لحما . والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى بعد ذلك (فذكر إنما أنت مذكر) فإن مجيء هذا
الأمر بالفاء في هذا الموطن ، فإنه يشعر بأن النظر الدقيق والفكر
الدارس ، مما قد يؤدي بصاحبه إلى الاستدلال على وجود الله وعلى
قدرته ، كما نطق مؤمن الجاهلية قس بن ساعدة في خطبته المشهورة : ليل
داج ، ونهار ساج ، وسما ذات أبراج ، ونجوم تزهز ، وبحار تزخر ،
وجبال مرساه ، وأرض مدحاه ، وأنهار مجراه . فقد ذكر السماء والجبال
والأرض .

وكقول زيد بن عمرو بن نفيل ، مؤمن الجاهلية المعروف :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرها ثقلا

دحاها فلما استوت شدها سواء وأرسي عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا

إذا هي سبقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الريح تصرف حالا فحالا

فكان على هؤلاء العقلاء أن ينظروا بدقة وتأمل ، فيما يحيط بهم

عامه . وفي تلك الآيات الكبار خاصة ، فيجدون فيها مايكفيهم .

كما قيل :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فإذا لم يهدم تفكيرهم ولم تتجه أنظارهم . فذكرهم إنما أنت مذكر . وهذا عام ، أى سواء بالدلالة على القدرة من تلك المصنوعات أو بالتلاوة من آيات الوحي . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِلَيْنَا يَأْتُهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾

فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع .

قال عبيد :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

كما فى قوله : (إليه مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) وهو على الحقيقة كما فى صريح منطوق قوله تعالى : (ثم إلى مرجعكم فاحكم بينكم) الآية .

وقوله : (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

وقوله : (ثم إن علينا حسابهم) الإتيان بـثم للاشعار ما بين إيابهم وبدء حسابهم ، (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) .

وقوله : (إن علينا) بتقديم حرف التأكيد ، وإسناد ذلك لله تعالى ،

وبحرف على مما يؤكد ذلك لاحالة ، وأنه بأدق ما يكون ، وعلى الصغيرة والكبيرة كما في قوله : (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) .

ومن الواضح مجيء (إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) بعد قوله تعالى : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا ، ثم إن الحساب في اليوم الآخر ليس خاصاً بهؤلاء ، بل هو عام بجميع الخلائق . ولكن إسناده لله تعالى مما يدل على الممانى المتقدمة .

نسأل الله العفو والسلامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

اختلف في المراد بالفجر ، فقليل : انفجار النهار من ظلمة الليل .

وقيل : صلاة الفجر .

وكلا القولين له شاهد من القرآن . أما انفجار النهار ، فكما في قوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) .

وأما صلاة الفجر فكما في قوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) ، وإن كان في السياق ما يقرب القول الأول ، إذ هو في الأيام والليالي الفجر وليال عشر ، الليل إذا يسرى ، وكلها آيات زمنية أنسب لها انفجار النهار .

بقى بعد ذلك اختلافهم في أي الفجر عنى هنا ، فقليل بالعموم في كل يوم ، وقيل : بالخصوص . والأول قول ابن عباس وابن الزبير وعلى رضي الله عنهم .

وعلى الثاني فقليل : خصوص الفجر يوم النحر . وقيل : أول يوم المحرم ، وليس هناك نص يعمل عليه . إلا أن فجر يوم النحر أقرب إلى الليالي العشر ، إن قلنا : هي عشر ذى الحجة على ما يأتي إن شاء الله .

أما الليالي العشر فأقوال المفسرين محصورة في عشر ذي الحجة ،
وعشر المحرم والعشر الأواخر من رمضان . والأول جاء عن مسروق
أنها العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام وأتمناها
بعشر ، وكلها الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس . وليس في القرآن
نص بعينها .

وفي السنة بيان فضيلة عشر ذي الحجة وعشر رمضان كما هو
معلوم ، فإن جمل الفجر خاصا بيوم النحر ، كان عشر ذي الحجة أقرب
للسياق . والله تعالى أعلم .

والشفع والوتر : ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولاً ومجموعها
يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلاً .

أما جملة فقالوا : إنما الوتر هو الله ، للحديث : « إن الله وتر
يحب الوتر » ، وما سواه شفع ، كما في قوله تعالى : (ومن كل شيء
خلقنا زوجين) ، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق ، كما في عموم
(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) .

أما التفصيل فقالوا : المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجا ،
والسما والأرض والجبل والبحر والنار والماء . وهكذا ذكروا لكل
شيء مقابلة ، ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة .

والواقع أن أقرب الأقوال عندى والله أعلم : أنه هو الأول لأنه

ثبت علمياً أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصة الصغيرة .

فإنه ثبت أن كل كائن جاد أو غيره مكون من ذرات والذرة لها نواة ومحيط ، وبينهما ارتباط وعن طريقتهما التفجير الذى اكتشف فى هذا العصر ، حتى فى أدق عالم الصناعة كالكهرباء ، فإنها من سالب وموجب ، وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أى جهاز كان ، حتى الماء الذى كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين ، أكسجين وهيدروجين ، ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أى الفليان ، ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء . وهكذا .

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب ، فلم يبق فى الكون شىء قط فرداً وتراً بذاته ، إلا مانص عليه الحديث « إن الله وتر يحب الوتر » ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغنى بذاته عن غيره ، والواحد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت . إلخ . بخلاف المخلوق ، وقلنا : المستغنى بذاته عن غيره ، لأن كل مخلوق شفعاً ، فإن كل عنصر منه فى حاجة إلى العنصر الثانى ، ليكون معه ذاك الشىء والله سبحانه بخلاف ذلك . ولهذا كان القول الأول ، وهو أن الوتر هو الله ، والشفع هو المخلوقات جميعها ، هو القول الراجح ، وهو الأعم فى المعنى .

قوله : (والليل إذا يسر) اتفق المفسرون على المعنى وهو سرى بالليل ، ولكن الخلاف في التعيين هل المراد به عموم الليالي في كل ليلة أم ليلة معينة ، وما هي ؟

فقيل : بالعموم كقوله : (والليل إذا عسعس) .

وقيل : بالخصوص في ليلة مزدلفة أو ليلة القدر .

وأيضاً يقال : إذا كان الفجر فجر النحر ، والعشر عشر ذى الحجة فيكون (والليل إذا يسر) ليلة الجمع . والله تعالى أعلم .

وقد رجح القرطبي وغيره عموم الليل ، وقد جمع في هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلاً ، فشملت الخالق والمخلوق والشفع والوتر إجمالاً وتفصيلاً ، في انفجار الفجر وانتشار الخلق وسريان الليل وسكون الكون ، والعبادات في الليالي العشر .

فكان من أعظم ما أقسم الله به قوله تعالى : (هل في ذلك قسم لذي حجر) أى عقل ، والحجر كل مادته تدور على الأحكام والقوة ، فالحجر لقوته ، والحجرة لإحكام ما فيها ، والعقل سمي حجراً بكسر الحاء . لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق ، والمحجور عليه لمنعه من تصرفه وإحكام أمره ، وحجر المرأة لطفلها ، فهذه المقسم بها الخمسة هل فيها قسم كافٍ لذي عقل ، والجواب : بلى ، وهذا ما يقوى هذا القسم بلا شك .

ثم اختلف في جواب هذا القسم حيث لم يصرح تعالى به ، كما صرح به في نظيره ، وهو قوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

ثم صرح بالمقسم عليه (إنه لقرآن كريم) الآية . وهنا لم يصرح به مع عظم القسم فوقع الخلاف في تعيينه .

فقليل : هو مقدر تقديره ليعذبن يدل له قوله (ألم تر كيف فعل ربك بعاد — إلى قوله — فصب عليهم ربك سوط عذاب) .

وقيل : موجود وهو قوله : (إن ربك لبالمرصاد) قاله القرطبي . وهذا من حيث الصناعة في اللغة وأساليب التفسير وجيه ، ولكن يوجد في نظري والله تعالى أعلم : ارتباط بين القسم وجوابه وبينما يحىء في آخر السورة من قوله : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) إلى آخر السورة .

كما أنه يظهر ارتباط كبير بينه وبين آخر السورة التي قبلها ، إذ جاء فيها (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) ، (والفجر وليال عشر — إلى قوله — هل في ذلك قسم لذي حجر) ، لأن مافيه من الوعيد بالعذاب الأكبر والقصر في إياهم إلى الله وحده وحسابهم عليه فحسب يتناسب معه هذا القسم العظيم .

أما ارتباطه بما في آخر السورة ، فهو أن المقسم به هنا خمس مسميات (والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر) والذي في آخر السورة أيضاً خمس مسميات : دك الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى .

صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول الدفخ في الصور ، ودك الأرض إلى نهاية الحساب ، وتذكر كل إنسان ماله وما عليه ، تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدم من أمور الدنيا .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

لم يبين هنا ماذا ولا كيف فعل ، بمن ذكروا ، وهم عاد و ثمود وفرعون .

وقد تقدم ذكر ثلاثهم في سورة الحاقة عند قوله تعالى : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم - إلى قوله - فأخذهم أخذة رابية)

والجديد هنا : هو وصف كل من عاد من أنها ذات العماد ، ولم يخلق

مثلها في البلاد ، وثمود أنهم جابوا الصخر بالواد ، وفرعون أنه
ذو أوتاد .

وقد اختلف في المعنى بهذه الصفات كلها .

أما عاد ، فقيل : العماد عماد بيوت الشعر ، والمراد بها القبيلة .
وطول عماد بيوتها : كناية عن طول أحسامهم ، كما قيل في صخر :

* رفيع العماد طويل النجاد *

وطول الأجسام يدل على قوة أصحابها .

وقيل : إرم : كانت مدينة رفيعة البنيان ، وذكرها في أخبارها
قصصاً تفوق الخيال ، وأنها في الربع الخالي ، ولكن حيث لم تثبت
أخبارها بسند يعول عليه ، ولم يصدقه الواقع ، فقال قوم : قد خسف بها
ولم تعد موجودة .

أما ثمود : فقد جابوا ، أي نحتوا الصخر بالواد ، بواد القرى
في مدائن صالح ، وهي بيوتهم موجودة حتى الآن .

وأما فرعون ذو الأوتاد ، فقيل : هي أوتاد الخيام ، كان يتدها لمن
يعذبهم .

وقيل : هي كناية عن الجنود بثبت بها ملكه .

وقيل : هي أكبات وأسوار مرتفعات ، يلعب له في مراتبها .

قال ابن جرير مانصه : حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة « وفرعون ذى الأوتاد ، ذكر لنا أنها كانت مطال ، وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وجبال »

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا القول هو الصحيح ، وأنها مرتفعة ، وأنها هى المعروفة الآن بالأهرام بمصر ، ويرجح ذلك عدة أمور :

منها : أنها تشبه الأوتاد فى منظرها طرفه إلى أعلا ، إذ القمة شبه الوتد ، مديبة بالنسبة لضخامتها ، فهى بشكل مثلث ، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا .

ومنها : ذكره مع نمود الذين جابوا الصخر بالواد ، بجامع مظاهر القوة ، فأولئك نحتوا الصخر بيوتا فارهين ، وهؤلاء قطعوا الصخر الكبير من موطن لاجبال حوله ، مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد . والحال أنها قطع كبار صخرات عظام فى اقتطاعها وفى نقلها إلى محل بنائها ، وفى نفس البناء كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت ، وتسخير العباد فى ذلك .

ومنها : أن خملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة فى كل زمان ولكل جيل ، أوقع فى المعزة والاعتبار ، بأن من أهلك تلك الأمم ، قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم .

وصدق الله العظيم : (إن ربك لبالمرصاد) .

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَدَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَدَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ، كَلَّا ﴾

بين تعالى أنه يعطى ويمسك ابتلاء للعبد .

وقوله تعالى : كَلَّا ، وهى كلمة زجر وردع ، وبيان أن المعنى لا كما قلتم فيه تعديل لمفاهيم الكفار ، بأن العطاء والمنع لا عن إكرام ولا لإهانة ، ولكنه ابتلاء كما فى قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وقوله : (اهلوا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

بعد ما بين سبحانه صحة المفاهيم فى العطاء والمنع ، جاء فى هذه الآيات وبين حقيقة فتنة المال إيجاباً وسلباً جمعاً وبذلاً ، فبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك من عدم إكرام اليتيم ، مهبط الجناح ، مكسور الخاطر ، والتقاعس عن إطعام المسكين ، خالى اليد جائع البطن ، ساكن الحركة ،

وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المال وهم يمسون عنها ، وقد بين تعالى أن هذا الجانب هو اقتحام العقبة عند الشدة ، فى قوله تعالى فى سورة البلد (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة) ومن الجانب الآخر (وتأكلون التراث أكلا لما) أى الميراث ، فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية ، أحوج إلى مال مورثهن ، وتحبون المال حباً حتى استعبدكم وألهاكم التكاثر فيه .

وهنا لفت نظر للفرقتين ، فمن أعطى منهم لا ينبغي له أن يغفل طرق البذل الهامة ، ومن منع لا ينبغي له أن يستشرف إلى ما لا ينبغي له ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . ﴾

تقدم فى سورة الحاقة أيضاً هذا السياق نفسه ، بعد ذكر نمود وعاد وفرعون فى قوله (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة - إلى قوله - والملك على أرجائها) الآية . مما يبين معنى صفًّا صفًّا ، أى على أرجائها صفًّا بعد صف .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على ما يفسرها

في سورة الرحمن على قوله تعالى : (إن استقطعتم أن تنفذوا من أقطار
السموات والأرض) . وقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفا صفا)
وجاء ربك : من آيات الصفات .

مواضع البحث والنظر

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مراراً في الأضواء في
عدة محلات ، وليعلم أنها والاستواء وحديث النزول والإتيان المذكور
في قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ،
والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) سواء .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث آيات الصفات
كاملة في محاضرة أسماها « آيات الصفات » وطبعت مستقلة .

كما تقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأعراف عند
قوله تعالى : (ثم استوى على العرش يمشي الليل والنهار) وإن كان
لم يتعرض لصفة المجيء بذاتها ، إلا أنه قال : إن جميع الصفات من
باب واحد ، أي أنها ثابتة لله تعالى على مبدأ ليس كمثل شيء وهو
السميع البصير ، على غير مثال للمخلوق ، فثبت استواء يليق بجلاله على
غير مثال للمخلوق .

وكذلك هنا كما ثبت استواء ثبت مجيء ، وكما ثبت مجيء ثبت نزول .
والكل من باب ليس كمثل شيء ، أي على ما قال الشافعي رحمه الله :

نحن كلفنا بالإيمان ، فعلمنا أن نؤمن بصفات الله على ما يليق بالله على
مراد الله ، وليس علينا أن نكيف ، إذ الكيف ممنوع على الله سبحانه .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾

قد بين تعالى موضوع تذکر الإنسان ، وهو قوله : (يقول يا ليتني قدمت
لحياتي) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة
الفرقان عند قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول يا ليتني
اتخذت مع الرسول سبيلا) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه اللام ، وهل هي لنفي القسم أو لقأكيده ،
وذلك عند قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) إلا أنها هنا ليست
للنفي ، لأن الله تعالى قد أقسم بهذا البلد في موضع آخر ، وهو في
قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين) ،
لأن هذا البلد مراد به مكة إجماعاً لقوله تعالى بعده : (وأنت - أي
الرسول صلى الله عليه وسلم - حل) أي حال أو حلال (بهذا البلد) ، أي
مكة ، على ماسيأتي إن شاء الله .

وقد ذكر القرطبي وغيره نظائرها من القرآن ، والشعر العربي مما
لا يدل على نفي ، كقوله تعالى : (مامنك ألا تسجد إذ أمرتك) مع
أن المراد مامنك من السجود ، وكقول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبا به وكاد صميم القلب لا يتقطع

أي وكاد صميم القلب يتقطع .

وقد بحثها الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بحثاً مطولاً في دفع
إيهام الاضطراب .

وقوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد) حل : بمعنى حال ،
والفعل المضعف يأتي مضارعه من باب ، نصر ، وضرب ، فإن كان
متعديا كان من باب نصر .

تقول : حل المقعدة يحملها بالضم ، وتقول : حل بالمكان يحل
بالكسر إذا أقام فيه ، والإحلال دون الإحرام .

وقد اختلف في المراد بحل هل هو من الإحلال بالمكان ، أو
هو من التحلل ضد الإحرام ؟

فأكثر المفسرين أنه من الإحلال ضد الإحرام ، واختلفوا في
المراد بالإحلال هذا .

ف قيل : هو إحلال مكة له في عام الفتح ، ولم تحل لأحد قبله
ولا بعده .

وقيل : حل : أى حلال له ما يفعل بمكة غير آثم ، بينما هم
آثمون بفعلهم .

وقيل : حل : أى أن المشركين معظومون هذا البلد وحرمة في
نفوسهم ، ولكنهم مستحلون لإيذاءك وإخراجك .

وذكر أبو حيان : أنه من الحلول والبقاء والسكن ، أى وأنت
حال بها . اهـ .

وعلى الأول يكون إخباراً عن المستقبل ووعداً بالفتح ، وأنها تحمل له
بعد أن كانت حراماً ، فيقاتل أهلها وينتصر عليهم أو أنه تسلية له ،
وأن الله عالم بما يفعلون به ، وينتصر عليهم .

وعلى الثاني : يكون تأكيداً لشرف مكة ، إذ هي أولا فيها
بيت الله وهو شرف عظيم ، ثم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
حالاً فيها بين أهلها .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا الثاني هو الراجح ، وإن
كان أقل قائلًا ، وذلك لقراءتين من نفس السورة ومن غيرها من
القرآن الكريم .

منها : أن حلوله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد له شأن عظيم فعلاً ،
وأهمه أن الله رافع عنهم العذاب لوجوده فيهم ، كما في قوله تعالى :
(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فكأنه تعالى يقول : وهذا البلد
الأمين من العذاب ، وهؤلاء الآمنون من العذاب بفضل وجودك
فيهم .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم بحلوله فيها بين أظهرهم ، يلاقى
من المشاق ويصبر عليها .

وفيه أروع المثل للصبر على المشاق في الدعوة ، فقد آذوه كل الإيذاء
حتى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلي عند الكعبة ، وهو يصبر
(١٥٠ - أضواء البيان ج ٩)

عليهم ، وآذوه في عودته من الطائف ، وجاءه ملك الجبال نصرة له ، فأبى وصبر ودعا لهم ، ومنعوه الدخول إلى بلده مسقط رأسه فصبر ، ولم يدع عليهم ، ورضى الدخول في جوار رجل مشرك وهذا هو المناسب لقوله بعده (لقد خلقنا الإنسان في كبد) ، وهذا من أعظمه .

فإذا كان كل إنسان يكابد في حياته ، أيا كان هو ، ولأى غرض كان ، فكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام ، حتى يقسم بها . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .

قيل : الوالد هو آدم ، وما ولد ، قيل : ما نافية . وقيل : مصدرية .

فعلى أنها نافية : أى وكل عظيم لم يولد له .

وعلى المصدرية : أى بمعنى الولادة من تخليص نفس من نفس ، وما يسبق ذلك من تلقيح وحمل ونمو الجنين وتفصيله وتخليقه وتسهيل ولادته .

وقيل : ووالد وما ولد : كل والد مولود من حيوان وإنسان .

وقد رجح بعض العلماء أن الوالد هو آدم ، وما ولد ذريته ،

بأنه المناسب مع هذا البلد لأنها أم القرى ، وهو أبو البشر ،
حكائه أفسم بأصول الموجودات وفروعها .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .

تقدم بيانه عند قوله تعالى : (بآيها الإنسان إنك كادح إلى ربك
كدحا فلاقه) .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا . أَيْحَسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ
أَحَدٌ ﴾ .

لم يبين أيراه أحد ؟ ومن الذى يراه ؟

ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه ، ولكن جاء الجواب مقروناً
بالدليل والإحصاء فى قوله تعالى بعده (ألم نجعل له عينين ولساناً
وشفتين وهدينا له النجدين) لأن من جعل الإنسان عينين يبصر
بهما ويعلم منه خائفة الأعين ، ولساناً ينطق به ويحصى عليه ما يلنظ
من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وهداه الطريق ، طريق البذل وطريق
الإمساك ، وإذا كان الأمر كذلك فإن ينفق درهما إلا وهو سبحانه
يعلمه ويراه .

قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

النجد : الطريق ، وهو كما تقدم فى سورة الإنسان بعد تنصيل

خلق الإنسان (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه
سميماً يصيراً ، إنا هديناه السبيل) أي الطريق على كلا الأمرين بدليل
(إنا شاكرًا وإما كفرًا) .

وتقدم المعنى هناك ، ويأتي في السورة بعدها عند قوله تعالى :
(فألهما فجورها وتقواها) زيادة إيضاح له ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) .

وقد بين المراد بالعقبة فيما بعد بقوله : (وما أدراك ما العقبة) ثم
ذكر تفصيلها .

وقد ذكر أن كل ما جاء بصيغة وما أدراك ، فقد جاء تفصيله
بعده كقوله تعالى : (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم
يكون الناس كالفرش المبثوث) وما بعدها .

وتقدم عند قوله تعالى : (الحاقة ما الحاقة) .

وفي تفسير العقبة بالذكورات ، فك الرقبة ، وإطعام اليتيم والمسكين
توجيه إلى ضرورة الإنفاق حقاً لا ما يدعيه الإنسان بدون حقيقة في
قوله : (أهلك ما لا لبداً) .

أما فك الرقبة : فإنه الإسهام في حق الرقيق والاستقلال في عتقها
يعبر عنه بفك النسبة .

وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية ، حيث قدم في سلم الاقتحام
قتلك العقبة .

وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق الرقيق
أو فك النسمة ، يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بمضو ،
وفيه نصوص عديدة ساقها ابن كثير ، وفي هذا إشعار بحقيقة موقف
الإسلام من الرق ، ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرقاب .

فها هو هنا يجعل عتق الرقية ، سلم اقتحام العقبة ، وجعله عتقاً
لمعتق من النار كل عضو بمضو . ومعلوم أن كل مسلم يسعى لذلك
وجعله كفارة لكل عيّن وللاظهار بين للزوجين ، وكفارة القتل الخطأ ،
كل ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفك الرقاب في الوقت الذي لم يفتح
للاسترقاق إلا باب واحد ، هو الأسر في القتال مع المشركين لا غير ،
وما سبق تنبيهها عليه رداً على المستشرقين ومن تأثر بهم ؛ في
ادعائهم على الإسلام أنه متمطش لاسترقاق الأحرار .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على قوله تعالى :
(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) في سورة الإسراء .

وقوله تعالى : (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) أي شدة وجوع .
والساغب : الجائع ؛ قال القرطبي : وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت جارا يا بن قيس لماصم لما بت شبعانا وجارك ساغبا

أى لو كنت جاراً بحق تعنى بحق الجار ، لما حدث لجارك هذا .

وهذا القيد لحال الاطعام دليل على قوة الإيمان بالجزاء وتقديم ما عند الله على ما فى قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) ، على ما تقدم من أن الضمير فى حبه أنه للطعام ، وهذا غالب فى حالات الشدة والمسغبة .

وقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فهى أعلى منازل الفضيلة فى الإطعام .

وقوله : (يتيماً ذا مقربة) فاليتيم من حرم أبويه أو أحدها ، وقد خصوا فى اللفظة يتيم الحيوان ، من فقد الأم ، وفى الطيور من فقد الأبوين ، وفى الإنسان من فقد الأب .

وذا مقربة : أى قرابة ، وخص به ، لأن الإطعام فى حقه أفضل وأولى من غيره ، وفيه الحديث « أن الصدقة على الغريب صدقة وصلته وعلى البعيد صدقة قطع » .

والأحاديث فى الإحسان إلى اليتيم متضافرة ، ويكفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذين » أى السبابة والقي تليها

قوله تعالى : (أو مسكيناً ذا متربة) ، قيل : المسكين من السكون
وقلة الحركة ، والمتربة : اللصوق بالتراب .

وقد اختلف في التفريق بين المسكين والفقير أنهما أشد احتياجاً
وما حد كل منهما ، فاتفقوا أولاً على أنه إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا
افترقا ، وإذا ذكر أحدهما فقط ، فيشمل الثاني معه ، ويكون الحكم
جامعاً لهما كما هو هنا : فالإطعام يشمل الاثنين معاً ، وإذا
اجتمعا فرق بينهما بالتعريف .

فالمسكين كما تقدم والفقير ، قالوا : مأخوذ من الفقرة وهي الحفرة
تحفر للنبخلة ونحوها للخرس ، فكأنه نزل إلى حفرة لم يخرج منها .

وقيل : من فقار الظاهر ، وإذا أخذت فقار منها عجز عن الحركة ،
فقيل : على هذا الفقير أشد حاجة ، ويرجعه ما جاء في قوله تعالى :
(أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) فسامح مساكين مع
وجود سفينة لهم يتسببون عليها للعيشة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم
« اللهم أحيى مسكيناً وأميتى مسكيناً » الحديث . مع قوله صلى الله
عليه وسلم « اللهم إني أعوذ بك من الفقر » ، وهذا الذي عليه
الجمهور ، خلافاً لما لك .

وقد قالوا في تعريف كل منهما : للمسكين من يجد أقل ما يكفيه ،

والفقير : من لا يجد شيئاً ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

هذا قيد في اقتحام العقبة ، بتلك الأعمال من عتق أو إطعام ، لأن حمل غير المؤمن لا يحمله يقتحم العقبة يوم القيامة لإحباط عمله ولاستيفائه إياه في الدنيا ، وثم هنا للترتيب الذكري لا الزمني ، لأن الإيمان مشروط وجوده عند العمل .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شروط قبول العمل وصحته في سورة الإسراء عند قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) ، وكقوله : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) ، وقوله : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) لأن الإيمان هو العمل الأساسي في كل العمل على عمل الخير يبتنى به الثواب ، وخاصة الإنفاق في سبيل الله ، لأنه بذل بدون عوض عاجل .

وقد بحث العلماء موضوع عمل الكافر الذي عمله حالة كفره ثم أسلم ، هل ينتفع به بعد إسلامه أم لا ؟

والراجح : أنه ينتفع به ، كما ذكر القرطبي أن حكيم بن جزام بعد ما أسلم قال : يا رسول الله إنا كنا نتبعك بأعمال في الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام « أسلمت على ما أسلفت من الخير » ، وحديث عائشة قالت : « يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية

يصل الرحم ويظمم الطعام ويفك العاني ويعتق الرقاب ، ويحمل على
إبائه لله ، فهل ينفعه ذلك شيئاً ؟ قال : لا ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي
خطيئتي يوم الدين .

ومفهومه أنه لو قالها ، أي لو أسلم فقالها كان ينفعه ، والله
تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ﴾

تقمة لصفاتهم ، والصبر عام على الطاعة وعن المعصية ، والمرحة زيادة
في الرحمة ، والحديث « الراجحون يرجهم الرحمن » .

وذكر الرحمة هنا يتناسب مع العطف على الرقيق والمساكين واليتيم ،
والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا
جَلَّهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَعَنَاهَا .
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَنزَلْنَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا . ﴾

في تلك الآيات العشر يقسم الله تعالى سبع مرات بسبع آيات
كونية ، هي الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ،
والنفس البشرية ، مع حالة لكل مقسم به ، وذلك على شيء واحد ،
وهو فلاح من زكى تلك النفس وخيبة من دساها ، ومع كل آية جاء
للقسم بها توجيهها إلى أثرها العظيم المشاهد الملموس ، الدال على القدرة
الباهرة .

وذلك كالآتي أولا : (والشمس وضحاها) فالشمس وحدها آية
دالة على قدرة خالقها ، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل
تقدير ، وهي على الزمان بدون انتقاص ، فهي في ذاتها آية .

ثم جاء وصف أثرها وهو : ضحاها ، وهو انتشار ضوئها ضحوة

النهار ، وهذا وحده آية ، لأنه نتيجة لحركتها ، وحركتها آية من آيات الله كما قال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وهي الآية التي حاج بها إبراهيم عليه السلام نمرود في قوله : (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب فبهت الذي كفر) .

ففي هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية ، وضحاها : نتيجة لهذا السير ، ثم ضحاها نعم جزيلة على الكون كله ، من انتشار في الأرض وانتفاع بضوئها وأشعتها .

وقد قالوا : لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينقذ منها بشيء ، لأنها تحرق باقترابها ، ويتجمد العالم من بعدها ، ذلك تقدير العزيز العليم .

فالضحى وحده آية وهو حرها كقوله : (وأنت لا تعلم فيها ولا تضحى) أى بحر الشمس ، وقد أقسم تعالى بالضحى وحده في قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى) .

وقوله : (والقمر إذا تلاها) فهو كذلك القمر وحده آية ، وكذلك تلوه للشمس ونظام مسيره بهذه الدقة ، وهذا النظام فلا يسبقها

ولا تفوته : (لا الشمس ينهى أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار
وكل في فلك يسبحون) .

وفي قوله تعالى : (إذا تلاها) أى تلا الشمس ، دلالة على سير
الجميع ، وأنها سابقة وهو تاليها .

ف قيل : تاليها عند أول الشهر تقرب ، وبظهر من مكان
غروبها .

وقد قال بعض أهل الحياة : تاليها فى منزلة الحجم ، أى كبرى
وهو كبير بعدها فى الحجم ، وفيه نظر .

ولا يخفى ما فى القمر من فوائد للخلقة ، من تخفيف ظلمة الليل ،
وكذلك بعض الخصائص على الزرع ، وأهم خصائصه بيان الشهور
بمقسيم السنة ومعرفة العبادات من صوم ، وحج ، وزكاة ، وعده
النساء ، وكفارات بصوم ، وحلول الديون ، وشروط المعاملات ،
وكل ماله صلة بالحساب فى عبادة أو معاملة .

وقد جاء القسم بالقمر فى المدثر فى قوله : (كلا والقمر والليل
إذا أدبر) الآية .

وقوله : (والقمر إذا انسق) مما يدل على عظم آيته ودقيق
دلالاته .

وقوله : (والنهار إذا جلاها) والنهار هو أثر من آثار ضوء

الشمس .

وجلاها . قيل : الضير فيه راجع للشمس كما في الذي قبله ،
ولكن اختار ابن كثير أن يكون راجعاً للأرض ، أي كشفها وأوضح
كل ما فيها ليقيس طلب الماشي والسعي ، كقوله : (هو الذي جعل لكم
الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً) وقوله : (وهو الذي جعل لكم الليل
لباساً والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً)

وقد أقسم تعالى بالنهار إذا تجلى : أي ظهر ووضح بدون ضمير
إلى غيره في قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) أي
في مقابلة غشاوة الليل يكون بتجلي النهار .

وقد بين تعالى عظم آية النهار وعظم آية الليل ، وأنه لا يقدر
على الإيمان بهما إلا الله ، كما في قوله : (قل أرأيتم إن جعل الله
عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء
أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى
يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا
تهتدون)

وقوله : (والليل إذا يغشاها) قالوا : يغشى الشمس فينحجب

ضياؤها ، والكلام على الليل ، كالكلام على النهار ، من حيث الآية . والدلالة على قدرته تعالى .

وتقدمت النصوص الكافية وسيأتى الإقسام بالليل في قوله : (والليل إذا يغشى) أى يغشى السكون كله ، كما في قوله : (والليل وما وسق) أى جمع واشتمل بظلامه .

والضمير في يغشاها : راجع إلى الشمس ، وعليه ، قيل : إن الإقسام في هذه الأربعة راجع كله إلى الشمس في حالات مختلفة ، في ضحاها ثم تجليها ، ثم تلو القمر لها ، ثم يغشيان الليل إياها ، وهنا سؤال : كيف يغشى الليل الشمس ، مع أن الليل وهو الظلمة نتيجة لغروب الشمس عن الجهة التي فيها الليل ؟

قيل : إن الليل يغطي ضوء الشمس ، فتتكون الظلمة ، والواقع خلاف ذلك : وهو أن الشمس ظاهرة وضوؤها منتشر ، ولكن في قسم الأرض المقابل للظلمة الموجودة ، كما أن الظلمة تكون في القسم المقابل للنهار ، وهكذا .

ولذا قال ابن كثير : إن الضمير في يغشاها وجلاها راجع إلى الأرض ، إلا أن فيه مغايرة في مرجع الضمير ، والله تعالى أعلم .

وقوله : (والسماء وما بناها) قيل : ما ، بمعنى الذى ، وجيء بها بدلا عن من ، التى لأولى العلم ، لإشعارها معنى الوصفية ، أى والسماء والقادر الذى بناها ، وكذلك ما بعدها فى الأرض ، وما طحاها ونفس ، والحكيم العالمين الذى سواها ، وما مشترك بين العالم وغيره ، كقوله : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، ومثله : (فأنكحوا ما طاب لكم من النساء) .

وتقدم مرارا أحوال السماء فى بنائها ورفعها ، وجعلها سبعا طباقا ، وقد بين فى تلك النصوص كيفية بنائها ، وأنه سبحانه وتعالى بناها بقوة ، كما فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) أى بقوة ، وقوله تعالى : (والأرض وما طحاها) مثل دحاها

وقالوا : إبدال الدال طاء مشهور ، وطحا تأنى بمعنى خالق ، وبمعنى ذهب فى كل شيء ، فمن الأول :

وما تدرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

ومن الثانى قول علقمة :

طحابك قلب فى الحسان طروب يعيد الشباب عصر حان مشيب

ولا مناقاة فى ذلك بأنه تعالى خلقها ومدّها ، وذهب بأطرافها

كل مذهب ، أى فى مدّها .

تنبيه

قالوا : ذكر السماء وما بناها ، للدلالة على حدوثها ، وبالتالى على حدوث الشمس والقمر ، وأن تديرهما الله .

وقوله : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) قالوا : النفس تحمل كامل خلقه الإنسان بجسمه وروحه وقواه الإنسانية ، من تفكير وسلوك .. إلخ .

وقيل : النفس هنا بمعنى القوى المفكرة المدركة من — اط الرغبة والاختيار ، وعليه فذكر النفس بالمعنى الأول ، تكون تسويتها فى استواء خلقها وتركيب أعضائها ، وهى غاية فى الدلالة على القدرة والكمال والعلم ، كما فى قوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقال : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أى من أعضاء وأجزاء وتركيب وعدة أجهزة تبهر العقول فى السمع ، وفى البصر ، وفى الشم ، وفى الذوق ، وفى الحس ، ومن داخل الجسم ما هو أعظم ، فحق أن يقسم بها .

وما سواها : أى بالقدرة الباهرة ، والعلم الشامل . وذكرها بالمعنى الثانى ، فإنه فى نظرى أعظم من المعنى الأول ، وذلك أن القوى

المدرسة والمفكرة والمقدرة للأمور التي لها الاختيار ، ومنها
القبول والرفض والرضى والسخط والأخذ والمنع ، فإنها عالم
مستقل .

وإنها كما قلنا أعظم مما تقدم ، لأن الجانب الخلقى قال تعالى
فيه : (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) ولكن في
هذا الجانب قال : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال
فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً
جهولاً) .

ومعلوم أن بعض أفراد الإنسان حملها بصدق وأداها بوفاء ،
ونال رضى الله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه .

فهذه النفس في تسويتها لتلقى معاني الخير والشر ، واستقبال
الإلهام الإلهي الفجور ، والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك
المجادات التي لا تبتدى ولا تميد ، والتي لا تملك سلباً ولا إيجاباً .

وهنا مثال بسيط فيما استحدثت من آلات حفظ وحساب ، كالآلة
الحاسبة والمقال الإلكتروني ، فإنها لا تخطيء كما يقولون ، وقد بهرت
المقول في صفتها ، ولكن بمنظرة بسيطة نجدتها أمام النفس الإنسانية
كقطرة من بحر .

فَنَقُولُ : إِنَّهَا أَوَّلًا مِنْ صَنَعِ هَذِهِ النَّفْسِ ذَاتِ الْإِدْرَاكِ الْغَايِ وَالْإِسْتِنَاجِ الْبَاهِرِ .

ثَانِيًا : هِيَ لَا تَخْطِئُ ، لِأَنَّهَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تَخْطِئَ ، لِأَنَّ الْخَطَأَ نَاشِئٌ عَنْ اجْتِهَادٍ فِكْرِي ، وَهِيَ لَا اجْتِهَادَ لَهَا ، إِنَّمَا تُشِيرُ وَفْقَ مَا رَسَمَ لَهَا كَالْمَادَةِ الْمُسَجَّلَةِ فِي شَرِيطٍ ، فَإِنَّ الْمُسَجَّلَ مَعَ دَقَّةِ حِفْظِهِ لَهَا فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ وَلَا يَنْقُصَ حَرْفًا وَاحِدًا .

أَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ يَغْيِرُ وَيَبْدِلُ ، وَعِنْدَمَا يَبْدِلُ كَلِمَةً مَكَانَ كَلِمَةٍ ، فَلَقُدْرَتِهِ عَلَى إِيجَادِ الْكَلِمَةِ الْآخَرَى ، أَوْ لاختياره ترك الكلمة الأولى .

وَهَكَذَا هُنَا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُنَا خَلَقَ تِلْكَ النَّفْسَ أَوَّلًا ، ثُمَّ سَوَّاهَا عَلَى حَالَةٍ تَقْبِلُ تَلْقَى الْإِلْهَامَ بِقِسْمِيهِ : الذُّجُورَ وَالتَّقْوَى ، ثُمَّ تَسْلُكُ أَحَدَ الطَّرِيقَيْنِ ، فَكَأَنَّ مَجْئِءَ الْقِسْمِ بِهَا بَعْدَ تِلْكَ الْمُسَمِّيَّاتِ دَلَالَةٌ عَلَى عَظَمِ ذَاتِهَا وَقُوَّةِ دَلَالَتِهَا عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِهَا ، وَمَا سَوَّاهَا مُسْتَعِدَّةٌ قَابِلَةٌ لَتَلْقَى إِلْهَامَ اللَّهِ إِيَّاهَا .

تَنْبِيْهِ

وَفِي مَجِيئِهَا بَعْدَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ؛ مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ ،

وسماء وأرض ، لفت إلى وجوب التأمل في تلك المخلوقات ، يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها والاستدلال على تغير الأزمان ، وحركة الأفلاك ، وإحداث السماء بالبناء أنه لا بد لهذا العالم من صانع ، ولا بد للمحدث المتجدد من فناء وعدم .

كما عرض إبراهيم عليه السلام على النمرود نماذج الاستدلال على الربوبية والألوهية ، فأشار إلى الشمس أولاً ، ثم إلى القمر ، ثم انتقل به إلى الله سبحانه .

وقوله : (فألمها فجورها وتقواها) إن كان ألهمها بمعنى هداها وبين لها ، فهو كما في قوله : (وهديناهم النجدين) وقوله : (إنا هديناه السبيل) ، وهذا على الهداية العامة ، التي بمعنى الدلالة والبيان .

وإن كان معنى التيسير والإلزام ، ففيه إشكال القدر في الخير الاختيار .

وقد بحث هذا المعنى الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب بحثاً وافياً .

قوله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

هذا هو جواب القسم فيما تقدم ، فالواو قد حذفت منه اللام لطول ما بين المقسم به والمقسم عليه .

وقد نوه عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) من سورة ص ، وأنهم استدلوا لهذه الآية عليه .

والأصل : لقد أفلح ، فحذفت اللام أطول الفصل ، وزكاه بمعنى طهرها ، وأول ما يطهرها منه دنس الشرك ورجسه ، كما قال تعالى : (إنما المشركون نجس) وتطهيرها منه بالإيمان ثم من المعاصي بالتقوى ، كما في قوله تعالى : فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) ثم بعمل الطاعات (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى)

واختلف في مرجع الضمير في زكاه ودساها ، وهو يرجع إلى اختلافهم في (فآلهمها فجورها وتقواها) فهل يعود على الله كما في (ونفس وما سواها) أم يعود على العبد .

ويمكن أن يستدل لكل قول ببعض النصوص . فما يستدل به للقول الأول قوله تعالى : (بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا) وقوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول عند هذه الآية : « اللهم أنت نفسى تقواها وزكها ، أنت خير من زكها ، وأنت وليها ومولاها » .

ومما استدل به للقول الثانى فكوله : (قد أفلح من تزكى

وذكر اسم ربه صلى) ، وقوله : (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه
 وإلى الله المصير) وقوله : (فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى
 ربك فتخشى) . وقوله : (وما يدريك لعله يزكى) ، وكلها كما ترى
 محتملة ، والإشكال فيها كالإشكال فيما قبلها .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن الجمع بين تلك النصوص
 كالجمع فى التى قبلها ، وأن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل فى
 طاعة وترك لمعصية ، فإنه بفضل من الله ، كما فى قوله تعالى المصريح
 بذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من
 أحد أبدا) .

وكل النصوص التى فيها عود الضمير أو إسناد التزكية إلى
 العبد ، فإنها بفضل من الله ورحمة ، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق
 للإيمان ، فهو الذى يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح . وترك
 المعاصى ، كما فى قولك « لا حول ولا قوة إلا بالله » وقوله : (فلا تزكوا
 أنفسكم) ، وقوله : (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) إنما هو
 بمعنى المدح والثناء ، كما فى قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل
 لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) بل إن فى قوله تعالى : (بل الله
 يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا) الجمع بين الأمرين ، القدرى

والشرعى ، بل الله يزكى من يشاء بفضله ، ولا تظلمون فتيلا بعدله . والله
والله تعالى أعلم .

بقوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ
لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ .

ثمود : اسم للقبيلة أسند إليها التكذيب ، أى بنى الله صالح ،
وأشقاها هو عاقر الناقة أسند الانبعاث له وحده بين ما جاء بعده ،
(فكذبوه فمقروها) فأسند العقر لهم .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الجمع بين ذلك فى
سورة الزخرف ، ومضمونه أنهم متواطئون معه كفا فى قوله : (فنادوا
صاحبهم فمعاطى فمقر) فكانوا شركاء له فى عقرها ، كما قال الشاعر :
والسامع الذم شريك لقائه ومطعم المأكول شريك للأكل

وفى قصة أبى طلحة فى صيد الحمار الوحشى ، سألهم النبى صلى
الله عليه وسلم وهم محرمون للعمرة « هل دله عليه منكم أحد ؟
قالوا : لا ، قال : هل عاوناه عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ،
قال : فاكلوا إذا » ، لأن مفهومه : لو عاونوا أو دلوا لكانوا
شركاء فى صيده ، فيحرم عليهم لقوله تعالى : (ولا تقتلوا الصيد

وأتم حرم) وبعدم اشتراكهم حل لهم ، فلو عاونوا أو شاركوا
لحرم عليهم ، وهنا لما كانوا راضين ونادوه وتعاطى سـواء
عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فمقرها وحده ، كان هذا باسم
الجميع ، فكانت المقوبة باسم الجميع ، ويؤخذ من هذا قتل
الجماعة بالواحد ، وعقوبة الربيئة مع الجاني ، والله
تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَلَدِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ .

يقسم الله تعالى بالليل والنهار وأثرهما على الكون ، على أنهما
يتان عظيمتان .

وتقدم الكلام عليهما في السورة قبلها عند قوله : (والنهار
إذا جلاها والليل إذا يغشاها) .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه الكلام على هاتين
الآيتين ، عند قوله تعالى : (وجعل الليل والنهار آيتين) في سورة
بنى إسرائيل ، وذكر كل النصوص في هذا المعنى . وأثر الليل
والنهار في حياة الناس ، ومعرفة الحساب ونحوه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بحث هذه المسألة ، وإيراد
كل النصوص في عدة مواضع ، أشار إليها كلها في سورة النجم عند
قوله تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى)
وقد قرئت بعدة قراءات منها (والذي خلق الذكر والأنثى) ، ومنها
(والذكر والأنثى) .

وذكرها ابن كثير مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخارى ومسلم ، وعلى القراءة المشهورة .

(وما خلق الذكر والأنثى) ، اختلف في لفظة « ما » قليل : إنها مصدرية ، أى وخلق الذكر والأنثى .

وقيل : بمعنى من ، أى والذى خلق الذكر والأنثى . فلى الأول يكون القسم بصفة من صفات الله وهى صفة الخلق ، ويكون خص الذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله وقوة قدرته سبحانه على ما يأتى .

وعلى قراءة : والذكر والأنثى . يكون القسم بالخلق كالليل والنهار ، لما فى الخلق من قدرة الخالق أيضاً ، وعلى أنها بمعنى الذى يكون القسم بالخالق سبحانه ، وتكون ما هنا مثل ما فى قوله : (والسماء وما بناها) وغاية ما فيه استعمالها وهى فى الأصل لغير أولى العلم ، إلا أنها لوحظ فيها معنى الصفة ، وهى صفة الخلق أو على ما تستعمله العرب عند القرينة ، كقوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم) وقوله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) لما لوحظ فيه معنى الصفة وهو الاستمتاع ، ساغ استعمال ما بدلا عن .

وفى اختصاص خلق الذكر والأنثى فى هذا المقام لفت نظر إلى

هذه الصفة ، لما فيها من إعجاز البشر عنها ، كما في الليل والنهار من الإعجاز للبشر من أن يقدرُوا على شيء في خصوصه ، كما قدمنا في السورة قبلها .

وذلك : أن أصل الذكر والتأنيث أمر فوق إدراك وقوى البشر ، وهي كآلاتي أولا في الحيوانات الثديية ، وهي ذوات الرحم تحمل وتلد ، فإنها تنتج عن طريق اتصال الذكور بالإناث .

وتذكر الجنين أو تأنيثه ليس لأبويه دخل فيه ، إنه من نطفة أمشاج ، أي أخلاط من ماء الأب والأم ، وجعل هذا ذكراً وذاك أنثى ، فهو هبة من الله كما في قوله : (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويمجمل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير) .

وقد ثبت علمياً أن سبب الذكر والتأنيث من جانب الرجل ، أي أن ماء المرأة صالح لهذا وذاك ، وماء الرجل هو الذي به يكون التمييز لانقسام يقع فيه ، فالمرأة لا تعدو أن تكون حرتاً ، والرجل هو الزارع ، ونوع الزرع يكون عن طريقه ، كما أشارت الآية الكريمة (نساؤكم حرث لكم) ، والحرث لا يتصرف في الزرع ، وإنما يتصرف عن طريق الحارث .

ويتم ذلك عن طريق مبدء معلوم علمياً ، وهو أن خلية التلقيح

في الأنثى دائماً وأبداً مكونة من ثمانية وأربعين جزءاً ، وهي دائماً وأبداً تنقسم إلى قسمين متساويين أربعة وعشرين ، فيلتحم قسم منها مع قسم خلية الذكر ، وخلية الذكر سبعة وأربعون ، وإنما أبداً تنقسم أيضاً عند التلقيح إلى قسمين ، ولكن أحدهما أربعة وعشرون ، والآخر ثلاثة وعشرون ، فإذا أراد الله تذكير الحمل سبق القسم الذى من ثلاثة وعشرين . فيندمج مع قسم خلية الأنثى ، وهو أربعة وعشرون ، فيكون مجموعهما سبعة وأربعين ، فيكون الذكر بإذن الله .

وإذا أراد الله تأنيث الحمل سبق القسم الذى هو أربعة وعشرون من الرجل ، فيندمج مع قسم خلية المرأة أربعة وعشرين ، فيكون مجموعهما ثمانية وأربعون ، فتكون الأنثى بإذن الله ، وهكذا في جميع الحيوانات .

أما النباتات فإن بعض الأشجار تتميز فيه الذكور من الإناث ، كالنخل والتوت مثلاً ، وبقية الأشجار تكون الشجرة الواحدة تحمل زهرة الذكورة وزهرة الأنوثة ، فتلقح الرياح بعضها من بعض .

وقد حدثني عدة أشخاص عن غريبتين في ذلك .

إحداها : أن نخلة موجودة حتى الآن في بعض السنين فخلا

يؤخذ منه ليؤبر النخيل ، وفي بعض السنين نخلة تطالع وتثمر .

وحدثني آخر في نفس المجلس : من أنه توجد عندهم شجرة نخل يكون أحد شقيها نخلا يؤخذ منه الطلع يلقح به النخل ، وشقيها الآخر نخلة يلقح من الشق الآخر لمجاورته .

كما حدثني ثالث : ان والده قطع بعض محل النخل لكثرتة في النخيل ، وبعد قطعه نبت في أصله ومن جذعه وجذوره نخلة تثمر . وكل ذلك على خلاف العادة ، ولكنه دال على قدرة الله تعالى ، وأنه خالق الذكر والأنثى .

أما عمل هذا الجهاز في الحيوانات ، بل وفي الحشرات الدقيقة ، وتكاثرها ، فهو فوق الحصر والحد .

وقد ذكرنا في عالم الحشرات ، ما يلقح نفسه بنفسه ، باحتكاك بعض فخذه ببعض ، وكل ذلك مما لا يعلمه ولا يقدر على إيجاده إلا الله سبحانه وتعالى ، مما لو تأمله العاقل لوجد فيه كما أسلفنا القدرة الباهرة ، أعظم مما في الليل إذا يغشى وما في النهار إذا تجلى ، ولا سيما إذا صفر الكائن كالبموضة فما دونها مما لا يكاد يرى بالعين ، ومع ذلك فإن فيه الذكورة والأنوثة . سبحانك اللهم ما أعظم شأنك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

تقدم في السورة الأولى قوله تعالى : (قد أفلح من زكاهما
وقد خاب من دساها) وكلاهما بالسمي إليه والعمل من أجله ، وهذا
يقول : إن سميكم منها كان لشيء ، أي متباعد بعض عن بعض .

والشتات : التباعد والافتراق ، وشتى : جمع شتيت . كمرض
ومريض ، وقتل وقتيل ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

قد يجمع الله الشيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وهذا جواب القسم ، وفي القسم ما يشمر بالارتباط به ، كبعد
ما بين الليل والنهار ، وما بين الذكر والأنثى ، فهما مختلفان تماماً ،
وهكذا هما مفترقان في النتائج والوسائل ، كبعد ما بين فلاح من زكاهما ،
وخيبة من دساها المتقدم في السورة قبلها .

ثم فصل هذا الشتات في التفصيل الآتي (فأما من أعطى واتقى
وصدق بالحسنى فسنيسره لیسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب
بالحسنى فسنيسره للمسرى) .

وما أعمد ما بين العطاء والبخل والتصديق والتكذيب واليسر
والمسرى ، وقد أطلق أعطى ليعم كل عطاء من ماله وجهه وجهه
حتى الكلمة الطيبة ، بل حتى طلاقة الوجه ، كما في الحديث : ولو أن
أخاك بوجهه طلق .

والحسن : قيل المجازاة على الأعمال .

وقيل : للخلف على الإنفاق .

وقيل : لا إله إلا الله .

وقيل : الجنة .

والذي يشهد له القرآن هو الأخير لقوله تعالى : (الذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقالوا : الحسنى هى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ، وهذا المعنى يشمل كل المعاني لأنها أحسن خلف لكل ما ينفق العبد ، وخير وأحسن مجازاة على أى عمل مهما كان ، ولا يتوصل إليها إلا بلا إله إلا الله .

وقوله : (فسنيسه لليسرى) وقوله : (فسنيسه للعسرى) بعد ذكر أعطى واتقى فى الأولى . وبخل واستغنى فى الثانية .

قيل : هو دلالة على أن فعل الطاعة ييسر إلى طاعة أخرى ، وفعل للمعصية يدفع إلى معصية أخرى .

قال ابن كثير : مثل قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) .

ثم قال : والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، دالة على أن الله عز وجل

يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة . وذكر عن أبي بكر عند أحمد ، وعن عليّ عند البخاري ، وعبد الله بن عمر عند أحمد ، وعدد كثير بروايات متعددة ، أشملها وأصحها حديث عليّ عند البخاري قال عليّ : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيع الفرقد في جنازة . فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره للعسرى - إلى قوله - للعسرى) » فهي من الآيات التي لها تعلق ببحث القدر .

وتقدم مراراً بحث هذه المسألة . والعلم عند الله تعالى .

تنبیه

قال أبو حيان : جاء قوله (فسنيسره للعسرى) على سبيل المقابلة ، لأن العسرى لا تيسر فيها . اهـ .

وهذا من حيث الأسلوب ممكن ، ولكن لا يبعد أن يكون

معنى التيسير موجوداً بالفعل ، إذ للشاهد أن من خذلهم الله - عياداً بالله - يوجد منهم إقبال وقبول وارتياح ، لما يكون أثقل وأشق ما يكون على غيرهم ، ويرون ما هم فيه سهلاً ميسراً لا غضاضة عليهم فيه ، بل وقد يستمرؤون الحرام ويستطعمونه .

كما ذكر لي شخص : أن لصاً قد كف عن السرقة حياءً من الناس ، وبعد أن كثر ماله وكبر سنه أعطى رجلاً دراهم ليسرق له من زرع جاره ، فذهب للرجل ودار من جهة أخرى وأتاه بشمرة من زرعه هو ، أي زرع اللص نفسه ، فلما أكلها تغلها ، وقال : ليس فيه طعمه المسروق ، فمن أين أتيت به ؟ قال : أتيت به من زرعك ، ألا تستحي من نفسك ، تسرق وعندك ما يفنيك . فحجل وكف .

وقد جاء عن عمر نقيض ذلك تماماً ، وهو أنه لما طلب من غلامه أن يسقيه مما في شكوته من لبنه ، فلما طعمه استنكر طعمه ، فقال للغلام : من أين هذا ؟ فقال : مررت على إبل الصدقة فخلبوا لي منها ، وها هو ذا ، فوضع عمر إصبعه في فيه ، واستقاء ما شرب .

إنها حساسية الحرام استنكرها عمر ، وأحسن بالحرام فاستقاءه ، وهذا وذاك بتيسير من الله تعالى ، وصدق صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ونحن نشاهد في الأمور العادية أصحاب المهن والحرف كل واحد راضٍ بعمله وميسر له ، وهكذا نظام الكون كله ، والذي يهم هنا أن كلا من الطاعة أو المعصية له أثره على ما بعده .

تفصيله

قيل : إن هذه المقارنة بين : من أعطى واتفى وصدق بالحسنى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، واقعة بين أبي بكر رضي الله عنه ، وبين غيره من المشركين .

ومعلوم أن العبرة بصوم اللفظ فهي عامة في كل من أعطى واتفى وصدق ، أو بخل واستغنى وكذب . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ .

رد على من بخل واستغنى ، وما هنا يمكن أن تكون نافية أي لا يغني عنه شيء ، كما في قوله : (ما أغنى عني ماليه) ، وقوله : (يوم لا ينفع مال ولا بنون) .

ويمكن أن تكون استفهامية وقوله (إذا تردى) أي في النار عياداً بالله ، أو تردى في أعماله ، فمآله إلى النار بسبب بخله في الدنيا ، كما يشهد له قوله تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) لآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلَّمْنَا لِلْهُدَىٰ ﴾

فيه للعلماء أوجه ، منها : إن طريق الهدى دال وموصل علينا بخلاف الضلال .

ومنها : التزام الله للخلق عليه لهم الهدى ، وهذا الوجه محل إشكال ، إذ أن بعض الخلق لم يهدم الله .

وقد بحث هذا الأمر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إلهام الاضطراب ، من أن الجواب عليه من حيث إن الهدى عام وخاص . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ .

أى بكمال التصرف والأمر ، وقد بينه تعالى في سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) أى للتصرف في الدنيا (مالك يوم الدين) أى للتصرف في الآخرة وحده (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) . وهذا كدليل على تيسيره لعباده إلى ما يشاء في الدنيا ، ومجازاتهم بما شاء في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ .

أى تلتظى ، واللتظى : اللهب الخالص ، وفي وصف النار هنا بتلظى

مع أن لها صفات عديدة منها : السعير ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية ، وغير ذلك .

وذكر هنا صنفاً خاصاً ، وهو من كذب وتولى ، كما تقدم في موضع آخر في وصفها أيضاً بلطى في قوله تعالى : (إنها لظى نزاعة للشوى) ، ثم بين أهلها بقوله : (تدعوا من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى) .

وهو كما هو هنا (فأذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى . الله كذب وتولى) ، وهو المعنى في قوله قبله : (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل ، كل منزلة تختص بصنف من الناس ، فاختصت لظى بهذا الصنف ، واختصت سقر بهم لم يكن من المصلين ، وكانوا يخوضون مع الخائضين ، ونحو ذلك . ويشهد له قوله : (إن المنافقين في الهرك الأسفل من النار) كما أن الجنة منازل ودرجات ، حسب أعمال المؤمنين . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . ﴾

هذه الآية من مواضع الإيهام ، ولم يتعرض لها في دفع إيهام الاضطراب ، وهو أنها تنص على سبيل الحصر ، أنه لا يصل النار إلا

الأشقى مع مجيء قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حقاً مفضياً) مما يدل على ورود الجميع .

والجواب من وجهين : الأول كما قال الزمخشري : إن الآية بين حالاً عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين .

ف قيل : الأشقى وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له ، وقال الأتقى ، وجعل مختصاً بالجنة ، وكأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل : عنهما ما أبو جهل أو أمية بن خلف المشركين ، وأبو بكر المصدق رضى الله عنه ، حكاه أبو حيان عن الزمخشري .

والوجه الثانى : هو أن الصلى الدخول والشى ، وأن يكون وقود النار على سبيل الخلود ، والورود والدخول المؤقت بزمان غير الصلى لقوله فى آية الورود ، التى هى قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) ، (ثم ننجد الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) ويبقى الإشكال ، بين الذين اتقوا وبين الأتقى ويحاج عنه : بأن التقى يرد ، والأتقى لا يشعر بورودها ، كمن يمر عليها كالبرق الخاطف . والله تعالى أعلم .

ولولا التأكيد فى آية الورود بالهجر بحرف من وإلا وقوله : (كان على ربك حقاً مفضياً) لولا هذه المذكورات لكان يمكن أن

يقال : إنها مخصوصة بهذه الآية ، وأن الأتقى لا يردّها ، إلا أن وجود تلك المذكورات يمنع من القول بالتخصيص . والله تعالى أعلم .

وفيه تقرير مصير القسمين المتقدمين ، من أعطى واتقى وصدق ، ومن بخل واستغنى وكذب ، وأن صليها بسبب التكذيب والتولى والإعراض وهو عين الشقاء ، ويتجنبها الأتقى الذي صدق ، وكان نتيجة تصديقه أنه أعطى ماله يتزكى ، وجعل إتيان المال نتيجة التصديق أمر بالغ الأهمية .

وذلك أن العبد لا يخرج من ماله شيئاً إلا بعوض ، لأن الدنيا كلها معاوضة حتى الحيوان تعطيه علفاً يعطيك ما يقابله من خدمة أو حليب . إلخ .

فالمؤمن المصدق بالحسنى يعطى وينتظر الجزاء الأوفى الحسنة بعشر أمثالها ، لأنه مؤمن أنه متعامل مع الله ، كما في قوله : (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) .

أما المكذب : فلم يؤمن بالجزاء آجلاً ، فلا يخرج شيئاً لأنه لم يجد عوضاً معجلاً ، ولا ينتظر ثواباً مؤجلاً ، ولذا كان الذين يهوءوا الدار والإيمان ، يحبون من هاجر إليهم ويبواسونهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خاصة ، إيماناً بما عهد الله ، بينما كان المنافقون لا ينفقون إلا كره
ولا يخرجون إلا للردى ، الذى لم يكونوا ليأخذوه من غيرهم إلا
ليضمضوا فيه ، وكل ذلك سببه التصديق بالحسنى أو التكذيب بها

ولذا جاء فى الحديث الصحيح « والصدقة برهان » أى على صحة
الإيمان بما وعد الله للتقين ، من الخلف المضاعفة الحسنة :

وقوله : (يؤتى ماله يتزكى) أى يتطهر ويستزيد ، إذ التزكية
تأتى بمعنى النماء ، كقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
وتزكيهم بها) وهذا رد على قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى) ،
وعلى عموم : (فأما من أعطى واتقى) ، ولا يقال : إنها زكاة المال ،
لأن الزكاة لم تشرع إلا بالمدينة ، والسورة مكية عند الجمهور ، وقيل :
مدنية . والصحيح الأول .

تنبيه

قد قيل أيضاً : إن المراد بقوله : (وسيجنبها الأتقى) الذى
يؤتى ماله يتزكى) إلى آخر السورة . نازل فى أبى بكر رضى الله عنه ،
لما كان يعتق ضعة المسلمين ، ومن يعذبون على إسلامهم فى مكة ،
ف قيل له : لو اشتريت الأقوياء يساعدونك ويدافعون عنك . فأنزل الله
الآيات إلى قوله : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء

وجه ربه الأعلى) وابتغاء وجه ربه هو بعينه ، وصدق بالحسن أى لوجه الله يرجو الثواب من الله .

وكما تقدم ، فإن العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وإن صورة السبب قطعية الدخول . فهذه بشرى عظيمة للصديق رضى الله عنه ، ولسوف يرضى فى غاية من التأكيد من الله تعالى ، على وعده بإياه صلى الله عليه وسلم وأرضاه .

وذكر ابن كثير : أن فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعت خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يدعى منها ضرورة ، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم » ٥١ .

وإننا لندرجو الله كذلك فضلاً منه تعالى .

تنبيه

فى قوله تعالى : (ولسوف يرضى) ، وذكر ابن كثير إجماع المفسرين أنها فى أبى بكر رضى الله عنه أعلى منازل البشرى ، لأن هذا الوصف بعينه ، قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً فى السورة بعدها ، سورة الضحى (والآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك

ربك فترضى) ، فهو وعد مشترك للصديق والرسول صلى الله عليه وسلم ،
إلا أنه في حق الرسول صلى الله عليه وسلم أسند العطاء فيه لله تعالى
بصفة الربوبية (ولسوف يعطيك ربك) كما ذكر فيه العطاء ، مما
يدل على غيره صلى الله عليه وسلم ، وهو معلوم بالضرورة من أنه
صلى الله عليه وسلم له عطاءات لا يشاركه فيها أحد ، على ما سيأتى
إن شاء الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّكَ رَبُّكَ
وَمَا قَلَىٰ .

تقدم معنى الضحى في السورة المتقدمة .

وقيل : المراد به هنا النهار كله ، كما في قوله : (أفأمن أهل
القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن
يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلمعون) . وقوله : (والليل إذا سجي)
قيل : أقبل ، وقيل : شدة ظلامه ، وقيل : غطى ، وقيل :
سكن .

واختار الشيخ رحمه الله علينا وعليه في إملائه معنى : سكن

واختار ابن جرير أنه سكن بأهله ، وثبت بظلامه ، قال كما يقال
بحر ساج ، إذا كان ساكنا ، ومنه قول الأعشى :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبمرك ساج ما يوارى الدعامصا

وقول الراجز :

يا حبذا القمراء والليل الساج وطرق مثل ملاء الساج
وأنشدها القرطبي ، وذكر قول جرير :

ولقد رميتك يوم رحن بأعين ينظرون من خلال الستور سواج
أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للقسم عليه ، لأنها
طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون ، فإنه يقول له مؤانسا :
ما ودعك ربك وما قلى ، لا فى ليل ولا فى نهار ، على ما سيأتى
تفصيله إن شاء الله .

وقوله : (ما ودعك ربك) قرئ بالتشديد من توديع المفايق .
وقرئ : ما ودعك ، بالانخفيف من الودع ، أى من الترك ، كما قال
أبو الأسود :

ليت شعري عن خليل ما الذى نما له فى الحب حتى ودعه
أى تركه ، وقول الآخر :

وتم ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقفة السمر
أى تركوهم فرائس السيوف .

قال أبو حيان : والتوديع مبالغة فى الودع ، لأن من ودعك
مفارقا ، فقد بالغ فى تركك . اهـ .

والقراءة الأولى أشهر وأولى ، لأن استعمال ودع بمعنى ترك قليل .

قال القرطبي ، وقال المبرد : لا يكادون يتولون : ودع ولا وفر ، لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، وبديل على قول المبرد سقوط الواو في المضارع ، فتقول في مضارع : ودع يدع كيزن ويهب ويرث ، من وزن ووهب وورث ، وتقول في الأمر : دع وزن وهب ، أما ذر بمعنى اترك ، فلم يأت منه الماضي ، وجاء المضارع : يذر ، والأمر : ذرم . فترجعت قراءة الجمهور بالتشديد من ودعك من التوديع .

وقد ذكرنا هذا الترجيح ، لأن ودع بمعنى ترك فيها شدة وشبه جفوة وقطيعة ، وهذا لا يليق بمقام المصطفى صلى الله عليه وسلم عند ربه . أما الموادة والوداع ، فقد يكون مع المودة والصلة ، كما يكون بين المحبين عند الافتراق ، فهو وإن وادعه مجسمه فإنه لم يوادعه بحبه وعطفه ، والسؤال عنه وهو ما يتناسب مع قوله تعالى : (وما قل) ،

تنبيه

هما ما ودعك بصيغة الماضي ، وهو كذلك المستقبل ، بدليل الواقع

وبدليل (ولا الآخرة خير لك من الأولى) لأنها تدل على مواصلة
عناية الله به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيراً له من الأولى ،
فيكون ما بين ذلك كله في عناية ورعاية ربه .

وقد جاء في صلح الحديبية ، قال لعمر : أنا عبد الله ورسوله ،
أى تحت رحمته وفى رعايته .

وقوله : وما قل ، حذف كاف الخطاب لثبوتها فيما معها ، فدللت
عليها هكذا . قال المفسرون :

وقال بعضهم : تركت لرأس الآية ، والذي يظهر من لطيف
الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف ، أن الموداعة تشمر بالوفاء
والود ، فأبرزت فيها كاف الخطاب ، أى لم تقأت موادعتك وأنت
الحبيب ، والمصطفى المقرب .

أما قل : ففيها معنى البغض ، فلم يناسب إبرازها إماماناً في
إبعاد قصده صلى الله عليه وسلم بشيء من هذا المعنى ، كما تقول لعزير
هليك : لقد أكرمتك ، وما أهنت لقد قربتك ، وما أبعدت كراهية أن
تنطق باهانتها وكراهيتها ، أو تصرح بها في حقه ، والقل : يمد ويقصر
هو للبغض ، يمد إذا فتحت القاف ، ويقصر إذا كسرتها ، وهو واوى
وياءى ، ودكر القرطبي ، قال : أنشد ثعلب :

أيام أم الفمر لا تقلها ولو تشاء قبلت عيناها
وقال كثير عزة :

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت
فالأول قال : فقلها من الواوى ، والثانى قال : مقلية من الباء ،
ودما فى اللسان شواهد ،

وقد جاء فى السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويثبت دوام موالاته سبحانه
لحبيبه وعناينه به وحفظه له بما كان يكاؤه به عمه ، وقد قال عمه فى
ذلك :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

وذكر ابن هشام فى رعاية عمه له ، أنه كان إذا جنّ الليل وأرادوا
أن يناموا ، تركه مع أولاده ينامون ، حتى إذا أخذ كل مضجعه ، عمد
عمه إلى واحد من أبنائه ، فأقامه وأتى بمحمد صلى الله عليه وسلم ينام
موضعه ، وذهب بولده ينام مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا
كان هناك من يريد به سوءاً فرأى مكانه فى أول الليل ، ثم جاء من
يريده بسوء وقع السوء بابنه ، وسلم محمد صلى الله عليه وسلم ، كما فعل
الصديق رضى الله عنه عند الخروج إلى الهجرة فى طريقهما إلى الغار ،

فكان رضى الله عنه تارة يمشى أمامه صلى الله عليه وسلم ، وتارة يمشى ورائه ، فسأله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « أذكر الرصيد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون وراءك ، فقال : أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر ؟ قال : بلى ، فذاك أبى وأمى يا رسول الله ، ثم قال : إن أهلك أهلك وحدى ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة » : فذاك عمه فى جاهلية وليس على دينه صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

خير تأتى مصدراً كقوله : إن ترك خيراً أى مالا كثيراً ، وتأتى أفعل تفضيل محذوفة الهمزة ، وهى هنا أفعل تفضيل بدليل ذكر المقابل ، وذكر حرف من ، مما يدل على أنه سهجانه أعطاه فى الدنيا خيرات كثيرة ، ولكن ما يكون له فى الآخرة فهو خير وأفضل مما أعطاه فى الدنيا ، ويوم أن الآخرة خير له صلى الله عليه وسلم وحده من الأولى ، ولكن جاء النص على أنها خير للأبرار جميعاً ، وهو قوله تعالى : (وما عند الله خير للأبرار) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الخيرية للأبرار عند الله ، أى يوم القيامة بما أعد لهم ، كما فى قوله : (إن الأبرار لى

تصميم) ، وقوله : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها
كافورا) .

أما بيان الخيرية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيان الخير
في الدنيا أولا ، ثم بيان الأفضل منه في الآخرة .

أما في الدنيا المدلول عليه بأفضل التفضيل ، أى لدلالته على اشتراك
الأميرين في الوصف ، وزيادة أحدهما على الآخر ، فقد أشار إليه في
هذه السورة والتي بعدها ، ففي هذه السورة قوله تعالى : (ألم يجدك
يتيمًا فآوى) أى منذ ولادته ونشأته ، ولقد تعهد الله سبحانه من
صغره فصانه عن دنس الشرك ، وطهره وشق صدره ونقاه ، وكان رغم
يقمه سيد شباب قريش ، حيث قال هم عند خطبته خديجة لزواجه بها
فقال : « فتى لا يعادله فتى من قريش ، حليماً وعقلاً وخلقاً ، إلا رجح
عليه » .

وقوله : (ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى) .
على ما سيأتى بيانه كله ، فهى نعم يهددها تعالى عليه ، وهى من
أعظم خيرات الدنيا من صغره إلى شبابه وكبره ، ثم اصطفاؤه بالرسالة ،
ثم حفظه من الناس ، ثم نصره على الأعداء ، وإظهار دينه وإعلاء
كلمته .

ومن الناحية المعنوية ما جاء في السورة بعدها : (ألم نشرح لك
صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك
ذكرك) .

أما خيرية الآخرة على الأولى ، فعلى حد قوله : (وسوف
يمطيك ربك فترضى) وليس بعد الرضى مطلب ، وفي الجملة : فإن
الأولى دار عمل وتكليف وجهاد ، والآخرة دار جزاء وثواب
وإكرام ، فهي لا شك أفضل من الأولى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُمْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

جاء مؤكداً باللام وسوف ، وقال بعض العلماء : يمطيه في
الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة الله ، والنصر على الأعداء .

والجمهور : أنه في الآخرة ، وهذا وإن كان على سبيل الإجمال ،
إلا أنه فصل في بعض المواضع ، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى :
﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

وجاء في السنة بيان المقام المحمود وهو الذي يفيظه عليه الأولون
والآخرون ، كما في حديث الشفاعة المعظم حين يتغلى كل نبي ،

ويقول : « نفسى نفسى ، حتى يصلوا إلى النهى صلى الله عليه وسلم
فيقول : أنا لها أنا لها » إلخ .

ومنها : الحوض المورود ، وما حصت به أمته غراً محجلين ، يردون
عليه الحوض .

ومنها : الوسيلة ، وهى منزلة رفيعة عالية لا تنبى إلا لعبداً واحداً ،
كما فى الحديث : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم
صلوا علىّ وسلموا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبى إلا
لعبد واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

وإذا كانت لعبداً واحداً فمن يستقدم عليها ، وإذا رجا ربه أن تكون
له طلب من الأمة طلبها له ، فهو مما يؤكد أنها له ، وإلا لما
طلبها ولا ترجاها ، ولا أمر بطلبها له ، وهو بلا شك أحق بها
من جميع الخلق ، إذ الخلق أفضلهم الرسل ، وهو صلى الله عليه وسلم
مقدم عليهم فى الدنيا ، كما فى الإسراء تقدم عليهم فى الصلاة فى بيت
المقدس .

ومنها : الشفاعة فى دخول الجنة كما فى الحديث : « أنه صلى الله
عليه وسلم أول من تفتح له الجنة ، وأن رضوانا خازن الجنة يقول له :
أمرت ألا أفتح لأحد قبلك » .

ومنها : الشفاعة ، المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته في النار ، كما في الحديث : « لا أرضى وأحد من أمتي في النار » أسأل الله أن يرزقنا شفاعته ، ويوردنا حوضه . آمين .

وشفاعته الخاصة في الخاص في عمه أبي طالب ، فيخفف عنه بها ما كان فيه .

ومنها : شهادته على الرسل ، وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك ، وهذه بلا شك عطايا من الله العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

تنبيه

اللام في « وللآخرة » وفي « واسوف » للتأكيد وليست للقسم ، وهي في الأول دخلت على المبتدأ ، وفي الثانية المبتدأ محذوف تقديره ، لأنك سوف يعطيك ربك فترضى . قاله أبو حيان وأبو السمود .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ .

تقدم بيان معنى اليتيم عند قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) .

والرسول صلى الله عليه وسلم مات أبوه ، وهو حمل له ستة

أشهر ، وماتت أمه وهى عائدة من المدينة بالأبواء وعمره صلى الله عليه وسلم

وقد قيل : إن يعمه لأنه لا يكون لأجد حق عليه ، نقله أبو حيان .
والذى يظهر أن يعمه راجع إلى قوله (ماودعك ربك) أى
ليقولى الله تعالى أمره من صفرة ، وتقدم معنى إنباء الله له ، فكان
يعمه لإبراز فضله ، لأن ينمى الأمس أصبح سيد الفد ، وكافل
اليتمام .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ .

الضلال : يكون حساً ومعى ، فالأول : كمن تاه فى طريق يسلكه ،
والثانى : كمن ترك الحق فلم يتبمه .

فقال قوم : المراد هنا هو الأول ، كأن قد ضل فى شعب من
شعاب مكة ، أو فى طريقه إلى الشام . ونحو ذلك .

وقال آخرون : إنما هو عبارة عن عدم التعليم أولاً ثم منحه
من العلم مما لم يكن يعلم ، كقوله : (ما كنت تدرى ما الكتاب
ولا الإيمان ولكن جملناه نوراً نهدي به من نشاء من
عبادنا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بحث هذه المسألة فى
عدة مواضع : أولاً فى سورة يوسف عند قوله تعالى : (إن أبانا

لنى ضلال مبين) ، وساق شواهد الضلال لفة هناك .

وثانياً : فى سورة الكهف عند قوله تعالى : (الذين ضل سبيهم فى الحياة الدنيا) .

وثالثاً : فى سورة الشعراء عند قوله تعالى : (قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) .

وفى دفع لبيهم الاضطراب أيضاً : وهذا كله يبنى عن أى بحث آخر .

ومن الطريف ما فكره أبو حيان عند هذه الآية ، حيث قال : ولقد رأيت فى النوم ، أنى أفكر فى هذه الجملة ، فأقول على الفور : ووجدك : أى وجد رهطك ضالا فهده بك ، ثم أقول : على حذف مضاف ، نحو : واسأل القرية . ا هـ .

وقد أورد النيسابورى هذا وجهاً فى الآية ، وبهذه المناسبة أذكر منامين كنت رأيتهما ولم أرد ذكرهما حتى رأيت هذا لأبى حيان ، فاستأنست به لذكرهما ، وهما : الأول عندما وصلت إلى سورة ن عند قوله تعالى : (وإنا لك لملى خلق عظيم) ، ومن منهج الأضواء تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا وصف مجمل ، وحديث عائشة « كان خلقه القرآن » فأخذت فى التفكير ، كيف أفصل هذا المعنى من

القرآن ، وأبين حكمه وصفحه وصبره وكرمه وعطفه ورحمته ورأفته وجهاده
وعبادته ، وكل ذلك مما جعلنى أقف حائراً وأمكث عن الكتابة
عدة أيام ، فرأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في النوم ، كأننا
في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وكأنه ليس في نشاطه العادى ،
فسألته ماذا عندك اليوم ؟

فقال : عندى تفسير .

فقلت : أتدرس اليوم ؟ قال : لا ، فقلت : وما هذا الذى بيدك ؟
لدفتر فى يده ، فقال : مذكرة تفسير ، أى التى كان سيفسرها وهى
مخطوطة ، فقلت له : من أين فى القرآن ؟ فقال : من أول ن إلى
آخر القرآن ، فحرصت على أخذها لأكتب منها ، ولم أتجرأ على
طلبها صراحة ، ولكن قلت له : إذا كنت لم تدرس اليوم فأعطينيها
أبيضها وأجلها لك ، وآتيك بها غداً ، فأعطاها فانتبعت فرحا
بذلك وبدأت فى الكتابة .

والمرة الثانية فى سورة المطففين ، لما كتبت على معنى التطفيف ،
ثم فكرت فى القواعد الشديدة عليه مع يتأتى فيه من شيء طفيف ،
حتى فكرت فى أن له صلة بالربا ، إذا ما بيع جنس بجنسه ، فحصلت
مفارقة فى الكيل ووقع تفاضل ، ولكنى لم أجد من قال به ، فرأيت
فيما يرى النائم ، أنى مع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولكن
لم يتحدث معى فى شيء من التفسير .

وبعد أن راح عنى ، فإذا بشخص لا أعرفه يقول : وأنا أسمع دون
أن يوجه الحديث إلى إن فى التطفيف ربا ، إذا بيع الحديد بحديد ،
وكلمة أخرى فى معناها نسيها بعد أن انتبهت .

وقد ذكرت ذلك تأسيًا بأبى حيان ، لما أجد فيه من إيناس ،
والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يهدينا سواء السبيل ،
وعلى ما جاء فى الرؤيا من مبشرات : وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾

العائل : صاحب العيال ، وقيل : العائل الفقير ، على أنه من لازم
العيال الحاجة ، ولكن ليس بـ لازم ، ومقابلة عائلا بأغنى ، تدل على
أن معنى عائلا أى فقيراً ، ولذا قال الشاعر :

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل
وما تدرى وإن ذمرت سقباً لغيرك أم يكون لك الفصيل

وهذا مما يذكره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من تعداد النعم عليه ،
وأنه لم يودعه وما قلاه ، لقد كان فقيراً من المال فأغناه الله بماله
عمه .

وقد قال عمه فى خطبة نكاحه بخديجة : وإن كان فى المال قل
فما أحببت من الصداق ، فعلى ، ثم أغناه الله بمال خديجة ، حيث جعلت
مالها تحت يده .

قال النيسابورى ما نصه : يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت : مالك ؟ فقال : الزمان زمان قطع ، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك ، فأستحي منك ، وإن أنا لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشاً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنائير حتى وضعتها ، بلغت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامى ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله ، إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه .

فهذه القصة وإن لم يذكر سندها ، فليس بغريب على خديجة رضى الله عنها أن تفعل ذلك له صلى الله عليه وسلم ، وقد فعلت ما هو أعظم من ذلك ، حين دخلت معه الشعب فتركت ماله ، واختارت مشاركته صلى الله عليه وسلم لما هو فيه من ضيق العيش ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وأموالها طائلة في بيتها .

ثم كانت الهجرة وكانت مواساة الأنصار ، لقد قدم المدينة تاركاً ماله ومال خديجة ، حتى إن الصديق ليدفع ثمن المبرد لبناء المسجد ، وكان بعد ذلك فيء بنى النضير ، وكان يقضى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، لا يوقد في بيته صلى الله عليه وسلم نار ، إنما هما الأسودان : التمر والماء .

ثم جاءت غنائم حنين ، فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ورجع

بدون شيء ، وجاء مال البعيرين فأخذ العباس ما يطيق حمله ، وأخيراً توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة في آصع من شعير .

وقوله تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) يشير إلى هذا الموضع ، لأن أغنى تصير بالفعل ، وهو يدل على التجدد والحدوث ، فقد كان صلى الله عليه وسلم من حيث المال حالاً فحلاً ، والواقع أن غناه صلى الله عليه وسلم كان قبل كل شيء ، هو غنى النفس والاستغناء عن الناس ، ويكفي أنه صلى الله عليه وسلم أجود الناس .

وكان إذا لقيه جبريل ودارسه القرآن كالريح المرسلة ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة في الحالتين ، في حالى الفقر والغنى ، إن قلّ ماله صبر ، وإن كثر بذل وشكر .

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ومما يدل على عظم عطاء الله له مما فاق كل عطاء . قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) ثم قال : (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) .

وقد اختلفوا في المقارنة بين الفقير الصابر والغنى الشاكر ، ولكن الله تعالى قد جمع لرسوله صلى الله عليه وسلم كلا الأمرين ، يرسم القدوة المثلى في الحالتين .

تنبيه

في الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من الله لإسنادها
هنا لله تعالى .

ولكن في السياق لطيفة دقيقة ، وهي ممرض التقرير ، يأتي
بكاف الخطاب : ألم يمدك يتما ، ألم يمدك ضالا ، ألم يمدك عاثلا ،
لتأكيد التقرير ، لم يسند اليتيم ولا الإضلال ولا الفقر لله ، مع أن
كله من الله ، فهو الذي أوقع عليه اليتيم ، وهو سبحانه الذي منه
كلما وجدته عليه ، ذلك لما فيه من إيلاء له ، فما يسنده الله ظاهراً
ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب .

وفي تعداد النعم : فأوى ، فهدى ، فأغنى . أسند كله إلى ضمير
النعم ، ولم يبرز ضمير الخطاب .

قال المفسرون : لمراعاة رؤوس الآي والفواصل ، ولكن الذي
يظهر والله تعالى أعلم : أنه لما كان فيه امتنان ، وأنها نعم مادية لم
يبرز الضمير لثلاثي يثقل عليه المنة ، بينما أبرزه في : ألم نشرح لك صدرك ،
ووضمنا عنك وزرك ، ورفعنا لك ذكرك . لأنها نعم معنوية ، انفرد بها
صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ .
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

مجيء الفاء هنا مشعر ، إما بتفريع وهذا ضعيف ، وإما بإفصاح
عن تعدد ، وقد ذكر الجمل بتقدير ، مهما يكن من شيء .

وقد ساق تعالى هنا ثلاث مسائل : الأولى معاملة الأيتام فقال :
﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ، أى كما آواك الله فأواه ، وكما أكرمك
فأكرمه .

وقالوا : قهر اليتيم أخذ ماله وظلمه .

وقيل : قرىء بالكاف « تكهر » ، فقالوا : هو بمعنى القهر إلا
أنه أشد .

وقيل : هو بمعنى عبوسة الوجه ، والمعنى أعم ، كما قال صلى الله عليه
وسلم : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ومن المجز والكسل ،
ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدين وقهر الرجال » ، فالقهر أعم
من ذلك .

وبالغظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم ، والتي زادت
على العشرين موضعاً ، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها
تدور حول دفع المضار عنه ، وجلب المصالح له في ماله وفي نفسه ،

فهذه أربعة ، وفي الحالة الزوجية ، وهي الخامسة . أما دفع المضار عنه في ماله ، ففي قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) جاءت مرتين في سورة الأنعام والأخرى في سورة الإسراء ، وفي كل من السورتين ضمن الوصايا العشر المعروفة في سورة الأنعام ، بدأت بقوله تعالى : (قل تعالوا أتتبعكم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) .

وذكر قتل الوالد وقربان الفواحش وقتل النفس ثم مال اليتيم .
ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

وبلاحظ أن النهى منصب على مجرد الاقتراب من ماله إلا بالتي هي أحسن ، وقد بين تعالى التي هي أحسن بقوله : (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) .

وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجراً ، فله الأقل من أحد أمرين : إما نفقته في نفسه ، وإما أجرته على عمله ، أى إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال ، ونفقته يكفى لها خمسمائة أخذ نفقته فقط ، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال ، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط ، حفظاً لماله .

ثم بعد النهى عن اقتراب مال اليتيم ذلك ، ففسد تقطع بعض النفوس إلى فوارق بسيطة من باب التحيل أو نحوه ، من استبدال

شيء مكان شيء ، فيكون طريقاً لاستبدال طيب بخبيث ، فجاء قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) .

والحوب : أعظم الذنب ، ففيه النهي عن استبدال طيب ماله ، بخبيث مال الولي أو غيره حسداً له على ماله ، كما نهى عن خاط ماله مع مال غيره كوسيلة لأكله مع مال الغير ، وهذا منع للتحويل وسد للذريعة ، حفظاً لماله .

ثم يأتي الوعيد الشديد في صورة مفزعة في قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) .

وقد اتفق العلماء : أن الآية شملت في النهي عن أكل أموال اليتامى كل ما فيه إتلاف أو تقويت سواء كان بأكل حقيقة أو باختلاس أو بإحراق أو بإغراق ، وهو المعروف عند الأصوليين بالإلحاق بنفي الفارق ، إذ لا فرق في ضياع مال القيم عليه ، بين كونه بأكل أو بإحراق بنار أو بإغراق في ماء حتى الإهمال فيه ، فهو تقويت عليه وكل ذلك حفظاً لماله .

وأخيراً ، فإذا تم الحفاظ على ماله لم يقربه إلا بالتي هي أحسن ، ولم يبدله بغيره أقل منه ، ولم يخطئه بماله لياً كله عليه ، ولم يعتمد

عليه بأى إتلاف كان محفوظا له ، إلى أن يذهب يتمه ويثبت رشده ،
 فيأتى قوله تعالى : (وابتلوا اليقضى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم
 منه رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن
 يكبروا) .

ثم أحاط دفع المال إليه بموجبات الحفظ بقوله فى آخر الآية :
 (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى حتى لا تكون منكرة
 فيما بعد .

وفى الختام ينبه الله فيهم وازع مراقبة الله بقوله : (وكفى بالله
 حسيباً) ، وفيه إشعار بأن أمواله تدفع إليه بعد محاسبة دقيقة فيما
 له وعليه .

ومهما يكن من دقة فى الحساب ، فالله سيحاسب عنه ، وكفى
 بالله حسيباً ، وهذا كله فى حفظ ماله .

أما جلب المصالح ، فإننا نجد فيها أولاً جملة مع الوالدين ،
 والأقربين ، فى عدة مواطن ، منها قوله تعالى : (قل ما أنفقتم من
 خير فلولوا الدين والأقربين واليتامى) .

ومنها قوله : لإيراده فى أنواع البر من الإيمان بالله وإنفاق المال
 (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين
 وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين) إلى آخر الآية .

ومنها : ما هو أدخل في الموضوع حيث جعل له نصيباً في التركة في قوله : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) بصرف النظر عن مباحث الآية من جهات أخرى ، ومرة أخرى يجعل لهم نصيباً فيما هو أعلى منزلة في قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله) الآية

وكذلك في سورة الحشر في قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية .

فجعلهم الله مع ذى القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جعله الله في عموم وصف الأبرار ، وسبيلاً للوصول إلى أعلى درجات النعيم في قوله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) .

وذكر أفعالهم التي منها : أنهم يوفون بالنذر ، ثم بعدها : أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً .

وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة في قوله : (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة) الآية .

ولقد وجدنا ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن يسوق الله الخضر
وموسى عليهما السلام ليقيا جداراً ليتيمين على كنز لهما حتى يبلغا
أشدّها ، في قوله تعالى : (وأما الجدار فكان لفلانين يتيمين في
المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا
أشدّها ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى)

هذا هو الجانب المالى من دفع المصرة عنه في حفظ ماله ، ومن
جانب جلب النفع إليه عن طريق المال .

أما الجانب النفسى فكالاتى :

أولاً : عدم مساءته في نفسه ، فمنها قوله تعالى : (أرايت الذى
يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام
المسكين) .

ومنها قوله (كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام
المسكين) فقدم إكرامه إشارة له .

ثانياً : في الإحسان إليه ، منها قوله تعالى : (لاتعبدا إلا الله
وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى) فيحسن إليه كما يحسن لوالديه
ولذى القربى .

ومنها سؤال ، وجوابه من الله تعالى (ويسألونك عن اليتامى قل

إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فأخوالكم والله يعلم المفسد من المصلح (أى تعاملونهم كما تعاملون الإخوان ، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف ، ولذا قال تعالى : (والله يعلم المفسد من المصلح) .

وفي تقديم ذكر المفسد على المصلح : إشعار لشدة التحذير من الإفساد في معاملته ، ولأنه محل التحذير في موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد في قوله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً) .

أى حتى في مخاطبتهم إياهم لأنهم بمنزلة أولادهم ، بل ربما كان لهم أولاد فيما بعد أيتاماً من بعدهم ، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاماً من بعدهم ، فليحسنوا معاملة الأيتام في أيديهم وهذه غاية درجات العناية والرعاية .

تلك هي نصوص القرآن في حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه ، مما يفصل مجمل قوله : (فأما اليتيم فلا تقهر) .

لا بكلمة غير سديدة ولا بحرمانه من شيء يحتاجه ، ولا بإتلاف ماله ، ولا بالتحميل على أكله وإضاعته ، ولا بشيء بالكيفية ، ولا في نفسه ولا في ماله .

والأحاديث من السنة على ذلك عديدة بالفة مبلغها في حقه ،
 وكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس به وأشفقهم عليه ، حتى قال :
 « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين - يشير إلى السبابة والوسطى -
 وفرج بينهما » رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

وفى رواية أبى هريرة عند مسلم ومالك : « كافل اليتيم له أو
 لغيره » أى قريب له أو بعيد عنه .

وعند أحمد والطبرانى مرفوعا : « من ضم يتيما من بين أبوين
 مسلمين إلى طعامه وشرابه ، وجبت له الجنة » قال المنذرى : رواه
 أحمد ، محتج بهم إلا على بن زيد .

وعند ابن ماجه عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال :
 « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم ، يُحسن إليه . وشر بيت فى
 المسلمين ، بيت فيه يتيم يُساء إليه » .

وجاء عند أبى داود ما هو أبعد من هذا وذلك ، حتى إن
 الأم لتمطل مصالحها من أجل أيتامها ، فى قوله صلى الله عليه وسلم
 « أنا وامرأة سقاء الخدين كهاتين يوم القيامة - وأوما بيده - يزيد
 بن زريع - بفتح الزاى وإسكان الباء - بالوسطى والسبابة امرأة
 آمت زوجها - بألف ممدودة وميم مفتوحة وتاء - أصبحت أيمًا ، بوفاء

زوجها - ذات منصب وجمال حبست نفسها على يقاماها حتى بانوا
أو ماتوا .

وجعله الله دواء لقساوة القلب ، كما روى أحمد ورجاله رجال
الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رجلا شكى إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال « امسح رأس اليتيم ، وأطعم
المسكين » .

وهنا يتجلى سر لطيف في مثالية التشريع الإسلامى ، حيث يخاطب
الله تعالى أفضل الخلق وأرحمهم ، وأرأفهم بمباد الله ، الموصوف
بقوله تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وبقوله (وإنك لعلى خلق
عظيم) ليكون مثالا مثاليا في أمة قست قلوبها وغلظت طباعها ،
فلا يرحمون ضعيفا ، ولا يؤدون حقا إلا من قوة يدينون لمبدأ « من
عزَّ بَرَّ ، ومن غلب استلب » يفاخرون بالظلم ويتهاجون بالأمانة ، كما
قال شاعرهم :

قبيلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ويقول حكيمهم :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

قوم يثدون بناتهم ، ويحرمون من الميراث نساءهم ، يأكلون

الثراث أكلا لملأ ، ويحبون المال حباً ، فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم ،
فألان قلوبهم ورقق طباعهم ، فلانوا مع هذا الضميف وحفظوا حقه .

وحقيقة هذا التشريع الإلهى الحكيم منذ أربعة عشر قرناً تآتى
فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها ، مما يحقق
كمال التكامل الاجتماعى بأبهى معانيه ، المنوه عنه فى الآية الكريمة
(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا
الله وليقولوا قولاً سديداً) ، فجعل كافل اليتيم لليوم ، إنما يعمل حتى
فما بعد لو ترك ذرية ضعافاً ، وعبرَ هذا عن الأيتام بلازمهم وهو
الضعف إبرازاً لحاجة اليتيم إلى الإحسان ، بسبب ضعفه فيكونون
موضع خوفهم عليهم لضعفهم ، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم ، كما
يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم .

وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلاً اجتماعياً فى كفالة اليتيم ، بل
إن اليتيم نفسه ، فإنه يقيم اليوم ورجل الغد ، فكما تحسن إليه يحسن
هو إلى أيتامك من بعدك ، وكما تدين تدان ، فإن كان خيراً
كان الخير بالخير والبادىء أكرم ، وإن شراً كان بمثله والبادىء
أظلم .

ومع هذا الحق المتبادل ، فإن الإسلام يحث عليه ويعنى به ، ورغب

في الإحسان إليه وأجزاء المثوبة عليه ، وحذر من الإساءة عليه ،
وشدد العقوبة فيه .

وقد يكون فيما أوردناه إطالة ، ولكنه وفاء بحق اليتيم أولا ،
وتأثر بكثرة ما يلاقيه اليتيم ثانيا .

تنبيه

ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه ، بل ذلك
من مصاحته كما قيل :

قس ليزدجروا ومن بك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وقوله :

(وأما السائل فلا تنهر) ، قالوا : السائل الفقير والمحتاج ،
يسأل ما يسد حاجته وهو مقابل لقوله : (ووجدك عائلا فأغنى)
أى فكما أغناك الله وبدون سؤال ، فإذا أتاك سائل فلا تنهره ، ولو
في رد الجواب بالتي هي أحسن .

ومعلوم : أن الجواب بلطف ، قد يقوم مقام المطاء في إجابة

السائل ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يعطيه للسائل
يعدّه وعداً حسناً حين مسيره ، أخذاً من قوله تعالى : (وإما
تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً
ميسوراً) .

وقد أورد الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيتين عند هذه
الآية في هذا المعنى ، هما قول الشاعر :

إن لم تكن ورق يوماً أجود بها للسائلين فإنى لين العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسن مردود

فليسعد النطق إن لم يسعد المال .

وقيل : السائل المستفسر عن مسائل الدين والمسترشد ، وقالوا هذا
مقابل قوله : (ووجدك ضالاً فهدى) أى لا تنهر مستغنياً ولا مسترشداً ،
كقوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم رحيماً شفيقاً على الجاهل حتى
يعلم ، كما في قصة الأعرابي الذى بال فى المسجد حين صاح به
الصحابه فقال لهم « لا تزعموه » ، إلى أن قال الأعرابي : اللهم ارحمنى

وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً أبداً » وكالآخر الذي جاء بضرب صدره وينتف شمره ويقول : « هلك وأهلك ، واقمت أهلي في رمضان ، حتى كان من أمره أن أعطاه فرقاً من طعامه يكفر به عن ذنبه ، فقال : أعلی أنقر منا يا رسول الله ؟ فقال : قم فاطمه أهلك . »

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقف للمرأة في الطريق يصفى إليها حتى يضيق من معه وهو يصبر لها ولم ينهرها ، بل يجوبها على أسئلتها .

وقد حدث صلى الله عليه وسلم على إكرام طالب العلم ، وبين أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وأن الحيثان في البحر لتستغفر له رضى بما يصنع .

وقوله : (وأما بنعمة ربك فحدث) : النعمة كل ما أنعم الله به على العبد ، وهي كل ما ينعم به العبد من مال وعافية وهداية ونصرة من النعمومة واللين ، فقليل : المراد بها المذكرات والحدث بها شكرها عملياً من إيواء اليتيم كما آواه الله ، وإعطاء السائل كما أغناه الله ، وتعليم المسترشد كما علمه الله ، وهذا من شكر النعمة ، أى كما أنعم الله عليك ، فتنعم أنت على غيرك تأسيماً بفعل الله منك .

وقيل : التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث ،
والنعمة هنا عامة لتكبيرها وإضافتها ، كما في قوله تعالى : (وما بكم
من نعمة فمن الله) أى كل نعمة . ولكن الذى يظهر أنها في الوحي
أظهر أو هو أولى بها ، أو هو أعظمها ، لقوله تعالى : (اليوم أكملت
لكم دينكم وأتممت عليكم نعمى ورضيت لكم الإسلام ديناً) فقال :
نعمتى ، وهنا نعمة ربك . ولا يبعد عندى أن يكون صلى الله عليه وسلم
إنما نحر مائة ناقة في حجة الوداع ، لما أنزل الله عليه هذه الآية ، ففعل
شكراً لله على إتمام النعمة بإكمال الدين .

وقد قالوا في مناسبة هذه السورة بما قبلها : إن التى قبلها في
الصدق (وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده
من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) . وهنا
في الرسول صلى الله عليه وسلم (ما ودعك ربك وما قلى ، والآخرة خير
لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) مع الفارق الكبير في
المطاء والخطاب .

والواقع أن مناسبات السور القصار ، أظهر من مناسبات الآى في
السورة الواحدة ، كما بين هاتين السورتين والليل مع والضحى ، ثم
ما بين والضحى وألم نشرح ، إنها تمة للنعم التى يعدها الله تعالى
على رسوله .

وهكذا على ما ستأتى الإشارة إليه فى محله إن شاء الله تعالى .
أعلم علماً بأن بعض العلماء لم يعتبر تلك المناسبات .

ولكن ما كانت المناسبة فيه واضحة ، فلا ينبغى إغفاله ، وما
كانت خفية لا ينبغى التكلف له .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سُورَةُ الشُّرُوحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ .
الَّذِي أَثَقَلَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

ذكر تعالى هنا ثلاث مسائل : شرح الصدر ، ووضع الوزر ،
ورفع الذكر .

وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام ، فهو استفهام تقريرى
لتقرير الإثبات ، فقوله تعالى (ألم نشرح) بمعنى شرحنا على المبدأ
المعروف ، من أن نفي النفي إثبات . وذلك لأن همزة الاستفهام وهي
فيها معنى النفي دخلت على لم وهي للنفي ، فتراكبما فبقي الفعل مثبتاً .
قالوا : ومثله قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) . وقوله (ألم
ربك فينا وليدا) .

وعليه قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فتقرر بذلك أنه تعالى يعدد عليه نعمه المظني ، وقد ذكرنا
سابقاً ارتباط هذه السورة بالتى قبلها في تمة نعم الله تعالى على رسوله ،
صلى الله عليه وسلم .

وروى النيسابورى عن عطاء وعمر بن عبد العزيز : أنهما كانا يقولان : هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم .
والذى دعاها إلى ذلك هو أن قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) كالمطف على قوله (ألم يمدك يتيا) ورد هذا الإدعاء - أى من كونها سورة واحدة - وعلى كل فإن هذا إذا لم يحملها سورة واحدة فإنه يحملها مرتبطين . معاً فى المعنى ، كما فى الأنفال والتوبة .

واختلاف فى معنى شرح الصدر ، إلا أنه لا منافاة فيما قالوا ، وكلها يكمل بعضها بعضاً .

فقال : هو شق الصدر سواء كان مرة أو أكثر ، وغسله وملأه بإيماناً وحكمة ، كما فى رواية مالك بن صمصة فى ليلة الإسراء ، ورواية أبى هريرة فى غيرها .

وفيه كفاى رواية أحمد : أنه شق صدره وأخرج منه القل والحسد ، فى شيء كهيئة الملقنة ، وأدخلت الرأفة والرحمة .

وقيل : شرح الصدر ، إنما هو توصيحه المعرفة والإيمان ومعرفة الحق ، وجعل قلبه وعاء للحكمة .

وفى البخارى عن ابن عباس « شرح الله صدره للإسلام »

وعند ابن كثير : نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسماً ، كقوله
(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

والذي يشهد له القرآن : أن الشرح هو الانشراح والارتياح .
وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة . كما في
قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه)
قوله : فهو على نور من ربه : بيان لشرح الصدر للإسلام .

كما أن ضيق الصدر ، دليل على الضلال ، كما في نفس الآية
(ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) الآية .

وفي حاشية الشيخ زادة على البيضاوي قال : لم يشرح صدر أحد
من العالمين ، كما شرح صدره عليه السلام ، حتى وسع علوم الأولين
والآخرين . فقال « أوتيت جوامع الكلم » . ١٠ هـ .

ومراد به معلوم الأولين والآخرين ، ما جاء في القرآن من أخبار
الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار المعاد ، وما بينه وبين ذلك مما علمه
الله تعالى .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن شرح الصدر الممتن به عليه
صلى الله عليه وسلم ، أوسع وأعم من ذلك ، حتى إنه يشمل صدره
وصفحه وعفوه عن أعدائه ، ومقابله بالإساءة بالإحسان ، حتى إنه يسمع
العدو ، كما يسمع الصديق .

كقصة عودته من ثقيف : إذ آذوه سفهاؤهم ، حتى ضاق ملك
الجبال بفعلهم ، وقال له جبريل : إن ملك الجبال معي ، إن أردت
أن يطبق عليهم الأخشبين فعل ، فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من
ذلك ، ولكأنهم لم يسيثوا إليه فيقول : « اللهم اهد قومي فإنهم
لا يطمون ، إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول : لا
إله إلا الله محمد رسول الله » .

وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء
الرسالة ، ولذا توجه نبي الله موسى إلى ربه يطلبه إياها ، لما كلف
الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى (اذهب إلى فرعون
إنه طغى ، قال رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل
عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون
أخي ، اشدد به أزري) إلى آخر السياق .

فذكر هنا من دواعي المون على أداء الرسالة أربعة عوامل : بدأها
بشرح الصدر ، ثم تيسير الأمر ، وهذان عاملان ذاتيان ، ثم الوسيلة
بينه وبين فرعون ، وهو اللسان في الإقناع ، واحلل عقدة من لساني
يفقهوا قولي ، ثم العامل المادي أخيراً في المؤازرة ، واجعل لي وزيراً
من أهلي هارون أخي اشدد به أزري ، فقدم شرح الصدر على هذا
كله لأهميته ، لأنه به يقابل كل الصعاب ، ولذا قابل به ما جاء به السحرة

من سحر عظيم ، وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم .

وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته ، ما يكون من رفة وحكمة وتيسير ، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقى تلك التعاليم من الوحي ، كقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وكقوله (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ، مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره .

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر ، وفملا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة ، وتلقى كل ذلك بصدر رحب .

وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله ، أن يكون رحب الصدر هادئ النفس متجعلا بالصبر .

وقوله (ووضعتنا عنك وزرك) ، والوضع يكون للحط والتخفيف ، ويكون للعمل والتثقل ، فإن عدى بمن كان للحط ، وإن عدى بطل كان للعمل ، في قولهم : وضعت عنك ، ووضعت عليك ، والوزر لفة الثقل .

ومنه : حتى تضع الحرب أوزارها ، أى ثقلها من سلاح ونحوه ..

ومنه الوزير : المحمل ثقل أميره وشغله ، وشرعاً الذنب كما
 في الحديث : « ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من حمل
 بها إلى يوم القيامة » ، وقد يتعاوران في التعبير كقوله تعالى
 (ليحملوا أوزارهم كاملة) وقوله مرة أخرى (وليحملن أثقالهم
 وأثقالا مع أثقالهم) .

وقد أفرد لفظ الوزر هذا وأطلق ، ولم يبين ما هو وما نوعه ،
 فاختلف فيه اختلافاً كثيراً .

ف قيل : ما كان فيه من أمر الجاهلية ، وحفظه من مشاركته
 معهم ، فلم يلحقه شيء منه .

وقيل : ثقل تأله مما كان عليه قومه ، ولم يستطع تغييره ،
 وشفقته صلى الله عليه وسلم بهم ، أي كقوله تعالى : (فاملك باخم
 نفسك على آئارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) أي أسفاً
 عليهم .

وقال أبو حيان : هو كناية عن عصمة صلى الله عليه وسلم من
 الذنوب ، وتطهيره من الأرجاس :

وقال ابن جرير : وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا
 عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها .

وقال ابن كثير : هو بمعنى : ليفترلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

فكلام أبي حيان : يدل على العصمة ، وكلام ابن جرير يدل على شيء في الجاهلية ، وكلام ابن كثير مجمل .

وفي هذا المجال مبحث عصمة الأنبياء عموماً ، وهو مبحث أصولي تحققه كتب الأصول لسلامة الدعوة ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عايماً وعليه بحثه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) ، وأورد كلام المعتزلة والشيعة والحشوية ، ومقياس ذلك ، عقلاً وشرعاً ، وفي سورة ص عند قوله تعالى (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه) ، ونبه عندها على أن كل ما يقال في داود عليه السلام حول هذا المعنى ، كله إسرائيليّات لا تليق بمقام النبوة . اهـ .

أما في خصوصه صلى الله عليه وسلم ، فإننا نورد الآتي : إنه مهما يكن من شيء ، فإن عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر والصغائر بعد البينة يجب القطع بها ، لنص القرآن الكريم في قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) لوجوب التأسي به وامتناع أن يكون فيه شيء من ذلك قطعاً .

أما قبل البينة ، فالعصمة من الكبائر أيضاً ، يجب الجزم بها لأنه صلى الله عليه وسلم كان في مقام التهيؤ للنبوة من صفوه ، وقد شق

صدره في سن الرضاع ، وأخرج منه حظ الشيطان ، ثم إنه لو كان قد وقع منه شيء لأخذوه عليه حين عارضوه في دعوته ، ولم يذكروا ذلك ولا شيء فلم يبق إلا القول في الصفات ، فهي دائرة بين الجواز والمنع ، فإن كانت جائزة ووقعت ، فلا تمس مقامه صلى الله عليه وسلم لوقوعها قبل البعثة والتكليف ، وأنها قد غفرت وحط عنه ثقلها ، فإن لم تقع ولم تكن جائزة في حقه ، فهذا المطلوب .

وقد شاق الألويسي رحمه الله في تفسيره : أن عمه أبا طالب ، قال لأخيه العباس يوماً : « لقد ضمته إلىّ وما فارقت ليلاً ولا نهراً ولا ائتممت عليه أحداً » ، وذكر قصة بنبيه ومنامه في وسط أولاده أول الليل ، ثم نقله إياه محل أحد أبنائه حفاظاً عليه ، ثم قال : « ولم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون » .

وذكرت كتب التفسير أنه صلى الله عليه وسلم أراد مرة في صفره ، أن يذهب لحل عرس ليرى ما فيه ، فلما دنا منه أخذه النوم ولم يصح إلا على حر الشمس ، فصانه الله من رؤية أو سماع ، شيء من ذلك .

ومنه قصة مشاركته في بناء الكعبة حين تعرى ومنع منه حالا ، وعلى المنع من وقوع شيء منه صلى الله عليه وسلم بقي الجواب على معنى الآية ، فيقال والله تعالى أعلم : إنه تكريم له صلى الله عليه وسلم كما جاء في أهل بدر ، قوله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع

على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، مع أنهم لن يفعلوا محرماً بذلك ، ولكنه تكريم لهم ورفع لمنزلاتهم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتوب ويستغفر ويقوم الليل حتى تورمت قدماه ، وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فكان كل ذلك منه شكراً لله تعالى ، ورفعاً لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء : « نعم العبد مهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » ، وهو حسنة من حسناته صلى الله عليه وسلم .

أو أنه صلى الله عليه وسلم كان يعبد على نفسه بالتقصير ، ويعتبره ذنباً يستغفر منه ، كما كان إذا خرج من الخلاء قال « غفرانك » .

ومعلوم أنه ليس من موجب الاستغفار ، إلا ما قيل شعوره بترك الذكر في تلك الحالة ، استوجب منه ذلك .

وقد استحسن العلماء قول الجنيد : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو أن المراد مثل ما جاء في القرآن من بعض اجتهاداته صلى الله عليه وسلم ، وفي سبيل الدعوة ، فيرد اجتهاده فيعظم عليه كقصة ابن أم مكتوم ، وعوتب فيه (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآية ، ونظيرها ولو كان بعد نزول هذه السورة ، إلا أنه من باب

واحد كقوله : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، وقصة أصارى بدر ،
 وقوله : (ليس لك من الأمر شيء) واجتهاده في إيمان عمه ، حتى
 قيل له : (إنك لا تهدي من أحببت) ونحو ذلك . فتحمل الآية
 عليه ، أو أن الوزر بمعناه اللغوي ، وهو ما كان يثقله من أعباء
 الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، كما ذكر ابن كثير في سورة الإسراء عن
 الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم « لما كان ليلة أسرى بي فأصبحت بمكة فظلت ،
 وعرفت أن الناس مكذبني ، فعدت معتزلاً حزيناً ، فرأى أبو جهل ،
 فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزىء : هل كان من شيء ؟
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وقص عليه الإسراء » .

ففيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم فظع ، والفظاعة : ثقل
 وحزن ، والحزن : ثقل . وتوقع تكذيبهم إياه أثقل على النفس من
 كل شيء . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : (الذي أنقض ظهرك) أي ثقله مشعر بأن للذنوب
 أثقلاً على المؤمن بنوء به ، ولا يخففه إلا التوبة وحطه عنه .

وقوله : (ورفعنا لك ذكرك) لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له
 ذكره ، والرفع يكون حسياً ويكون معنوياً ، فاختلاف في المراد به
 أيضاً .

فقيل : هو حسى في الأذان والإقامة ، وفي الخطب على المنابر

وافتحاحيات الكلام في الأمور الهامة ، واستدلوا لذلك بالواقع فعلا ،
 واستشهدوا بقول حسان رضى الله عنه ، وهى أبيات فى ديوانه من
 قصيدة دالية :

أغـر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد
 وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
 وشق له من اسمه ليجله فذوا العرش محمود وهذا محمد
 ومن رفع الذكر معنى أى من الرفعة ، ذكره صلى الله عليه وسلم
 فى كتب الأنبياء قبله ، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه .

وقد نص القرآن أن الله جعل الوحي ذكراً له ولقومه ، فى قوله تعالى :
 (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر
 لك ولقومك) ، ومعلوم أن ذكر قومه ذكر له ، كما قال الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب

كما علت برسول الله عـدنان

فتبين أن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم ، إنما هو عن طريق
 الوحي سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل (يا أيها الرسول) ،
 (يا أيها النبي) ، (يا أيها المدثر) ، والتصريح باسمه فى مقام
 الرسالة (محمد رسول الله) أو كان فى فروع التشريع ، كما تقدم فى

أذان وإقامة وتشهد وخطب وصلاة عليه صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ .

النصب : التعب بعد الاجتهاد ، كما في قوله : (وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة) .

وقد يكون النصب للدنيا أو للآخرة ، ولم يبين المراد بالنصب في أى شيء ، فاختلف فيه ، ولكنها أقوال متقاربة .

ف قيل : في الدعاء بعد الفراغ من الصلاة .

وقيل : في النافلة من الفريضة ، والذي يشهد له القرآن ، أنه توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدنيا ، كما في مثل قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، وقوله : (إن ناشئة الليل ، هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً) أى لأنها وقت الفراغ من عمل النهار وفي سكون الليل ، وقوله : (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) ، فيكون وقته كله مشغولاً ، إما للدنيا وإما للدين .

وفي قوله : (فإذا فرغت فانصب) حل لمشكلة الفراغ التي شغلت

العالم حيث لم تترك للمسلم فراغاً في وقته ، لأنه إما في عمل للدنيا ، وإما في عمل للآخرة .

وقد روى عن ابن عباس : « أنه مرّ على رجلين يتصارعان فقال لهما : ما بهذا أمرنا بعد فراغنا » .

وروى عن عمر أنه قال : « إني لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سهيلاً ، لا في عمل دنيا ولا دين » ولهذا لم يشك الصدر الأول فراغاً في الوقت .

ومما يشير إلى وضع الصدر الأول ، مارواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها - وأنا يومئذ حديث السن - : « رأيت قول الله تعالى : (إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) ، فما على الرجل شيء ألا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : كلا لو كان كما تقول لكانت ، فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » .

فانظر رحمك الله وإياي ، فيم يفكر حديث السن ، وكيف يستشكل معاني القرآن ، فمثله لا يوجد عنده فراغ .

تنبیه

ذكر الألوسي في قوله تعالى : (فانصب) قراءة شاذة بكسر

الصاد ، وأخذها الشيعة على الفراغ من النبوة ، ونصب على إماما ،
وقال : ليس الأمر متمينا بعلي فالسني يمكن أن يقول : فانصب
أبا بكر ، فإن احتج الشيعي بما كان في خدير حم ، احتج السني بأن
وقته لم يكن وقت الفراغ من النبوة .

بلى إن قوله صلى الله عليه وسلم : « مروا أبا بكر فليصل بالناس »
كان بعده ، وفي قرب فراغه صلى الله عليه وسلم من النبوة ، إذ كان
في مرضه الذي مات فيه .

فإن احتج الشيعي بالفراغ من حجة الوداع ، رده السني بأن الآية
قبل ذلك انتهى .

وعلى كل إذا كان الشيعة يحتجون بها ، فيكفي رد احتجاجهم
أنها شاذة ، وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند
علماء التفسير ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، لا لقريظة صارفة ولا علاقة
رابطة .

ومن اللعب في التأويل في هذه الآية ، ما يفعله بعض الحوام :
رأيت رجلا عاميا عاديا ، قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب
صقيل وحزام جميل مما يسمونه نصبة ، أي بدلة كاملة ، فقال له رجل :
ما هذه النصبة يا فلان ؟ فقال له : لما فرغت من علي نصبت ، كما
قال تعالى : (فإذا فرغت فانصب) .

كما سمعت آخر يتوجع لقلة ما في يده ، ويقول لزميله : ألا تعرف

لى شخصاً أنصب عليه ، أى آخذ قرضه منه ، فقلت له : ولم تنصب عليه ؟ والنصب كذب وحرام . فقال : إذا لم يكن عند الإنسان شيء ، ويده خالية فلا بأس ، لأن الله قال : (فإذا فرغت فانصب) ، وهذا وأمثاله مما يتجرأ عليه العامة لجهلهم ، أو أصحاب الأهواء لعظمتهم

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

التقديم هنا مشعر بالتخصيص وهو كقوله تعالى : (إياك نعبد) أى لا نعبد غيرك : وهكذا هنا لا ترغب إلى غيره سبحانه ، كأنه يقول : الذى أنعم عليك بكل ما تقدم ، هو الذى ترغب فيما عنده لا سواه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سَيْنِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ
الْأَمِينِ﴾ .

التين هو الثمرة المعروفة التي لا عجم لها ولا قشرة ، والزيتون
هو كذلك الثمرة التي منها الزيت ، وطور سينين هو جبل الطور الذي
ناجى موسى عنده ربه ، والبلد الأمين هو مكة المكرمة ، والواو
للقسم .

وقد اختلف في المراد بالقسم به في الأول ، والثاني التين والزيتون ،
واتفقوا عليه في الثالث والرابع على ما سيأتي .

أما التين والزيتون ، فمن ابن عباس رضى الله عنهما « أنها
الثمرتان المعروفتان » وهو قول عكرمة والحسن ومجاهد . كلهم
يقول : التين : تينكم الذي تأكلون ، والزيتون : زيتونكم الذي
تمصرون .

وعن كب : التين : مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس ،
وكذا عن قتادة . وأرادوا منابت التين والزيتون بقريظة الطور

والبلد الأمين ، على أن منبت التين والزيتون لميسى ، وطور سينين لموسى
والبلد الأمين لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن حل التين والزيتون على منابتهما لا دليل عليه ، فالأولى :
إبقتلوهما على أصلهما ، ويشهد لذلك الآتى :

أولا التين : قالوا : إنه أشبه ما يكون من الثمار بشمر الجنة ، إذ
لا عجم له ولا قشر ، وجاء عنه فى السنة « أنه صلى الله عليه وسلم
أهدى له طبق فيه تين ، فأكل منه ثم قال لأصحابه : فلو قلت :
إن فاكهة نزلت من الجنة لقات هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه ،
فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس » ، ذكره اليسانورى ولم يذكر
من خرجه .

وذكره ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد ، قائلا : ويذكر عن أبي
الدرداء « أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبق من تين » وساق
النص المتقدم . ثم قال : وفى ثبوت هذا نظر .

وقد ذكر المفسرون وابن القيم وصاحب القاموس : للتين خواص ،
وقالوا : إنها مما تجعله محلا للقسم به ، وجزم ابن القيم : أنه المراد فى
السورة .

ومما ذكروا من خواصه ، قالوا : إنه يجلو رمل الكلى والمثانة ويؤمن من السموم ، وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ، ويفسل الكبد والطحال ، وينقي الخلط البلغمي من المعدة ، ويغذي البدن غذاء جيداً ، ويأبسه يغذي وينفع المصعب .

وقال جالينوس : وإذا أكل مع الجوز والسذاب ، قبل أخذ السم القاتل نفع ، وحفظ من الضر ، وينفع السعال المزمن ويدر البول ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ، ولأكله على الريق منفعة عجيبه .

وقال ابن القيم : لما لم يكن بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأت له ذكر في السنة ، ولكن قد أقسم الله به في كتابه ، لكثرة منافعه وفوائده .

والصحيح : أن القسم به هو التين المعروف . اهـ .

وكما قال ابن القيم رحمه الله : لم يذكر في السنة لعدم وجوده بالحجاز والمدينة ، فكذلك لم يأت ذكره في القرآن قط إلا في هذا الموضع ، ولم يكن من منابت الحجاز والمدينة لمنافاة جوه لجوها ، وهو وإن وجد أخيراً إلا أنه لا يجوز فيها جودته في غيرها .

فترجح أن المراد بالتين هو هذا المأكول ، كما جاء من سمينا :
ابن عباس ومجاهد وهكرمة والحسن .

أما الزيتون ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في المقدمة ،
أن من أنواع البيان إذا اختلف في المعنى المراد ، وكان مجيء أحد
المعنيين أو المعاني المحتملة أكثر في القرآن ، فإنه يكون أولى بحمل
اللفظ عليه .

وقد جاء ذكر الزيتون في القرآن عدة مرات مقصوداً به تلك
الشجرة المباركة ، فذكر في ضمن الأشجار خاصة في قوله تعالى من
سورة الأنعام (وجنات من أعناب والزيتون والرمان - إلى قوله -
ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) وسماها بذاتها في قوله تعالى من
سورة المؤمنين (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ
لآكلين) وذكرها مع النخل والزرع في عبس في قوله تعالى :
(فأنبتنا فيها حباً ، وعنبا وقضباً وزيتوناً ونخلاً) وذكر من أخص
خصائص الأشجار ، في قوله في سورة النور في المثل العظيم المضروب
(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح
نفي زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة
زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور
على نور) . فوصفها بالبركة ووصف زيتها بأنه يكاد يضيء ، ولو لم

شمسه نار ، واختيارها لهذا المثل العظيم ، يحملها أملا لهذا القسم العظيم هنا .

أما طور سينين : فأكثرهم على أنه جبل الطور ، الذي ناجى الله موسى عنده ، كما جاء في عدة مواطن ، وذكر الطور فيها للتكريم وللقسم فمن ذكره للتكريم قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن) ، ومن ذكره للقسام به ، قوله تعالى : (والطور وكتاب مسطور) .

وقد تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة الطور قوله ، وقد أقسم الله بالطور في قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين) . ٥١ .

أما البلد الأمين فهو مكة لقوله تعالى : (ومن دخله كان آمنا) فالأمين بمعنى الأمن ، أى من الأعداء ، أن يحاربوا أهله أو يغزوه ، كما قال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) والأمين بمعنى أمن جاء في قول الشاعر :

ألم تعلمي يا أسم ويحك أنتي حلفت يميناً لا أخون أمني

يريد : آمنى .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

هذا هو المقسم عليه ، والتقويم المعدل كما في قوله : (ولم يجعل له عوجاً ، قوماً) وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى أى شكلاً وصورة وإنسانية ، وكلمها من آيات القدرة ودلالة البعث . وروى عن علي رضي الله عنه :

دواؤك منك ولا تشعر ودواؤك منك ولا تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الكبير

وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نقطة فعلاقة إلى آخره في أكثر من موضع ، كما في قوله : (ألم يك نقطة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) .

وكذلك في هذه السورة التنبيه على البعث بقوله : (فما يكذبك بعد بالدين) .

أما الجانب المعنوي فهو الجانب الإنساني ، وهو المتقدم في قوله : (ونفس وما سواها) على ما قدمنا هناك ، من أن النفس البشرية هي مناط التكليف ، وهو الجانب الذي به كان الإنسان إنساناً ، وبهما كان خلقه في أحسن تقويم ، ونال بذلك أعلى درجات التكريم : (ولقد كرّمنا بني آدم) .

والإنسان وإن كان لفظاً مفرداً إلا أنه للجنس بدلالة قوله :
 (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) ، وهذا مثل ما في سورة
 (والمصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) فباستثناء الجمع
 منه ، علم أن المراد به الجنس .

والتأكيد بالقسم المتقدم على خلق الإنسان في أحسن تقويم ،
 يشعر أن المخاطب منكرك لذلك ، مع أن هذا أمر ملموس محسوس ،
 لا ينكره إنسان .

وقد أجاب الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعابه في دفع إيهام
 الاضطراب على ذلك : بأن غير المنكر إذا ظهرت عليه علامات
 الإنكار ، عومل معاملة المنكر ، كقول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رحمه وإن بنى عمك فيهم رماح

وأمارات الإنكار على المخاطبين ، إنما هي عدم إيمانهم بالبعث ،
 لأن العاقل لو تأمل خلق الإنسان ، لعرف منه أن القادر على خلقه
 في هذه الصورة ، قادر على بعثه .

وهذه المسألة أفرد بها الشيخ في سورة الجاثية بتنبية على قوله تعالى :
 (وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) ، وتكرر

هذا البحث في عدة مواضع ، وأصرح دلالة على هذا المعنى ما جاء في آخر يس ، (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

قيل : رد إلى الكبر والمهرم وضعف الجسم والمقل .

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمى إلى ترجان

كما في قوله تعالى : (ومن نكسه في الخلق) .

وذكر الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه هذا القول ، وساق معه قوله : (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) ، وساق آية التين هذه (ثم رددناه أسفل سافلين) ، وقال : على أحد التفسيرين ، وقوله : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رواه ابن جرير .

وقيل : رد النار إلى بسبب كفره ، وهذا مروي عن مجاهد

والحسن .

وقد رجح ابن جرير المعنى الأول ، وهو كما ترى ، ما يشهد له

القرآن في النصوص التي قدمنا ، واستدل لهذا الوجه من نفس السورة .
وذلك لأن الله تعالى قال في آخرها (فما يكذبك بعد بالدين) أى
بعد هذه الحجج الواضحة ، وهى بدء خلق الإنسان وتطوره إلى أحسن
أمره ، ثم رده إلى أحط درجات المعجز أسفل سافلين ، وهذا هو
المشاهد لهم ، يحتاج به عليهم .

أما رده إلى النار فأمر لم يشهده ولم يؤمنوا به ، فلا يصلح أن
يكون دليلاً يقيمه عليهم ، لأن من شأن الدليل أن يتقل من المعلوم
إلى المجهول والبحث هو موضع إنكارهم ، فلا يحتاج عليهم لإثبات
ما ينكرونه بما ينكرونه ، وهذا الذى ذهب إليه واضح .

وما يشهد لهذا الوجه : أن حالة الإنسان هذه فى نشأته من نطفة ،
فعلقة ، فطفلا ، ففلاناً ، فشيخاً ، ومهرم ، وعجز . جاء مثلها فى البتات
وكلاهما من دلائل البحث ، كما فى قوله : (اعلما أنما الحياة الدنيا
لعيب ولهو - إلى قوله - كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج
فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من
الله ورضوان) ، وقوله : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء
فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به ذراعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه
مصفراً ثم يحمله حطاماً ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) .

فكذلك الإنسان ، لأنه كائنات سواء كما قال تعالى : (والله

أنتبكم من الأرض نباتاً ، ثم بعدكم فيها ، ويخرجكم
إخراجاً) .

ويكون الاستثناء إلا الذين آمنوا فلهم لا يصلون إلى حالة
الخرف وأرذل العمر ، لأن المؤمن مهما طال عمره ، فهو في طاعة ،
وفي ذكر الله فهو كامل العقل ، وقد تواتر عند العامة والخاصة
أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته ، لا يصاب بالخرف ولا
الذهيان .

وقد شاهدنا شيخ القراء بالمدينة المنورة للشيخ حسن الشاعر ،
لا زال على قيد الحياة عند كتابة هذه الأسطر تجاوز المائة بكثير ،
وهو لا يزال يقرأ تلاميذه القرآن ، ويعلمهم القراءات العشر ، وقد
يسمع لأكثر من شخص يقرأون في أكثر من موضع وهو يضبط
على الجميع .

وقد روى الشوكاني مثله ، عن ابن عباس أنه قال ، ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

أي غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم .

وعلى الأول : فالأجر هو الثواب ، إما بدوام أعمالهم لكمال

عقولهم ، وإما بأن الله يأمر الملائكة أن تسكب لهم من الأجر ما كانوا يعملونه في حال قوتهم من صيام وقيام ، وتصدق من كتبهم ومحو ذلك ، للأحاديث في حق المريض والمسافر ، فيظل ثواب أعمالهم مستمرا عليهم غير مقطوع .

وعلى الثاني : فيكون الأجر هو النسيم في الجنة يعطونه ولا يمن عليهم ، ولا يقطع عنهم كما قال تعالى (أكلها دائم وظلها تلك عني الذين اتقوا) .

تبيينه

وهنا وجهة نظر من وجهين : وجه خاص وآخر عام .

أما الخاص : فإن كلمة رددناه ، فالرد يشير إلى رد لأمر سابق ، والأمر السابق هو خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأحسن تقويم شامل لشكله ومعناه ، أي جسمه وإنسانيته ، فرده إلى أسفل سافلين ، يكون بعدم الإيمان كالحيوان بل هو في تلك الحالة أسفل دركاً من الحيوان ، وأشرس نفساً من الوحش ، فلا إيمان يحكمه ولا إنسانية تهذبه ، فيكون طاغية جباراً يبيث في الأرض فساداً ، وعليه يكون الاستثناء ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فبإيمانهم وعملهم الصالحات يترفعون عن السفالة ، ويرتفعون إلى الأعلى فلهم أجر غير ممنون .

والوجه العامة وهي الشاملة لموضوع السورة من أولها ابتداء من التين والزيتون وما معه في القسم إلى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) الآية .

فإنه إن صح ما جاء في قصة آدم في قوله : (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا ينخسفان عليهما من ورق الجنة) . روى المفسرون أن آدم لما بدت له سوءاته ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من الورق ليستر نفسه ، وكلما جاء شجرة زجرته ولم تعطه ، حتى مرّ بشجرة التين فأعطته ، فأخلفها الله الثمرة مرتين في السنة ، وكافأها بجمل ثمرتها باطنها كظاها لاقشر لها ولا عجم ،

وقد روى الشوكاني في أنها شجرة التين التي أخذ منها الورق . قال : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال « لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه » .

قل : وأخرج ابن أبي عمير وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال : « كان لباس آدم وحواء كالظفر - وذكر الأثر - وطفقا ينخسفان عليهما من ورق الجنة » قال : ينزهان ورق التين ، فيجملانه على سوءاتهما .

وهذا النقل يكون ذكر التين هنا مع خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رده أسفل سافلين إلا الذين آمنوا سر لطيف جداً ، وهو إسماعيل الإنسان الآن ، أن جنس الإنسان كله بالإنسان الأول أبي البشر ، وقد خلقه الله في أحسن حالة حساً ومعنى ، حتى رفعه إلى منزلة إسجد الملائكة له وسكناه الجنة ، فهي أعلى منزلة التكريم ، وله فيها أنه لا يجوع ولا يعرى ولا يغمأ فيها ولا يضحى ، وظل كذلك على ذلك إلى أن أغواه الشيطان ونسى عهد ربه إليه ، ووقع فيما وقع فيه وكان له ما كان ، فدلها بغرور وانتقلا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، فنزل إلى الأرض يحث ويذرع ويحصد ويطحن ويمجن ويخبز ، حتى يجد لقمة العيش ، فهذا خلق الإنسان في أحسن تقويم ورده أسفل سافلين .

وهذا شأن أهل الأرض جميعاً ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون ، برجوعهم إلى الجنة كارجع إليها آدم بالتوبة ، فلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى .

وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى ، لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمناً كصورة الأمن في الجنة ، فإن امتثلوا وأطاعوا

تعموا بهذا الأمن ، وإن تمردوا وعصوا ، فيخرجون منها ويحرمون أمنها .

وهكذا تكون السورة ربطاً بين الماضي والحاضر ، وانطلاقاً من الحاضر إلى المستقبل ، فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين . فيما فعل بآدم وفيما يفعل بأولئك ، حيث أنعم عليهم بالأمن والعيش الرغد ، وإرسالك إليهم وفيما يفعل لمن آمن أو بمن يكفر ، اللهم بلى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالْدِّينِ ﴾

فالدين هو الجزاء كما في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) والخطاب قيل للرسول صلى الله عليه وسلم . وأن ما في قوله : فما هي بمعنى من أي ، فمن الذي يكذبك بعد هذا البيان ، بمعنى الجزاء والحساب ليلقى كل جزاء عمله .

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

السؤال كما تقدم في (ألم نشرح) أي للاثبات ، وهو سبحانه وتعالى بلا شك أحكم الحاكمين ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : « اللهم بلى » كما سيأتي .

وأحكم الحاكمين ، قيل : أفعل تفضيل من الحكم أى أعدل الحاكمين ، كما فى قوله تعالى : (ولا يظلم ربك أحدا) .

وقيل : من الحكمة ، أى فى الصنع والإتقان والخلق ، فيكون اللفظ مشتركا ، ولا يبعد أن يكون من المعنيين ممّا ، وإن كان هو فى الحكم أظهر ، لأن الحكيم من الحكمة يجمع على الحكماء .

فعلى القول بالأمرين : يكون من استعمال المشترك فى معنييه ممّا ، وهو هنا لا تعارض بل هما متلازمان ، لأن الحكيم لا بد أن يعدل ، والعدل لا بد أن يكون حكيما يضع الأمور فى مواضعها .

وقد بين تعالى هذا المعنى فى عدة مواطن كقوله تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالفاسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) ، الجواب : لا ، وكقوله (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) ، وفى قوله (ساء ما يحكمون) بيان لعدم عدالتهم فى الحكم ، وبعده عن الحكمة .

ومعلوم أن عدم التسوية بينهم فى مماتهم أنه بالبعث والجزاء ، فهو سبحانه أحكم الحاكمين فى صنعه وخلقه . خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأعدل الأحكام فى حكمه لم يتو بين الحسن والمساء .

وقد اتفق المفسرون على رواية الترمذي لحديث أبي هريرة
رضي الله عنه مرفوعاً : « من قرأ والتين والزيتون ، فقرأ أليس الله
بأحكم الحاكمين ، فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .
ومثله عن جابر مرفوعاً ، ومن ابن عباس قوله « سبحانك
اللهم ، فبلى » . والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

في هذه الآيات الخمس تسع مسائل مرتبطة بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب ، والعام بالخاص ، والدليل بالمدلول عليه ، وكلها من منهج هذا الكتاب المبارك . وفي الواقع أنها كلها مسائل أساسية بالغة الأهمية عظيمة الدلالة .

وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية : إنها وأمثالها من السور التي فيها المعائب ، وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة ، ولا نستطيع إيفاءها حقها عجزاً وقصوراً .

وقد كتب فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأسلوبه مائتين وعشرين صفحة متتالية ، وفصلاً آخر في مباحث تتعلق بها ، ولو أوردنا كل ما سمعنا مما تحمله ، لكان خروجاً عن موضوع الكتاب ، ولذا فإننا نقصر

القول على ما يتصل بموضوعه ، إلا ما جرى القلم به مما لا يمكن تركه ،
وبالله تعالى التوفيق .

أما المسائل التسع التي ذكرت هنا ، فإننا نردها لتقييد بها
وهي :

أولا : الأمر بالقراءة ، يوجه لنبي أمي .

والثانية : كون القراءة هذه باسم الرب سبحانه مضافا للمخاطب
صلى الله عليه وسلم باسم ربك .

الثالثة : وصف للرب الذي خلق بدلا من اسم الله ، واسم الذي
يحيى ويميت أو غير ذلك .

الرابعة : خلق الإنسان بخصوصه ، بعد عموم خلق وإطلاقه .

الخامسة : خلق الإنسان من علق ، ولم يذكر ما قبل العلق من
نطفة أو خلق آدم من تراب .

السادسة : إعادة الأمر بالقراءة مع وربك الأكرم ، بدلا من أي
صفة أخرى ، وبدلا من الذي خلق المتقدم ذكره .

الثامنة : التعليم بالقلم .

التاسعة : تعليم الإنسان ما لم يعلم .

لما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن ، وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح ، فهي بحق افتتاحية الوحي ، فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم ، والكلام على ذلك مستفيض في كتب التفسير والحديث والسيرة ، فلا موجب لإيراده هنا . ولكن نورد الكلام على ما ذكرنا من موضوع الكتاب إن شاء الله .

أما المسألة الأولى قوله تعالى : (اقرأ) فالقراءة لفظة الإظهار ، والإبراز ، كما قيل في وصف الناقة : لم تقرأ جنينا ، أى لم تفتح .

وتقدم للشيخ بيان هذا المعنى لفة وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبي أى لاتعارض فيه ، لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو ، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام ، وهذا إبراز المعجزة أكثر ، لأن الأمل بالأمس صار معلماً اليوم . وقد أشار السياق إلى نوعي القراءة هذين ، حيث جمع القراءة مع التعليم بالقلم .

وفي قوله تعالى : (اقرأ) بدء للنبوّة وإشعار بالرسالة ، لأنه يقرأ كلام غيره .

وقوله تعالى : (باسم ربك) تؤكد لهذا الإشعار ، أى ليس من عندك ولا من عند جبريل الذي يقرئك .

وقد قدمنا الرد على كونه صلى الله عليه وسلم لم يكتب ولا يقرأ

مكتوباً ، من أنه صيانة للرسالة ، كما أنه لم يكن يقول الشعر وما ينبغي له ، إذا لارتاب المبطلون .

كما قال تعالى : (وما كُنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) الآية . وذلك عند قوله تعالى : (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) .

وهنا لم يبين ما يقرؤه ولكن مجيء سورة القدر بعدها بمشابة للبيان لما يقرؤه وهي : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ، وجاء بيان ما أنزل في سورة الدخان (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة) .

والشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان لذلك عند قوله تعالى : (وعطك ما لم تكن تعلم) فكأنه في قوة اقرأ ما يوحى إليك من ربك ، والمراد به هو القرآن بالإجماع .

المسألة الثانية قوله : (باسم ربك) أى اقرأ باسم ربك منشئاً ومبتدئاً القراءة باسم ربك ، وقد تكلم المفسرون على الباء أهي صلة ، ويكون اقرأ اسم ربك ، أى قل باسم الله ، كما في أوائل السور .

وقيل : الباء بمعنى على ، أى على اسم ربك ، وعليه : فالقراءة محذوف .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن قوله : (باسم ربك) أى أن ماتقرؤه هو من ربك ، وتبلفه للناس باسم ربك ، وأنت مبلغ عن ربك على حد قوله : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) .

وقوله : (ماعلى الرسول إلا البلاغ) أى عن الله تعالى .

وكقوله : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) .

ونظير هذا فى الأعراف الحاضرة خطاب الحكم ، أو ما يسمى خطاب العرش ، حينما يقول ملقيه باسم الملك ، أو باسم الأمة ، أو باسم الشعب ، على حسب نظام الدولة ، أى باسم السلطة التى منها مصدر التشريع والتوجيه السياسى .

وهنا باسم الله ، باسم ربك ، وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذى ينبه العبد إلى ما أولاه الله إياه من التربية والرعاية والعناية ، إذ الرب يفعل أمده ما يصلحه ، ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بخيرى الدنيا والآخرة ، وفى إضافته إلى المخاطب إيناس له .

المسألة الثالثة : وصف الرب بالذى خلق مع إطلاق الوصف ، وذلك لأن صفة الخلق هى أقرب الصفات إلى معنى الربوبية ، ولأنها

أجمع الصفات للتعريف بالله تعالى خلاقه ، وهي الصفة التي يسمون بها
(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) .

(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) .

ولأن كل مخلوق لا بد له من خالق (أم خلقوا من غير شيء أم هم
الخالقون) ، وقد أطلق صفة الخالق عن ذكر مخلوق ليعم ويشمل الوجود
كله ، خالق كل شيء في قوله : (ذلکم الله ربکم لا إله إلا هو خالق
كل شيء) .

(الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) .

(هو الله الخالق الباری المصور) .

وتلك المسائل الثلاث : هي الأصول في الرسالة وما بعدها دلالة
عليها ، فالأمر بالقراءة تكليف لتحمل الوحي ، وباسم ربك بيان لجهة
التكليف ، والذي خلق تدليل لتلك الجهة ، أي الرسالة والرسول
والمرسل مع الدليل الجمل . ولا شك أن المرسل إليهم لم يؤمنوا ولا
بواحدة منها ، فكان لا بد من إقامة الأدلة على ثبوتها بالتفصيل .

ولما كانت جهة المرسل هي الأساس وهي المصدر ، كان التدليل
عليها أولاً ، فجاء التفصيل في شأنها بما يسمون به ويسلمونه في أنفسهم ،
وهي المسألة الرابعة

والخامسة : خلق الإنسان من علق ، وهذا تفصيل بعد إجمال ببيان
لبعض من الكل ، فالإنسان بعض مما خلق ، وذكره من ذكر العام
بعد الخاص أولا ، ومن إلزامهم بما يسألون به ثم لانتقالهم مما يعلمون ،
ويقرون به إلى ما لا يعلمون وينكرون .

وفي ذكر الإنسان بعد عموم الخلق تكريم له ، كذكر الروح بعد
عموم الملائكة ، تنزل للملائكة والروح فيها ونحوه ، والإنسان هنا
الجنس بدليل الجمع في علق جمع علقه ، ولأنه أوضح دلالة عنده ،
ليستدل بنفسه من نفسه كما سيأتي .

وقوله (من علق) وهو جمع علقه ، وهي القطعة من الدم ، كالعرق
أو الخيط بيان على قدرته تعالى ، وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحيانا
فيما تلقى به الرحم ، ويعلمون بأنه مبدأ خلقه الإنسان .

فالقادر على إيجاد إنسان في أحسن تقويم من هذه العلقه ، قادر
على جعلك قارئاً وإن لم تكن تعلم القراءة من قبل ، كما أوجد الإنسان
من تلك العلقه ولم يكن موجوداً من قبل ، ولأن الذي يتعمد تلك
العلقه حتى تكتمل إنساناً يتعمدها بالرسالة .

وقد يكون في اختيار الإنسان بالذات وبخصوصه لتفصيل مرحلة

وجوده ، أن غيره من المخلوقات لم تعلم مبادئ خلقها كعلمهم بالإنسان ، ولأن الإنسان قد مر ذكره في السورة قبلها (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) ، فبين أنه من هذه العلة كان في أحسن تقويم ، ومن حسن تقويم إنزال الكتاب القيم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله ، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به الله ، ولم يبدأ من النطفة أو التراب ، لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه ، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان ، فقد تقذف في غير رحم كالحتم ، وقد تكون فيه ، ولا تكون مخلقة . اهـ .

وهذا في ذاته وجيه ، ولكن لا يبعد أن يقال : إن السورة في مستهل الوحي وبدايته ، فهي كالذي يقول : إذا كنت بدأت بالوحي إليه ولم يكن من قبل ، ولم يوجد منه شيء بالنسبة إليك ، فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علة ، بعد أن لم يكن شيئاً .

وعليه يقال : لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحي ، قد تركت أيضاً وهي فترة الرؤيا الصالحة ، كما في الصحيحين « أنه صلى الله عليه وسلم كان أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصالحة ، يراها فتأتى كفلق الصبح » فكان ذلك إلهاماً للنبوة وتمهيداً لها لمدة ستة أشهر ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة يراها

الرجل الصالح ، أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة ،
وهي نسبة نصف السنة من ثلاث وعشرين مدة الوحي ، ولكن الرؤيا
الصالحة قد يراها الرجل الصالح ، ومثل ذلك تماماً فترة النطفة ، فقد
تكون النطفة ولا يكون الإنسان ، كما تكون الرؤيا ولا تكون النبوة ،
أما العلقة فلا تكون إلا في رحم وقرار مكنون ، ومن ثم يأتي
الإنسان مخلقاً كاملاً ، أو غير مخلق على ما يقدر له .

فلما كانت فترة النطفة ليست ب لازمة لخلق الإنسان ، وكان مثلها
فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة ترك كل منها مقابل الآخر ، ويبدأ
الدليل بما هو الواقع المسلم على أن الله تعالى هو الخالق ، والخالق
للإنسان من علقه ، فكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل ، فالدليل
هو خلق الإنسان ، والمستدل به هو الإنسان نفسه ، كما في قوله
تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فيستدل لنفسه من نفسه على
قدرة خالقه سبحانه .

وإذا تم بهذا الاستدلال على قدرة الرب الخالق ، كان بعده إقامة
الدليل على صحة النبوة ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجاءت
للمسألة السادسة وهي إعادة القراءة في قوله : (اقرأ وربك الأكرم)
إذ أقام الدليل على أنك مرسل من الله تبليغ عنه وتقرأ باسمه ، فاعلم
أن تلك القراءة وهذا الوحي من ربك الأكرم ، والأكرم

قالوا : هو الذى يعطى بدون مقابل ، ولا انتظار مقابل ، والواقع أن مجيء الوصف هنا بالأكرم بدلا من أى صفة أخرى ، لما فى هذه الصفة من تلاؤم للسياق ، مالا يناسب مكانها غيرها لمظم المطاء وجزيل المنة .

فأولا : رحمة الخليفة بهذه القراءة التى ربطت العباد بربهم . وكفى

وثانياً : نعمة الخلق والإيجاد ، فهما نعمتان متكاملتان : الإيجاد من العدم بالخلق ، والإيجاد الثانى من الجهل إلى العلم ، ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه .

ثم تأتى المسألة الثامنة : وهى من الدلالة على النبوة والرسالة ، وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، سواء كان الوقف على : اقرأ ، وابتداء الكلام : وربك الأكرم الذى علم بالقلم . أو الوقف على الأكرم وابتداء الكلام . الذى علم بالقلم ، لأن من يعلم الجاهل بالقلم ، يعلم غيره بدون القلم بجامع التعليم بمد الجهل . فالقادر على هذا قادر على ذلك .

والقاسمة : بيان لهذا الإجمال حيث لم يبين ما الذى علمه بالقلم . فقال (علم الإنسان ما لم يعلم) وهذا مشاهد ملموس فى أشخاصهم

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) .

فالله الذى علم الإنسان مالم يعلم ، وكل ما تعلمه الإنسان فهو من الله تعلمونهم مما علمكم الله ، وهل الرسالة والنبوة إلا تعليم الرسول مالم يكن يعلم ؟ وبهذا تم إقامة الدليل على صحة النبوة ، أى الرسالة والرسول والمرسل ، وهى أسس الدعوة والبعثة الجديدة .

وقد اشتهر عند الناس أنه نبيء « باقرأ » وأرسل « بالمدثر » ولكن فى نفس هذه السورة معنى الرسالة ، لما قدمنا من أن القراءة باسم ربك ، إشعار بأنه مرسل من ربه إلى من يقرأ عليهم ، ففىها إثبات الرسالة من أول بدء الوحي .

تنبيه

فى قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) مبحث التعليم ومورد سؤال ، وهو إذا كان تعالى تمدح بأنه علم بالقلم وأنه علم الإنسان مالم يعلم ، فكان فيه الإشادة بشأن القلم ، حيث إن الله تعالى قد علم به ، وهذا أعلى مراتب الشرف مع أنه سبحانه قادر على التعليم بدون القلم ، ثم أورده فى معرض التكريم فى قوله : (ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وعظم المقسم عليه وهو نعمة الله على

رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي ، يدل على عظم المقسم به ، وهو القلم وما يسطرون به من كتابة الوحي وغيره .

وقد ذكر القلم في السنة أنواعاً متفاوتة ، وكلها بالغة الأهمية .

منها : أولها وأعلاها : القلم الذي كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، والوارد في الحديث « أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب » الحديث .

فعلى رواية الرفع ، يكون هو أول المخلوقات ثم جرى بالقدر كله ، وبما قدر وجوده كله .

ثانيها : القلم الذي يكتب مقادير العام في ليلة القدر من كل سنة ، للشار إليه بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ثالثها : القلم الذي يكتب به الملك في الرحم ما يخص العبد من رزق وعمل .

رابعها : القلم الذي بأيدي الكرام الكاتبين المنوه عنه بقوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى بالكتابة كما في قوله :

(كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون) إذا قلنا إن الكتابة في ذلك تستلزم قلماً ، كما هو الظاهر .

رابعاً : القلم الذي بأيدي الناس يكتبون به ما يعلمهم الله ، ومن أهمها أقلام كتاب الوحي ، الذين كانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفاية سليمان لبليس .

وقوله تعالى : (الذي علم بالقلم) شامل لهذا كله ، إذا كان هذا كله شأن القلم وعظم أمره ، وعظيم المنة به على الأمة ، بل وعلى الخليقة كلها .

وقد افتتحت الرسالة بالقراءة والكتابة ، فلماذا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي أعلن عن هذا الفضل كله للقلم ! لم يكن هو كاتباً به ، ولا من أهله بل هو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، كما في قوله : (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) .

والجواب : أنا أشرنا أولاً إلى ناحية منه ، وهي أنه أكل للمعجزة ، حيث أصبح النبي الأمي معلماً كما قال تعالى : (يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب الحكمة) .

وثانياً : لم يكن هذا النبي الأمي مُفْعِلاً شأن القلم ، بل عفى به كل

للعناية ، وأولها وأعظمها أنه اتخذ كتاباً للوحى يكتبون ما يوحى إليه
بين يديه ، مع أنه يحفظه ويضبطه ، وتعهد الله له بحفظه وبضبطه
في قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) حتى الذى
ينساه بموضه الله بخير منه أو مثله ، كما فى قوله تعالى : (ما ننسخ من
آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) ووعد الله تعالى بحفظه فى
قوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ومع ذلك ، فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة
كتاب ، وهذا غاية فى العناية بالقلم .

وذكر ابن القيم من الكتاب الخلفاء الأربعة ، ومعهم تمة سبعة
عشر شخصاً ، ثم لم يقتصر صلى الله عليه وسلم فى عنايةه بالقلم والتعليم
به عند كتابة الوحى ، بل جعل التعليم به أعم ، كما جاء خبر عبد الله
ابن سعيد بن العاص « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن
يعلم الناس الكتابة بالمدينة ، وكان كاتباً محسناً » ذكره صاحب
الترتيبات الإدارية عن ابن عبد البر فى الاستيعاب .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال « علمت ناساً من
أهل الصفة الكتابة والقرآن » .

وقد كانت دعوته صلى الله عليه وسلم ، الملوك إلى الإسلام
بالكتابة كما هو معلوم .

وأبعد من ذلك ، ما جاء في قصة أسارى بدر ، حيث كان يقادى بالمال من يقدر على الفداء ، ومن لم يقدر . وكان يعرف الكتابة كانت مفاداته أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ، فكثرت الكتابة في المدينة بعد ذلك .

وكان ممن تعلم : زيد بن ثابت وغيره .

فإذا كان المسلمون وهم في بادىء أمرهم وأحوج ما يكون إلى المال والأسلح ، بل واسترقاق الأسارى فيقدمون تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله ، ليدل على أمرين :

أولهما : شدة وزيادة العناية بالتعليم .

وثانيهما : جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا يتعلق له بالدين ، كما يوجد الآن من الأمور الصناعية ، في الهندسة ، والطب ، والزراعة ، والقتال ، ونحو ذلك .

وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك ، حتى كان عدد كتاب الوحي اثنين وأربعين رجلاً ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام ، وجاء الفص على الكتابة في توثيق الدين في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا قداميتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) الآية ، وهي أطول آية في كتاب الله تعالى رسمت فيهم كتابة العدل الحديثة كلها .

وإذا كان هذا شأن القلم وتعلمه ، فقد وقع الكلام في تعليمه للنساء على أنهن شقائق الرجال في التكليف والعلم ، فهل كن كذلك في تعلم الكتابة أم لا ؟

مبحث تعليم النساء الكتابة

وقع الخلاف بسبب نصين في المسألة :

الأول : حديث الشفاء بنت عبد الله قالت « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة ، فقال لي : ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة ؟ » رواه المحدث في المنتقى عن أحمد وأبيه داود . وقال بعده : وهو دليل على جواز تعلم النساء الكتابة .

والثاني : حديث عائشة رواه الحاكم وصححه البيهقي مرفوعا . لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة - يعني النساء - وعلموهن الغزل وسورة النور « قال الشوكاني في نيل الأوطار ، على حديث المنتقى وحديث عائشة : إن حديث الشفاء دليل على جواز تعليمهن ، وحديث الهيثمي : محمول على من يخشى من تعليمها الفساد ، أدنى تعليم للكتابة والقراءة .

أما تعليم العلم فليس محل خلاف ، والواقع أن هذه المسألة

واضحة المعالم ، إذا نظرت كالآتي :

أولا : لاشك أن العلم من حيث هو خير من الجهل ، والعلم قسمان : علم سماع وتلقى ، وهذه سيرة زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاتئة كانت القدوة الحسنة الحسنة في ذلك في فقه الكتاب والسنة ، وكم استدركت على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وهذا مشهور ومعلوم .

والثاني : علم تحصيل بالقراءة والكتابة ، وهذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها ، فمن رأى أن تعليمهن مفسدة منعه ، كما روى عن علي رضي الله عنه : أنه مرّ على رجل يعلم امرأة الكتابة . فقال : لا تزدد للشر شراً .

وروى عن بعض الحكماء : أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة ، فقال : أفعى تسقى سما ، وأنشدوا الآتي :

ما للنساء وللكتا بة والعمالة والخطابه

هذا لنا ولهن منا أن يبتن على جنابه

ومثله ما قاله المنفلوطي :

يا قوم لم تخلق بنات الوري للدرس والطرس وقال وقيل

لها علوم ولها غيرها فعلموها كيف نشر الفسيل
والثوب والإبرة في كفها طرس عليه كل خط جميل

وهذا نظر إلى تعليمهم وموقفهم من زاوية واحدة . كما قال
الشاعر الآخر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذبول

مع أننا وجدنا في تاريخ المرأة نسوة شاركن في القتال ، حتى عائشة
رضي الله عنها كانت تسقى الماء ، وأم سلمة تداوى الجرحى ، إذ لا يؤخذ
قول كل منهما على عمومه .

قال صاحب التراتيب الإدارية : أورد القلنشدى أن جماعة من
النساء كن يكتبن ، ولم ير أن أحداً من السلف أنكر
عليهن . ١٠ هـ .

ومن المعلوم رواية « كريمة » لصحيح البخارى ، وهى من الرواية
المعتبرة عن المحدثين ، فقد رأيت بنفسى وأنا مدرس بالأحساء نسخة
لسنن أبي دواد عند آل المبارك وعليها تعليق لأخت صلاح الدين
الأيوبي ، وذكر صاحب التراتيب الإدارية قوله : وقد ثبت عن
كثير من نساء أهل الصحراء الأفريقية خصوصاً شنقيط : شنقط ، أى

شنقيط ، وهى المعروفة الآن بموريتانيا ، وتيتبكتو ، وقبيلة كنت
المعجب ، حتى جاء أن الشيخ المختار الكنتى الشهير ، ختم مختصر
خليل للرجال ، وختمته زوجته فى جهة أخرى للنساء . ا ه .

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن فى بعثة الجامعة الإسلامية لإفريقيا ،
سمعنا ونحن فى مدينة أطار وهى على مقربة من مدينة شنقيط المذكورة ،
سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقاً مائتا فتاة يحفظن
المدونة كاملة .

وقد سمعت فى الآونة الأخيرة ، أنه كانت توجد امرأة تدرس فى
المسجد النبوى ، الحديث ، والسيرة ، واللغة العربية وهى
شنقيطية .

ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على ضوء واقع الحياة
اليوم وفى كل يوم ، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة ،
ولكن المشكلة تكمن فى منهج تعليمها ، وكيفية تلقى العلم

فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصراً على النواحي
التي يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكفى .

أما كيفية تعليمها ، فإن مشكلاتها إنما جاءت من الاختلاط فى

مدرجات الجامعات ، وفصول الدراسة في الثانويات في فترة المراهقة ، وقلة المراقبة ، وفي هذا يكن الخطر منها وعليها في آن واحد ، فإذا كان لابد من تعليمها ، فلا بد أيضاً من المنهج الذي يحقق الغاية منه ويضمن السلامة فيه ، والتوفيق من الله سبحانه .

أما ما يخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة ، فقد وجد ما هو أقرب وأسرع منها لمن شئت وهو الهاتف في البيوت ، فإنه في متناول المتعلمة والجاهلة . والمدار في ذلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية .

وقد أوردت هذا المبحث استطراداً لبيان وجهة النظر في هذه المسألة ، اقتباساً من قوله تعالى : (الذي علم بالقلم) وبالله التوفيق

مسألة

بيان أولية الكتابة عامة والمربية خاصة ، وأول من خط بالقلم على الأرض :

جاء في المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية المطبوع سنة ١٣٠٤ مانصه : وإنما أصول الكتابة اثني عشر على ما قاله ابن خلكان ، وتبعه كثير من المؤلفين ، كالدميري في حياة الحيوان ، والحلي في السيرة وغيرها .

قال : إن جميع كتابات الأمم من سكان المشرق والمغرب اثنتى عشرة كتابة ، خمس منها ذهب من يعرفها وبطل استعمالها وهى : الحميرية ، والقبطية ، والبربرية ، والأندلسية ، واليونانية ، وثلاث منها فقد من يعرفها فى بلاد الإسلام ومستعملة فى بلادها ، وهى السريانية والفارسية والبرانية والعربية . اهـ . كلامه باختصار وفيه ما فيه .

قال : والحميرية : هى خط أهل اليمن قوم هود وهم عاد الأولى ، وهى عاد إرم ، وكانت كتابتهم تسمى المسند الحميرى ، وكانت حروفها كلها منفصلة ، وكانوا يتمتعون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم ، حتى جاءت دولة الإسلام ، وليس بجميع اليمن من يكتب ويقرأ .

وقال المقرئ فى الخطط : القلم المسند ، هو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد . اهـ .

والمعروف الآن أن الحروف المستعملة فى الكتابة فى العالم كله بصرف النظر عن اللغات المنطوق بها هى ثلاثة فقط ، الخط العربى بحروف ألف باء وبها لغات الشرق . والحروف اللاتينية وبها لغات أوروبا والحروف الصينية .

أما اللغات ، وهى فوق ألفى لغة « والأمهرية بحرف قريب من اللاتينى » .

أما أولية الكتابة العربية ، فقال صاحب المطالع النصرية : فقد اختلفت الروايات فيها ، كما قاله الحافظ السيوطي في الأوائل .

وكذا في المزهري في النوع الثاني والأربعين ، قال : إنه يرى أن آدم عليه السلام أول من كتب بالقلم ، وأن الكتابات كلها من وضعه ، كان قد كتبها في طين وطبعه ، يعني أحرقه ودفنه قبل موته بثلاثمائة سنة ، وبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه ، وكانت اثني عشر كتاباً ، فتعلموه بإلهام إلهي .

وقيل : إن أول من خط بالعربي إسماعيل عليه السلام . ١ هـ .

وقد أطلال السيوطي في المزهري الكلام في هذه المسألة ، نقلا عن ابن فارس الشدبامي .

وعن المسكري عن الأوائل في ذلك أقوال ، فقول إسماعيل ، وقيل : مرار بن مرة ، وهما من أهل الأنبار ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كتبت أبا جاد وخطي مرامز وصورت سربالي ولست بكاتب

وقيل : أول من وضعه أبجد ، وهوز وخطي ، وكلمن ، وصدفص ، وقرشت ، وكانوا ملوكا فسمي الهجاء بأسمائهم .

وذكر عن الحافظ أبي طاهر السلفي بسنده عن الشعبي قال :
 أول من كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس ، تعلم من أهل
 الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار .

وقال أبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف : حدثنا عبد الله
 ابن محمد الزهري حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال : سألتنا
 المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : تعلمنا من أهل الحيرة ،
 وسألنا أهل الحيرة : من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الأنبار ،
 ثم قال ابن فارس : والذي نقوله إن : الخط توقيفي ، وذلك لظاهر قوله
 تعالى : (الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وقوله : (ن والقلم وما يسطرون) .

وإذا كان هذا فليس ببعيد ، أن يوقف الله آدم أو غيره من
 الأنبياء عليهم السلام على الكتابة ، فأما أن يكون شيئاً اخترعها
 اخترعه من تلقاء نفسه ، فهذا شيء لا نعلم صحته إلا من خبر صحيح .

قال السيوطي : قلت يؤيد ما قاله من التوقيف ، ما أخرجه ابن
 شقة من طريق شعيب بن جبير عن ابن عباس قال : « أول كتاب
 أنزله الله من السماء أبا جاد » .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول من خط بالقلم لإدريس عليه السلام » . ١٠ هـ .

وقد أطال النقول في ذلك مما يرجع إلى الأول ، وليس فيه نقل صحيح يقطع به .

وقد أوردنا هذه النبذة بخصوص كلام ابن فارس ، من أن تعليم الكتابة أمر توقيفي ، وما استدلل به السيوطي من أول كتاب أنزله الله من السماء ، فإن في القرآن ما يشهد لإمكان ذلك ، وهو أن الله تعالى أنزل الصحف لموسى مكتوبة .

وفي الحديث « إن الله كتب الألواح لموسى بيده ، وغرس جنة عدن بيده » .

وإذا كان موسى تلقى ألواحاً مكتوبة ، فلا بد أن تكون الكتابة معلومة له قبل إنزالها ، وإلا لا عرفها .

أما المشهور في الأحرف التي نكتب بها الآن ، فكما قال السيوطي في الزهر ، ونقله عنه صاحب المطالع المصرية مانعه :

المشهور عند أهل العلم ما رواه ابن الكلبي عن عوانة ، قال : أول من كتب بخطنا هذا . وهو الجزم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدره ، وعامر بن حذرة . كما في التماموس . وهم من عرب طيء تعلموه

من كتاب الوحي لسيدنا هود عليه السلام ، ثم عثوه أهل الأنبار ،
ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن
عبد الملك أخو أ كيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكانت
له صحبة بحرب بن أمية فعمل حرب منه ، ثم سافر معه بشر إلى
مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي حفيان . فعمل معه جماعة
من أهل مكة .

فهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الإسلام .

ولذا قال رجل كندى من أهل دومة الجندل ، يمن على قريش
بذلك :

لا تبحدوا نعماء بشر عليكم فقد كان ميمون النقية أزهر
أناكم بخط الجزم حتى حفظتموها من المال ما قد كان شتى مبعثرا
وأثقتموا ما كان بالمال مهملًا وطأمنتوا ما كان منه مهترا
فأجريت الأقاليم عودا وبداة . وضاهيت كتاب كسرى وقوصرا
وأغنيتم عن مسند إلى حميرا ومازبرت في الصحف أقلام حميرا

قال : وكذلك ذكر النووى في شرح مسلم نقل عن الفراء ، أنه
قال : إنما كتبوا الربا في المصحف بالواو ، لأن أهل الحجاز تعلموا

الخط من أهل الحـيرة ، ولغتهم الربوا ، فعلموهم صورة الخط على لغتهم . ا هـ .

تنبيه آخر

قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) لا يمنع تعليمه تعالى بـفير القلم ، كما فى قصة الخضر مع موسى عليه السلام فى قوله تعالى : (فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً) .

وكما فى حديث « نفث فى روعى أنه لن تموت نفس ، حتى تستكمل رزقها وأجلها » الحديث .

وكما فى حديث الرقية بالفاتحة لمن لدغته العقرب فى قصة السرية المعروفة ، فلما سأله صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أنها رقية ؟ » قال : شئ نفث فى روعى .

وحديث علىّ لما سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم ؟ قال : لا ، إلا فهما يؤتيه الله من شاء فى كتابه . وما فى هذه الصحيفة » .

وقوله : واتقوا الله ويعلمكم الله . نسأل الله علم ما لم نعلم ، والعمل بما نعلم . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْفَانٌ . أَلَمْ يَرَأَهُ اسْتَفْتَنِي ﴾ .

ظاهر هذه الآية أن الاستفتاء موجب للطغيان عند الإنسان ، ولفظ الإنسان هنا عام ، ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغنى ولا يطغى ، فيكون هذا من العام المخصوص ، ومخصمه إما من نفس الآية أو من خارج عنها ، ففي نفس الآية ما يفيد قوله تعالى : (أن رآه) أى إن رأى الإنسان نفسه ، وقد يكون رأيا واهما ويكون الحقيقة خلاف ذلك ، ومع ذلك يطغى ، فلا يكون الاستفتاء هو سبب الطغيان .

ولذا جاء في السنة : ذم المائل المتكبر ، لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى ، فهو معنى في نفسه لا بسبب غناه .

أما من خارج الآية ، فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى : (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى) ، فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان ، وكما فى قوله (الذى جمع مالا وعدده) يحسب أن ماله أخذه كلا) الآية .

ومفهومه : أن من لم يؤثر الحياة الدنيا ، ولم يحسب أن ماله أخذه ، لن يطفئ ماله ولا غناه ، كما جاء فى قصة النفر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع من بنى إسرائيل .

وقد نص القرآن على أوسع غنى فى الدنيا فى نبي الله سليمان ، (٢٤ - أضواء البيان ج ٩)

آناه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع هذا قال : (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردها عليّ) الآية .

وقصة السحابة الموجودة في الموطأ : لما شغل بيستانه في الصلاة ، حين رأى الطائر لا يجد فرجة من الأغصان ، ينفذ منه ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « يا رسول الله : إني فتنت ببستان في صلاتي ، فهو في سبيل الله » فعرفنا أن الغنى وحده ليس موجبا للطغيان ، ولكن إذا صحبه إثارة الحياة الدنيا على الآخرة ، وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى . إن النفس لأماراة بالسوء . وأنه لا يبقى منه إلا التهذيب بالدين كما قال تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) الآية .

وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) ، وكذلك قال قارون (إنما أوتيته على علم عندي) ، وقال : ثالث الثلاثة من بني إسرائيل « إنما ورثته كابرأ عن كابر ، بخلاف المسلم » إلى آخره . فلا يزيده غناه إلا تواضعا وشكرا للنعمة ، كما قال نبي الله سليمان (قال هذا من فضل ربي ليهلوني بالشكر أم أكفر ، ومن

شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم) وقد نص
في نفس السورة أنه شكر الله (فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب
أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل
صالحا ترضاه ، وأدخاني برحمتك في عبادك الصالحين) .

وفي العموم قوله : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة . قال
رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن
أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من
المسلمين) .

وقد كان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب
المال الوفير فلم يزدحم إلا قرباً لله ، كعمان بن عفان رضي الله عنه ،
وعبد الرحمن بن عوف ، وأمثالهم ، وفي الآية ربط لطيف بأول
السورة ، إذا كان خلق الإنسان من علق ، وهي أحوج ما يكون
إلى لطف الله وعنايته ورحمته في رحم أمه ، فإذا بها مضفة ثم عظام ،
ثم تكسى لحماً ، ثم تنشأ خلقاً آخر ، ثم يأتي إلى الدنيا طفلاً
رضيماً لا يملك إلا البكاء ، فيجري الله له نهريْن من لبن أمه ،
ثم ينبت له الأسنان ، ويفتق له الأمعاء ، ثم يشب ويصير غلاماً
يافعاً ، فإذا ما ابتلاه ربه بشيء من المال أو العافية ، فإذا هو ينسى
كل ما تقدم ، وينسى حتى ربه ويعطى ويقبّارز جده حتى مع الله

خالقه ورازقه ، كما رد عليه تعالى بقوله : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) الآية .

ومما فى الآية من لطف التعبير قوله تعالى : (أن رآه استغنى) أى أن اللطيفان الذى وقع فيه عن وهم ، تراءى له ، أنه استغنى سواء بماله أو بقوته . لأن حقيقة المال ولو كان جبالا ، ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق .

وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية ، فإذا مرض فماذا ينفعه ماله ، وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من الله عليه .

ومن هذه الآية أخذ بعض الناس ، أن الفنى الشاكر أعظم من الفقير الصابر ، لأن الفنى موجب للطفيان .

وقد قال بعض الناس : الصبر على العافية ، أشد من الصبر على الحاجة .

قوله تعالى : ﴿ لِيَنْتَهِ لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

قال الشيخ رحمه الله تعالى عليه وعليه في دفع إيهام الاضطراب :
أسند الكذب إلى الناصية ، وفي مواضع أخرى أسنده إلى غير
الناصية ، كقوله : (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات
الله وأولئك هم الكاذبون) .

وذكر الجواب بأنه أطلق الناصية وأراد صاحبها على أسلوب
لإطلاق البعض وإيراد الكل ، وذكر الشواهد عليه من القرآن
كقوله تعالى : (تبت يدا أبي لهب وتب) .

والذي ينبغي التنبيه عليه من جهة البلاغة : أن البعض الذي
يطلق ويراد به الكل ، لا بد في هذا البعض من مزيد مزية المعنى
المساق فيه الكلام .

فمثلا هنا ذم الكذب وأخذ الكاذب بكذبه ، فجاء ذكر
الناصية وهي مقدم شعر الرأس ، لأنها أشد نكارة على صاحبها
ونسكلا به ، إذ الصديق يرفع الرأس والكاذب ينكسه ذلة وخزيا .

فكانت هي هنا أنسب من اليد أو غيرها ، بينما في أبي لهب تطاول بماله ، والفرض مذمة ماله وكسبه الذي تطاول به ، واليد هي جارية الكسب وآلة التصرف في المال ، فكانت اليد أولى فيه من الناصية .

وهكذا كما يقولون : بث الأمير عيونه : يريدون جواسيس له ، لأن المهن من الإنسان أهم ما فيه لمهنته تلك . ولم يقولوا : بث أرجله ولا رؤوسا ولا أيد ، لأنها كلها ليست كالمين في ذلك .

ومن هذا القبيل (قلوب يومئذ واجفة) ، (يا أيها النفس مطمئنة) .

لأن القلب هو مصدر الخوف والنفس هي محط الطمأنينة ، على أن النفس جزء من الإنسان ، وهكذا ، ومنه الآتي (واسجد واقترب) أطلق السجود وأراد الصلاة ، لأن السجود أخص صفاتها .

قوله تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .

ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) وقوله : في وصف أصحابه رضي الله عنهم : (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فقوله :

(يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فى معنى يتقربون إليه يبين قوله :
(واسجد واقترب) .

وهذا مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله ، حيث
وجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم من أول الأمر ، كما بين تعالى
فى قوله : (واستمعينوا بالصبر والصلاة) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد إلى الله
وهو ساجد » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

الضمير في أنزلناه للقرآن قطعاً .

وحكى الألوسي عليه الإجماع ، وقال : ما يفيد أن هناك قولاً
ضميماً لا يستلزم من أنه لجبريل .

وما قاله عن الضمف لهذا القول ، يشهد له السياق ، وهو قوله
تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) .

والمشهور : أن الروح هنا هو جبريل عليه السلام ، فيكون الضمير
في أنزلنا لغيره ، وجيء بضمير الفية ، تعظيماً لشأن القرآن ، وإشماراً
بملو قدره .

وقد يقال : ذكر سورة القدر قبلها مشعرة به في قوله (اقرأ باسم
ربك) ثم جاءت (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) أى القرآن للقراءة والضمير المتصل
في إِنَّا ، ونا في إِنَّا أنزلناه مستعمل للجمع والتعظيم ، ومثلها نحن ،
وقد اجتمعا في قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) والمراد بهما هنا
التعظيم قطعاً لاستحالة التعدد أو لإرادة معنى الجمع .

فقد صرح في موضع آخر باللفظ الصريح في قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) والمراد به القرآن قطعاً ، فدل على أن المراد بتلك الضمائر تعظيم الله تعالى .

وقد بصر بذلك المعنى وبالاختصاص تقديم الضمير المتصل إنا ، وهذا المقام مقام تعظيم واختصاص لله تعالى سبحانه ، ومثله (إنا أعطيناك الكوثر) ، وقوله (إنا أرسلنا نوحاً) (إنا نحن نحي ونميت) وإنزال القرآن منه عظمى .

وقد دل على تعظيم المنة وتمظيم الله سبحانه في قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) ، فقال : كتاب أنزلناه بضمير التعميم ، ثم قال في وصف الكتاب : مبارك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنصيص على أنه للتعظيم عند الكلام على آية من هذه (كتاب أنزلناه إليك مبارك) .

والواقع أنه جاءت الضمائر بالنسبة إلى الله تعالى بصيغ الجمع للتعظيم وبصيغ الأفراد ، فمن صيغ الجمع ما تقدم ، ومن صيغ الأفراد قوله (إني جاعل في الأرض خليفة) ، وقوله (إني خالق بشراً من طين) ، وقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) .

ويلاحظ في صيغ الأفراد : أنها في مواضع التعظيم والإجلال ، كالأول في مقام خلق البشر من طين ، ولا يقدر عليه إلا الله .

والثاني : في مقام أنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة ، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه ، فسواء جرى بضمير بصيغة الجمع أو الإفراد ، ففيها كلها تعظيم لله سبحانه وتعالى سواء بنصها ، راصل الوضع أو بالقريفة في السياق .

ثم اختلف في المنزل ليلة القدر ، هل هو الكل أو البعض ؟

ف قيل : وهو رأى الجمهور أنه أوائل تلك السورة فقط أى بداية الوحي بالقرآن ، وهو مروي عن ابن عباس ، قال : « ثم تعالى نزول الوحي ، بعد ذلك وكان بين أوله وآخره عشرون سنة » .

وقيل : المنزل في تلك الليلة ، هو جميع القرآن جملة واحدة ، وكله إلى سماء الدنيا ، ثم صار ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً حسب الوقائع .

وهذا الأخير هو رأى الجمهور كما قدمنا ، وقد اختاره الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وحكاه الألويسي وحكى عليه الإجماع .

وعن ابن حجر في فتح الباري ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول يجمع فيه بين القولين الأخيرين ، وهو أنه لا منافاة بين القولين ، ويمكن الجمع بينهما ، بأن يكون نزل جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، وبدء نزول أوله (اقرأ باسم ربك) في ليلة القدر .

وقد أثير حول هذه المسألة جدال ونقاش كلامي حول كيفية نزول القرآن ، وأدخلوا فيها القول بخلق القرآن ، وأن جبريل نقله من اللوح المحفوظ ، وأن الله لم يتكلم به ، عند نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ذلك ، وكتب جوابه وطبع ، فكان كافياً . وقد نقل فيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبين أن الله تعالى تكلم به عند وحيه ، ورد على كل شبهة في ذلك .

والواقع أنه لا تعارض كما تقدم ، بين كونه في اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا جملة ، ونزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً ، لأن كونه في اللوح المحفوظ ، فإن اللوح فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة ، ومن جملة ذلك القرآن الذي سينزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

ونزوله جملة إلى سماء الدنيا ، فهو بمثابة نقل جزء مما في اللوح وهو جملة القرآن ، فأصبح القرآن موجوداً في كل من اللوح المحفوظ كغيره مما هو فيه ، وموجوداً في سماء الدنيا ثم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً .

ومعلوم أنه الآن هو أيضاً موجود في اللوح المحفوظ ، لم يخل منه

اللاوح ، وقد يستدل لإنزاله جملة ثم تنزيله منجماً بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لأن نزل بالتضعيف تدل على التكرار كقوله (تنزل الملائكة) أى فى كل ليلة قدر .

وقد جاء (أنزلناه) فتدل على الجملة .

وقد بينت السنة تفصيل تنزيله مفرقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله : كأنه سلسلة على صفوان ينقذهم ذلك ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير » الحديث فى صحيح البخارى .

وفى أبى داود وغيره « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماوات عاصلة كجر السلسلة على الصفوان » .

وعلى هذا يكون القرآن موجوداً فى اللاوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون ، ثم جرى نقله إلى سماء الدنيا جملة فى ليلة القدر ، ثم نزل منجماً فى عشرين سنة . وكلما أراد الله إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله ، فيسمعه جبريل عليه السلام عن الله تعالى . ولا منافاة بين تلك الحالات الثلاث . والله تعالى أعلم .

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول الوحي وتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي .

وقيل : معنى (أنزلناه في ليلة القدر) أى أنزلنا القرآن في شأن ليلة القدر تعظيماً لها ، فلم تكن ظرفاً على هذا الوجه .

والواقع : أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكناً إلا أن ما بعده يغنى عنه ، لأن إعظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلاً ، وهو ما بعدها مباشرة في قوله : (وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) إلى آخر السورة .

وعليه ، فيكون أول السورة في شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله ، وآخر السورة في ليلة القدر وبيان منزلتها .

وقد ذكرت ليلة القدر مبهمه ، ولكن جاء في القرآن ما يمين الشهر التي هي فيه ، وهو شهر رمضان لقوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان بيان ذلك ، وأنها الليلة التي فيها يبرم كل أمر حكيم ، وليست ليلة النصف من شعبان كما يزعم بعض الناس .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، بيان الحكمة من إنزاله

مفرقاً عند قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

القدر : الرفعة ، والقدر : بمعنى المقدار .

قال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعاليه في مذكرة الإملاء
ووجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان :

أحدهما : أن معنى القدر الشرف والرفعة ، كما تقول العرب : فلان ذو قدر ، أى رفعة وشرف .

الوجه الثانى : أنها سميت ليلة القدر ، لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ، ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا) .
وهذا المعنى قد ذكره رحمه الله تعالى علينا وعاليه فى سورة الدخان من الأضواء .

والواقع أن فى السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة ، وهو قوله : (وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) .

فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم كقوله (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة) ، وقوله (خير من ألف شهر) فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها ، إذ أنها تعدل فى الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة ، أى فوق متوسط أعمار هذه الأمة .

وأيضاً كونها اختصت بإنزال القرآن فيها ، وبتنزل الملائكة والروح فيها ، وبكونها سلاماً هي حتى مطلع الفجر ، وفيه الكفاية بما لم تختص ونشاركها فيه آيلة من ليالى الصعدة .

وعليه : فلا مانع من أن تكون سميت بليلة القدر ، لكونها محلاً لتقدير الأمور في كل سنة ، وأنها بهذا وبغيره علا قدرها وعظم شأنها ، والله تعالى أعلم ، تذكير بنعمة كبرى .

إذا كانت أعمال العبد تتضاعف في تلك الليلة ، حتى تكون خيراً من ألف شهر ، كما في هذا النص الكريم . فإذا صادفها العبد في المسجد النبوي يصلي ، وصلاة فيه بألف صلاة ، فكم تكون النعمة وعظم المنة ، من المنعم المتفضل سبحانه ، إنه لما يعلى الهمة ويعظم الرغبة .

وقد اقتضت على ذكر المسجد النبوي دون المسجد الحرام ، مع زيادة المضاعفة فيه ، لأن بعض المفسرين قال بمضاعفة السيئة فيها .

كذلك أي أن المعصية في ليلة القدر كالمعصية في ألف شهر ، . والمسجد الحرام يحاسب فيه العبد على مجرد الإرادة ، فيكون الخطر أعظم ، وفي المدينة أسلم .

ولعل مما يؤيد ذلك أن ليالى القدر كلها ، كانت لرسول الله

صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وقد أثبتنا أهل السنة كافة ، وادعت
الشيعية نسخها ورفعها كاية ، وهذا لا يلتفت إليه لصحة النصوص
وشبه المتواترة .

تنبيه

لم يأت تحديد لتلك الليلة من أى رمضان تكون ، وقد أكثر
العلماء في ذلك القول وإيراد النصوص .

فالأقوال منها على أعم ما يكون ، من أنها في عموم السنة ،
وهذا لم يأت بجديد ، وهو عن ابن مسعود وإنما أراد الاجتهاد .

ومنها : أنها في عموم رمضان ، وهذا حسب عموم نص القرآن .

ومنها : أنها في العشر الأواخر منه ، وهذا أخص من
الذي قبله .

ومنها : أنها في الوتر من العشر الأواخر ، وهذا أخص من
الذي قبله .

ومنها : أنها في آحاد الوتر من العشر الأواخر .

فقيل : في إحدى وعشرين .

وقيل : ثلاث وعشرين .

وقيل : خمس وعشرين .

وقيل : سبع وعشرين .

وقيل : تسع وعشرين .

وقيل : آخر ليلة من رمضان على التعمين ، وفي كل من ذلك
نصوص .

ولكن أشهرها وأكثرها وأصحها ، ما جاء أنها في سبع وعشرين ،
وإحدى وعشرين ، ولا حاجة إلى سرد النصوص الواردة في كل
ذلك ، فلم يبق كتاب من كتب التفسير إلا ذكرها ، ولا سيما ابن
كثير والقرطبي .

تنبيه

إذا كانت كل النصوص التي وردت في الوتر من المشر الأواخر
صحيحة ، فإنه لا يبعد أن تكون ليلة القدر دائرة بينها ، وليست
بلازمة في ليلة منها ولا تخرج عنها ، فقد تكون في سنة هي ليلة
إحدى وعشرين ، بينما في سنة أخرى ليلة خمس أو سبع وعشرين ،

وفي أخرى ليلة ثلاث أو تسع وعشرين ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

وقد حكى هذا الوجه ابن كثير عن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، وقال : وهو الأشبه ، والله تعالى أعلم .

وقد قيل : إنه صلى الله عليه وسلم قد أنسيها ، لتجتهد الأمة في الشهر كله أو في العشر كلها ، وما يؤكد أنها في العشر الأواخر اعتكافه صلى الله عليه وسلم ، التماساً لليلة القدر .

وقد جاء في فضلها ما استفاضت به كتب الحديث والتفسير ، ويمكن فيها نص القرآن الكريم .

وفي هذه الليلة مباحث عديدة يطول تنهها ، منها ما يذكر من أماراتها .

ومنها : محاولة البمض استخراجها من القرآن .

ومنها : علاقتها بحكم بنى أمية ، وليس على شيء من ذلك نص يمكن التعميل عليه ، لذا لا حاجة إلى إيراده ، اللهم إلا ما جاء في بمض أمارات نهارها صبيحتها ، حيث جاء التنويه عن شيء منه في الحديث « أرويتني أسجد صبيحتها في ماء وطن » .

فذكروا من علامات يومها أن تطلع الشمس بيضاء ، وقالوا :

لأن أنوار الملائكة عند صعودها ، تتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء ، وهذا مروي عن أبي في صحيح مسلم .

ومنها : اعتدال هوائها وجوها ونحو ذلك ، وما يمكن أن يكون له صلة بالسورة ذاتها ، ما حكاه ابن كثير أن بعض السلف ، أراد استخراجها من كتاب الله في نفس السورة ، فقال : إن كلمة هي في قوله : (سلام هي) تقع السابعة والمشرين من عدد كلماتها ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

وقيل أيضا : إن حروف كلمة ليلة القدر تسعة أحرف ، وقد تكررت ثلاث مرات ، فيكون مجموعها سبعة وعشرين حرفاً ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

ولعل أصوب ما يقال : هو ما قدمنا من أنها تقصل في ليالي الوتر من المشر الأواخر ، ولا تخرج عنها . والله تعالى أعلم^(١) .

(١) ومن أهم مباحثها ما جاء عن عائشة رضى الله عنها « ماذا أقول إن أنا صادقتها يا رسول الله ؟ قال : قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » ، وهذا على إيجازه جامع لخبري الدنيا والآخرة ، فالمأفية في الدنيا سمادة ، وفي الآخرة نجاة .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾

قيل : الروح هو جبريل ، كما في قوله : (فنفتخنا فيها من روحنا) ويكون فيها أى في جماعة الملائكة ، أو معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام .

وقيل : إن الروح نوع من الملائكة مستقل ، ويكون فيها ظرف للنزول أى في تلك الليلة .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .

الأمر يكون واحد الأمور وواحد الأوامر ، والذي يظهر أنه شامل لهما معا ، لأن الأمر من الأمور لا يكون إلا بأمر من الأوامر (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) .

ويشهد له ما جاء في شأنها في سورة الدخان (فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا) .

والذي يفرق من الأمر ، هو أحد الأمور . حيث يفصل بين الخير والشر والضر والنفع إلى آخره ، ثم قال : (أمراً من عندنا) كما أشار إليه السياق (لا إله إلا هو يحيى ويميت) ، فكل أمر من

للأمر يقتضى أمراً من الأوامر ، وهذا يمكن أن يكون من الألفاظ
للشركة المستعملة في معنيها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

قيل - سلام ، هي أى إن الملائكة تسلم على كل مؤمن لقيته -

وقيل : سلام ، هي أى كل أمر فيها فهو سلام ، ولا يصاب أحد
فيها بسوء ، وعلى كل فلا تعارض بين القولين ، فالأول جزء من
الثانى ، لأن الثانى يحملها ظرفاً لكل خير ، وينبئ عنها كل شر ،
ومن الخير العظيم ، سلام الملائكة على المؤمنين .

لطيفة

كون إنزال القرآن هنا في الليل دون النهار ، مشعر بفضل
اختصاص الليل .

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره ، فمن القرآن قوله تعالى :
(سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً) ، ومنه قوله (ومن الليل فتهجد به
نافلة لك) (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود إن ناشئة الليل
هي أشد وطأ وأقوم قيلاً) . وقوله : (كانوا قليلاً من الليل
ما يجمعون) .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان ثلث الليل
الآخر ، ينزل ربنا إلى سماء الدنيا » الحديث .

وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية ، وبتجليات
الرب سبحانه لمعباده ، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون
الليل ، وزهفته أقوى على استحضار القلب وصفائه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبَيْتَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البينة

قال الألوسي : وتسمى سورة القيامة ، وسورة البلد ، وسورة المنافكين ، وسورة البرية ، وسورة لم يكن .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ : رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا
صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . فِيهَا كُتِبَ قِیمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۝﴾ .

ذكر هنا الذين كفروا ، ثم جاءت من ، وجاء بعدها أهل
الكتاب والمشركين ، مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلا من أهل
الكتاب والمشركين ، كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من
أهل الكتاب لوجود العطف ، وأن أهل الكتاب ليسوا من
المشركين .

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير ، وانفقوا

على : أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وأن المشركين هم عبدة الأوثان ، والكفر يجمع القسمين .

وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى ، وليكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضاً أم لا ؟

فبين الفريقين عموم وخصوص ، عموم في الكفر وخصوص في أهل الكتاب لليهود والنصارى ، وخصوص في المشركين لعبدة الأوثان .

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضاً ، كما في قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) .

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكاً .

وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية وقال : « وهل كبر إشراكاً من قولها : (اتخذ الله ولداً) » فهو وإن كان مخالفاً للجمهور في منع الزواج من الكتابيات ، إلا أنه اعتبرهن مشركات .

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع في مسمى الشرك ، هل يشمل أهل الكتاب أم لا ؟ مع أننا وجدنا فرقاً في الشرع في معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين ، فأحل ذبائح أهل الكتاب ولم يحلها من المشركين ، وأحل نكاح الكتابيات ولم يحله من المشركات ، كما قال تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) .

وقوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) .

وقال : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) بين ما في حق الكتابيات قال : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) فكان بينهما مغايرة في الحكم .

وقد جمع والدنا الشيخ محمد الأمين رحمة الله تعالى علينا وعليه بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله) المتقدم . ذكرها جمعا منفصلا مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة انواع ، وأهل الكتاب متصفون ببعض دون دون بعض ، إلى آخر ما أورده رحمة الله تعالى علينا وعليه .

ولعل في نفس آية (وقالت اليهود عزير ابن الله) فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه من وجهين :

الأول : قوله تعالى : (يضاهئون قول الذين كفروا) أي

أى يشابهونهم في مقاتلتهم ، وهذا القدر انصف به المشركون من أنواع الشرك .

الثانى : تذييل الآية بصيغة المضارع مما يشركون بين ما وصفه هذه الأوثان في سورة البينة بالاسم والمشركون .

ومعلوم أن صيغة الفعل تدل على التجدد والحدوث ، وصيغة الاسم تدل على الدوام والثبوت ، فمشركو مكة وغيرهم دائمون على الإشراك وعبادة الأصنام ، وأهل الكتاب يقع منهم حيناً وحيناً .

وقد أخذ بعض العلماء : أن الكفر ملة واحدة ، فورث الجميع من بعض ، ومنع الآخرون على أساس المغايرة . والعلم عند الله تعالى .

تنبية

بقى المجوس وجاءت السنة أنهم يعاملون معاملة أهل الكتاب لحديث : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : (منفكين حتى تأتيهم البينة) اختلاف في منفكين اختلافاً كثيراً عند جميع المفسرين ، حتى قال الفخر الرازى عند أول هذه السورة مانعه : قال الواحدى فى كتاب البسيط . هذه الآية من أصعب ما فى القرآن العظيم نظاماً وتفسيراً ، وقد تحبط فيها الكبار من العلماء .

مهم إنه رحمه الله لم يلخص كيفية الإشكال فيها .

وأنا أقول وجه الإشكال : أن تقدير الآية : (لم يكن الذين كفروا منكم حتى تأتيتهم البينة) ، التي هي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه لم يذكر أنهم منكمون عما إذا لم يكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه .

فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منكم حتى تأتيتهم البينة ، التي هي الرسول ، ثم قال بعد ذلك (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وهذا يقتضى أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية تناقض في الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن : اهـ .
حرفيا .

وقد سقت كلامه لبيان مدى الإشكال في الآيتين ، وهو مبني على أن منكمين بمعنى تاركين : وعليه جميع المفسرين .

والذي جاء عن الشيخ رحمه الله تعالى وعلينا وعليه في إملائه : أن منكمين أى مرتدعين عن الكفر والضلال ، حتى تأتيتهم البينة ، أى أتتهم .

ولكن في منفكين ، وجه يرفع هذا الإشكال ، وهو أن تكون منفكين بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أى لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة على معنى قوله تعالى : (أحيسب الإنسان أن يترك سدى) وقوله : (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى لن يتركوا وقريب منه قوله تعالى : (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلقتنا عن هولاك) .

وقد حكى أبو حيان قولاً عن ابن عطية قوله ، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أن يكون المراد : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولا منذراً ، تقوم عليهم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه قال : ما كانوا ليتركوا سدى ، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى . ١ هـ .

فقول ابن عطية يتفق مع ما ذكرناه ، ويزيل الإشكال الكبير عن المفسرين ، كما أسلفنا

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول في ذلك نسوقه لشموله ،

وهو ضمن كلامه على هذه السورة في المجموع جلد ١٦ ص ٤٩٥
قال :

وفي معنى قوله تعالى : لم يكن هؤلاء وهؤلاء منفيين . ثلاثة
أقول ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد : لم يكونوا منفيين عن الكفر ؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث ، فلم يكونوا منفيين
عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث .

أو المراد : أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول .

وناقش تلك الأقوال وردّها كلها ثم قال : فقوله (ولم يكن الذين
كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفيين) أى لم يكونوا متروكين
باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوءونه لا حجب عليهم ، كما أن المنفك لا حجب
عليه ، وهو لم يقل منكوكين ، بل قال : منفيين ، وهذا أحسن ، إلى أن
قال : والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولا ترسل
إليهم رسل .

والمعنى : أن الله لا يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث

إليهم رسولا ، وهذا كقوله : (أبحسب الإنسان أن يترك سدى)
لا يؤمر ، ولا ينهى ، أى : أبظن أن هذا يكون ؟ هذا مالا يكون
الهيئة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم
تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعل حكيم ، أفنضرب عنكم
الذكر صفحاً أن كنتم قوما مسرفين) وهذا استفهام إنكار أى
لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل .

تبين من ذلك كله أن الأصح فى « منفيكين » معنى « متروكين »
وبه يزول الإشكال الذى أورده الفخر الرازى ، ويستقيم السياق ،
ويتضح المعنى ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى :

(حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة) .

أجل البينة ثم فصلها فيما بعدها (رسول من الله يتلوا
صحفاً) .

وفى هذا قيل : إن البينة هى نفس الرسول فى شخصه ، لما كانوا
يعرفونه قبل مجيئه ، كما فى قوله : (ومبشراً برسول يأتي من بعدى

اسمه أحمد) ، وقوله : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) .

فكان وجوده صلى الله عليه وسلم بذاته بينة لهم .

ولذا جاء في الآثار الصحيحة أنهم عرفوا يوم مولده بظهور نجم
في الخلتان إلى آخر أخباره صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يستفتحون به
على الذين كفروا ، وكذلك المشركون كانوا يعرفونه عن طريق أهل
الكتاب ، وبما كان متصفاً به صلى الله عليه وسلم ، ومن جميل الصفات
كما قالت له خديجة عند بدء الوحي له وفزعه منه : « كلا والله لن
يخزيك الله ، والله إنك لتحمل الكلّ وتدين على نوائب الدهر »
إلى آخره .

وقول عمه أبي طالب : « والله ما رأيت له لب مع الصبيان ولا علت
عليه كذبة » إلخ . وقد لقبوه بالأمين .

وحادثة شق الصدر في رضاعه ، بل وقبل ذلك في قصة أبيه
عبد الله ، لما تعرضت له المرأة تريد له نفسها ، فأبى . ولما تزوج ودخل
بأمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم لقيها بعد ذلك ، فقالت له :
لا حاجة لي بك ، فقال : وكيف كنت تتعرضين لي ؟ فقالت : رأيت
نوراً في وجهك ، فأحببت أن يكون بي ، فلما تزوجت وضعتني في أمنة
ولم أره فيك الآن ، فلا حاجة لي فيك .

فكلمها دلائل على أنه صلى الله عليه وسلم كان في شخصه بيته لهم ، ثم أكرمه الله بالرسالة ، فكان رسولا يتلو صحفاً مطهرة ، من الأباطيل والزيف ومالا يلحق بالقرآن .

ومما استدل به لذلك قوله تعالى عنه : (وداعياً إلى الله يأذنه وسراجاً منيراً) فعليه يكون رسول من الله يدل من البيعة مرفوع على البدلية ، أو أن البيعة ما يأتيهم به الرسول مما يتلوه عليهم من الصحف المطهرة فيها كتب قيمة .

فالتشريع الذي فيها والإخبار الذي أعلنه تكون البيعة . وعلى كل ، فإن البيعة تصدق على الجميع ، كما تصدق على المجموع ، ولا ينفك أحدهما عن الآخر ، فلا رسول إلا برسالة تتلى ، ولا رسالة تتلى إلا برسول يتلوها .

وقد عرف لفظ البيعة ، الإشارة إلى وجود علم عنها مسبق عليها .

فكانه قيل : حتى تأتيهم البيعة الموصوفة لهم في كتبهم ، ويشير إليها ما قدمنا في أخبار عيسى عليه السلام عنه ، وآخر سورة الفتح

(ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه)
الآية .

قوله تعالى :

(فيها كتب) .

جمع كتاب ، وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه :
كتب : بمعنى مكتوبات .

وقال ابن جرير : في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة . يذكر
القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء
وحكاه ابن كثير واقتصر عليه .

وقال القرطبي : إن المكتب بمعنى الأحكام ، مستدلاً بمثل قوله
تعالى : (كتب عليكم الصيام) وقوله (كتب الله لأغلبن أنا
ورسلي) .

وقيل : المكتب القيمة : هي القرآن ، فجعله كتباً ، لأنه يشتمل
على أبواب من البيان .

وذكر الفخر الرازي : أنه يحتمل في كتب أي الآيات المكتوبة

في المصحف ، وهو قريب من قول الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه .

وقال الشوكاني : المراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، وهذه المعاني وإن كانت صحيحة ، إلا أن ظاهر اللفظ أدل على تضمن معنى كتب منه على معنى كتابة أحكام .

والذي يظهر أن مدلول كتب على ظاهرها ، وهو تضمن تلك الصحف المطهرة لكتب سابقة قيمة ، كما ينص عليه قوله تعالى : (بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، ثم قال : (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) ، وكقوله في عموم الكتب الأولى : (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه) ، وقوله : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل) .

ولذا قال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أي بما فيه من كتبهم القيمة المتقدم إنزالها ، كما في قوله : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم)

وقوله : (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) .

وقال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه) ونحو ذلك من الآيات ، مما يدل على أن آى القرآن متضمنة كتباً قيمة مما أنزلت من قبل ، وقد جاء عملياً فى آية الرحمن وقوله : (وكتبنا عليهم فيها — أى فى التوراة — أن النفس بالنفس والعين بالعين) فهذه من الكتب القيمة التى تضمنها القرآن الكريم ، كما قال (ولكم فى القصص حياة) .

ولعل هذا بين وجه المعنى فيما رواه المفسرون عن الإمام أحمد ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كعب « أمرت أن أقرأ عليك سورة البينة ، فقال : أو ذكرت ، ثم »

وبكى رضى الله عنه ، لأن فيها زيادة طمأنينة له على إيمانه بأنه آمن بكتاب تضمن الكتب القيمة المقدمة ، والتى يعرفها عبد الله بن سلام أن الرجم فى التوراة لما غطاها الآتى بها ، كما هو معروف فى القصة . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

يلاحظ أن السورة فى أولها عن الكفار عموماً من أهل الكتاب والمشركون معاً ، وهنا الحديث عن أهل الكتاب فقط ، وذلك مما

يخصهم في هذا المقام دون المشركين ، وهو أنهم لأنهم أهل كتاب ،
وعندهم علم به صلى الله عليه وسلم ، وبما سيأتي به ، وكانوا من قبل
يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وكتوله صراحة : (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بنبياً
بينهم) ، فلمعرفتهم به قبل مجيئه ، واختلافهم فيه بعد مجيئه ،
وخصهم هنا بالذكر في قوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا
من بعد ما جاءتهم البينة) .

تنبية

بما يدل على ما ذكرنا من معنى كتب قيمة ، أمران من كتاب الله .
الأول منهما : اختصاص أهل الكتاب هنا بعدم عموم الحديث
عن الذين كفروا ، وما قدمنا من نصوص .

الثاني : أن القرآن لما ذكر الرسول يتلو على المشركين قال (هو
الذي بعث في الأميين رسولا منهم يقرؤ عليهم آياته) ، فهذا نفس
الأسلوب ، ولكن قال : آياته ، لأنهم لم يكن لهم علم بالكتب الأخرى ،
فاقتصصر على الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مَنَّاهُ ﴾ .

وهذا لا يستوجب التفرق في أمره صلى الله عليه وسلم

والكن هنا لم يبين موضع الأمر عليهم بعبادة الله مخلصين له الدين ، هل هو في كتبهم السابقة ، أم في هذا القرآن الذي يتلى عليهم في صف مطهرة ؟ .

وقد بين القرآن العظيم أن هذا الأمر موجود في كل من كتبهم والقرآن الكريم ، فما في كتبهم قوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) .

وقوله : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

فإقامة الدين وعدم التفرقة فيه ، هو عين عبادة الله مخلصين له الدين .

ومما في القرآن قوله تعالى : (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُون ، وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ
الرَّاكِبِينَ)

فقد نص على كامل المسألة هنا ، أن الكتب القيمة للأشخاص
عليها في الصحف المطهرة هي كتب أهل الكتاب ، لقوله تعالى :
(وَأَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) وأنهم أمروا في هذا القرآن
بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع التعليمات المذكورة نفسها ، وإقام
الصلاة لا يكون إلا عبادة الله بإخلاص

وهذه الأوامر سواء كانت في كتبهم أو في القرآن لا تقتضى
التفريق ، بل نستوجب الاجتماع والوحدة .

قوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾

القيمة : فيعلة من القوامه ، وهى غاية الاستقامة .

وقد جاء بعد قوله : (فيها كتب قيمة) أى مستقيمة
بتعاليمها .

وقد نص تعالى على أن القرآن أقومها وأعدلها كافى قوله : (إن هذا
القرآن يهتدى للتي هي أقوم) ، وقال تعالى : (الحمد لله الذى أنزل

على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قياً) فنفي عنه العوج ، وأثبت له الاستقامة .

وهذا غاية في القوامه كما قدمنا من قبل ، من أن المستقيم قد يكون فيه انحناء كالطريق المعبد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات ، لكنه ينحرف قارة يميناً وشمالاً مع استقامته ، فهو مع الاستقامة لم يخل من العوج .

ولكن ما ينقضي عنه العوج وتثبت له الاستقامة ، هو الطريق الذي يمتد في اتجاه واحد بدون أى اعوجاج إلى أى الجانبين ، مع استقامته في سطحه .

وهكذا هو القرآن ، فهو الصراط المستقيم ، ولذا قال تعالى : (وذلك دين القيمة) الملة القيمة ، قيمة في ذاتها ، وقيمة على غيرها ، ومهيمنة عليه ، وكقوله : (ذلك الدين القيم) وقوله : (قل إني هدى ربي إلى صراط مستقيم ديناً قياً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

تنبيه

إن في هذه الآية رداً صريحاً على أولئك الذين ينادون بدون علم إلى دعوة لا تخلو من تشكيك ، حيث لم تسلم من إبس ، وهي دعوة وحدة الأديان ، ومحل اللبس فيها أن هذا القول منه حق ، ومنه باطل .

أما الحق فهو وحدة الأصول ، كما قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ، وأما الباطل فهو الإبهام ، بأن هذا ينبجر على الفروع مع الجزم عند الجميع ، بأن فروع كل دين قد لا تتفق كلها مع فروع الدين الآخر ، فلم تتحد الصلاة في جميع الأديان ولا الصيام ، ونحو ذلك .

وقد أجمع المسلمون على أن العبرة بما في القرآن من تفصيل للفروع والسنة ، تكمل تفصيل ما أجمل .

وهنا النص الصريح بأن ذلك الذي جاء به القرآن هو دين القيمة ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهي أفضل تفضيل ، فلا يمكن أن يعادل ويساوى مع غيره أبداً مع نصوص القرآن ، بأن الله أخذ المهد على

جميع الأنبياء لن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم ليؤمنن به ، ولينصرنه وليتبعنه ، وأخذ عليهم العهد بذلك . وقد أخبر الرسل أمهم بذلك . فلم يبق مجال في هذا الوقت ولا غيره لدعوة الجاهلية بعنوان مجوف وحدة الأديان ، بل الدين الإسلامي وحده (إن الدين عند الله الإسلام) ، (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قرئت البرية بالهمزة وبالياء ، فقرأ بالهمز : نافع وابن ذكوان . وبالباقون بالياء ، فاختلف في أخذها .

قال القرطبي : قال الفراء : إن أخذت البرية من البراءة بفتح الباء والراء : أى التراب . فأصله غير مهموز بقوله منه : براه الله يبروه برواً ، أى خلقه ، وقيل : البرية من برئت القلم أى قدرته .

وقد تضمنت هذه الآية مسألتين : الأولى منهما : أن أولئك في نار جهنم خالدين فيها ، ومبحث خلود الكفار في النار ، تقدم لشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وافيًا .

والمسألة الثانية أنهم شر البرية ، والبرية أصلها البريئة ، قلبت الهمزة

ياء تسهيلا، وأدغمت الياء في الباء، والبريئة الخليفة والله تعالى باري
النسم، هو الخالق الباري المصور سبحانه .

ومن البرية الدواب والطيور، وهنا النص على عمومته، فأفهم أن
أولئك شر من الحيوانات والدواب .

وقد جاء النص صريحا في هذا المعنى في قوله تعالى : (إن شر
الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقد بين أن المراد بهم
الكفار في قوله : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)
وقال عنهم : (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال
مبين) فهم لضمهم وعمام في ضلال مبين .

وقد ثبت أن للدواب ليست في ضلال مبين، لأنها تعلم وتؤمن
بوحداية الله، كما جاء في هدهد سليمان، أنكر على بلقيس وقومها
سجودهم للشمس والقمر من دون الله .

ونص مالك في الموطأ في فضل يوم الجمعة « أنه وما من دابة
إلا تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة إلى طلوع الشمس خشية الساعة » ،
وهذا كله ليس عند الكافر منه شيء، ثم في الآخرة لما يجمع الله جميع
الدواب ويقص لأجما من القرناء، فيقول لها : كوني ترابا، فيتمنى
الكافر لو كان مثله فلم يحصل له، كما قال : (يوم ينظر المرء
ما قدمت يداه، ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) .

وذلك والله تعالى أعلم : أن الدواب لم تعمل خيراً فتبقى لتجازى عليه ، ولم تعمل شراً لتعاقب عليه . فكانت لالها ولا عليها إلا ما كان فيما بينها وبين بعضها ، فلما اقتصر لها من بعضها انتهى أمرها ، فكانت نهايتها عودتها إلى منبتها وهو التراب . بخلاف الكافر فإن عليه حساب التكليف وعقاب المخالفة . فيعاقب بالخلود في النار ، فكان شر البرية .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

الحكم هنا بالعموم ، كالحكم هناك . ولكنه هنا بالخيرية والتفضيل .

أما من حيث الجنس فلا إشكال ، لأن الإنسان أفضل الأجناس (ولقد كرّمنا بني آدم) .

وأما من حيث العموم ، فقال بعض العلماء فيها ما يدل على صالح المؤمنين أفضل من الملائكة .

ولعل مما يقوى هذا الاستدلال ، هو أن بعض أفراد جنس الإنسان (٢٧ - أضواء البيان ج ٩)

أفضل من عموم أفراد جنس الملائكة ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا فضل بعض أفراد الجنس لا يمنع في البعض . الآخر ولكن هل بعض أفراد الأمة بعده أفضل من عموم أو بعض أفراد الملائكة ؟ هذا هو محل الخلاف .

وللقراطي مبحث في ذلك : مبناه على أصل المادة وورود النصوص من جهة أصل المادة إن كانت البرية مأخوذة من البرى وهو التراب ، فلا تدخل الملائكة تحت هذا التفضيل وإلا فتدخل .

وأما من جهة النصوص ، فقال في سورة البقرة عند قوله : (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) ، قال المسألة الثالثة : اختلف العلماء في هذا الباب أيهما أفضل ، الملائكة أو بنو آدم ؟ على قوانين ، فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة .

وذهب آخرون - إلى أن الملائكة الأعلى أفضل ، واحتج من فضل الملائكة بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقوله : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك) .

وبما في البخارى : « يقول الله : من ذكرني في ملائكتي ذكرته في

في ملائ خير منه » وهذا نص على أن الملائ الأعلی خير من ملا الأرض واحتج من فضل بنی آدم بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البریة) بالهمز من برأ الله الخلق ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم » أخرجه أبو داود .

وبأن الله يباهى بأهل عرفات الملائكة ، ولا يباهى إلا بالافضل والله تعالى أعلم .

وقال بعض العلماء : ولا طريق إلى القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن طريق ذلك خبر الله ، وخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع الأمة .

وليس هاهنا شيء من ذلك خلافاً للقدرية والقاضى أبى بكر ، حيث قالوا : الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل ، لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، إلى آخره .

ثم رد هذا الاستدلال .

وقد سقنا هذا البحث إبان الخلاف في هذه المسألة المشتعل عليها

لفظ البرية ، وأعتقد أن المفاضلة جزئية لا كلية ، وذلك أن جنس البشر خلاف جنس الملائكة ، والملائكة فيهم النص بأنهم (عباد مكرمون) والبشر فيهم النص (ولقد كرمتنا بني آدم) ، والفرق بينهما ، كالفرق بين الاسم والفعل في الدلالة .

ففي الملائكة بالاسم : مكرمون ، وهو يدل على الدوام والثبوت ، وفي بني آدم كرمتنا ، وهو يدل على التجدد والحدوث .

وهذا هو الواقع ، فالتكريم ثابت ولازم ودائم للملائكة بخلافه في بني آدم إذ فيهم وفيهم ، ولا يبعد أن يقال : إن التفضيل في الأعمال من حيث صدورها من بني آدم ومن الملائكة ، إذ الملائكة تصدر عنها أعمال الخير جبلة أو بدون نوازع شر ، بخلاف بني آدم ، وإن أعمال الخير تصدر عنها بمجهود مزدوج ، حيث ركبت فيه النفس اللوامة والأماراة بالسوء . ونحو ذلك من الجانب الحيواني .

وازدواجية المجهود ، هو أنه ينافزع عوامل الشر حتى يتغلب عليها ، ويبذل الجهد في فعل الخير ، فهو يجاهد للتخليص من نوازع ثم الشر ، هو يجاهد للقيام بفعل الخير ، وهذا مجهود يقتضى التفضيل على المجهود من جانب واحد .

وقد جاء في السنة ما يشهد لذلك ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أن يأتى بخدم من أن العامل منهم له أجر خمسين ، فقالوا :

خمسين منا أو منهم يا رسول الله ! قال : بل خمسين منكم ، لأنكم
تجدون أعواناً على الخير وهم لا يجدون .

وحديث « سبق درهم مائة ألف درهم » وبين صلى الله عليه
وسلم ، أن الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة ، لأنه ثلثي اثنين فقط ، والمائة
ألف جزء من مجموع كثير .

فالنفس التي تجود بنصف ممتلك ، ولا يتبقى لها إلا درهم ، خير
بكثير من تنفق جزءاً ضئيلاً مما تملك ويتبقى لها المال الكثير ، فكانت
عوامل التصديق ودوافعه مختلفة منزلة في النفس متضادة . فالدرهم في
ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى ، لم تتفاوت الماهية ولا الجنس ،
ولكن تفاوتت الدوافع والموامل لإنفاقه ، ولعل المفاضلة المقصودة
تكون من هذا القبيل أولى . والله تعالى أع

قوله تعالى ﴿ جَزَاءُ أُوْلَئِكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

فيه أربع مسائل . ثلاثة مجملة جاء بيانها في القرآن . والرابعة مفصلة
ولها شواهد .

أما الثلاثة المجملة فأولها قوله : (جزاؤهم عند ربهم) إذ

الجزاء في مقابل شيء يستوجبه ، وعند ربهم تشعر بأنه تفضل منه ،
وإلا لقال : جزاؤهم على ربهم .

وقد بين ذلك صريح قوله تعالى : (إن للمتقين مفازا حدائق
وأعنايا وكواعب أترابا وكأشداهاقا لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا
جزاء من ربك عطاء حساباً) فنص على أن هذا الجزاء كله من ربهم
عطاء لهم من عنده .

الثانية والثالثة قوله : (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار)
فأجل ما في الجنات ، ونص على أنها تجري من تحتها الأنهار ، مع
إجمال تلك الأنهار ، وقد فصلت آية (عم يتساءلون) ما أعد لهم
في الجنة من حدائق وأعنايا وكواعب وشراب وطمانينة ، وعدم
سماع اللغو إلى آخره كما جاء تفصيل الأنهار في سورة القتال ، في
قوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من
عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومفكرة من ربهم) ، والخلود
في هذا النعيم هو تمام النعيم .

قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

يعتبر هذا الإخبار من حيث رضوان الله تعالى على العباد في الجنة ،
من باب العام بعد الخاص .

وقد تقدم في سورة الليل في قوله تعالى : (وسيجنبها الأتقى
الذى يؤتى ماله ينزكى — إلى قوله — ولسوف يرضى) واتفقوا على
أنها في الصديق رضى الله عنه كما تقدم ، وجاء في التي بعدها سورة
والضحى قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أى للرسول
صلى الله عليه وسلم .

وهنا في عموم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم
خير البرية) فهى عامة فى جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم ، ثم قال
رضى الله عنهم ، وقد جاء ما يبين سبب رضوان الله تعالى عليهم
وهو سبب أعمالهم ، كما فى قوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين
إذ يبايعونك تحت الشجرة) فكانت المبايعة سبباً للرضوان .

وفى هذه الآية الإخبار بأن الله رضى عنهم ورضوا عنه ، ولم يبين
زمن هذا الرضوان أهو سابق فى الدنيا أم حاصل فى الجنة ، وقد
جاءت آية تبين أنه سابق فى الدنيا ، وهى قوله تعالى : (والسابقون
الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم
ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً

ذلك الفوز العظيم) فبقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) ،
ثم يأتى بعدها (وأعد لهم جنات) .

فهو فى قوة الوعد فى المستقبل ، فىكون الإخبار بالرضى مسبقاً
عليه .

وكذلك آية سورة الفتح فى البيمة تحت الشجرة إذ فيها (لقد
رضى الله عن المؤمنين) وهو إخبار بصيغة الماضى ، وقد سميت « بيمة
الرضوان » .

تنبيه

فى هذا الأسلوب الكريم سؤال ، وهو أن العبد حقاً فى حاجة
إلى أن يعلم رضوان الله تعالى عليه ، لأنه غاية أمانيه ، كما قال تعالى :
(ذلك الفوز العظيم)

أما الإخبار عن رضى العبد عن الله ، فهل من حق العبد أن
يسأل عما إذا كان هو راضياً عن الله أم لا ؟ إنه ليس من حقه
ذلك فعلاً ، فىكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة ، وهى أنهم فى
غاية من السعادة والرضى فيما هم فيه من النعيم إلى الحمد الذى

رضوا وتجاوزا رضاهم حد النعيم إلى الرضى عن المنعم .

كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية والنازعات (عطاء حساباً) ،
قالوا : إنهم يعطون حتى يقولوا : حسبي حسبي ، أى كافيتي .

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

اسم الإشارة منصب على مجموع الجزاء المتقدم ، وقد تقدم أنه
للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهنا يقول : إنه لمن خشى ربه ،
بما يفيد أن تلك الأعمال تصدر منهم عن رغبة ورهبة .

رغبة فيما عند الله ، ورهبة من الله ، ومثله قوله تما (ولن
خاف مقام ربه جنتان) ، وقوله : (وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) .

والواقع أن صفة الخوف من الله تعالى ، هي أجمع صفات الخير
في الإنسان ، لأنها صفة للملائكة المقربين .

كما قال تعالى عنهم (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون
ما يؤمرون) .

وقد عم الحكم في ذلك بقوله تعالى : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) .

وفي هذه الآية السر الأعظم ، وهو كون الخشية في الغيبة عن الناس ، وهذا أعلى مراتب المراقبة لله ، والخشية أشد الخوف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلَزَالُهَا . وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ
أَنْقَالُهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَآءَا . يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ
أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرَوًا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

الزلزلة : الحركة الشديدة بسرعة ، ويدل لذلك فقه اللفظة من
وجهين :

الأول : تكرار الحروف ، أو ما يقال تكرار المقطع الواحد ،
مثل صلصل وقلقل وزقزق ، فهذا التكرار يدل على الحركة .

والثاني : وزن فَعَلَ بالتضعيف كفَلَقَ وكَسَرَ وفتح ، فقد اجتمع في
هذه الكلمة تكرار المقطع وتضعيف الوزن .

ولذا ، فإن الزلزال أشد ما شهد العالم من حركة ، وقد شوهدت
حركات زلزال في أقل من ربع الثانية ، فدمر مدناً وحطم
قصوراً .

ولذا فقد جاء وصف هذا الزلزال بكونه شيئاً عظيماً في قوله تعالى :
(إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ويدل على هذه الشدة تكرار

الكلمة في زلزلت وفي زلزالها ، كما تشعر به هذه الإضافة .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إيراد النصوص المبينة لذلك في أول سورة الحج كقوله تعالى : (وحملت الأرض والجباه فدكتا دكة واحدة) ، وقوله : (إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا) ، وقوله : (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وساق قوله : (وأخرجت الأرض أثقالها) .

واختلف في الأثقال ما هي على ثلاثة أقوال :

ف قيل : موتاها . وقيل : كنوزها ، وقيل : التحدث بما عمل عليها الإنسان . ولعل الأول أرجح هذه الثلاثة ، لأن إخراج كنوزها سيكون قبل النفخة ، والتحدث بالأعمال منصوص عليه بذاته ، فليس هو الأثقال . ورجحوا القول الأول لقوله تعالى : (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) .

وقالوا : الإنس والجن ثقلان على ظهرها ، فهما ثقل عليها ، وفي بطنها فهم ثقل فيها ، ولذا سميا بالثقلين . قاله الفخر الرازي وابن جرير .

وروى عن ابن عباس : أنه موتاها .

وشبيه بذلك قوله : (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتمثلت)

ولا يبعد أن يكون الجميع إذا راعينا صيغة الجمع أثقالها ، ولم يقل ثقلها وإرادة الجميع مروية أيضاً عن ابن عباس . ذكره الألويسي ، وابن جرير عنه وعن مجاهد .

وحكى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القولين في إملائه : أى موتاها ، وقيل : كنوزها وقوله تعالى : (وقال الإنسان ما لها) لفظ الإنسان هنا عام . وظاهره أن كل إنسان يتول ذلك ، ولكن جاء ما يدل على أن الذى يقول ذلك هو الكافر . أما المؤمن فيقول : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلين) ، وذلك فى قوله : (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فالكافر يدعو بالويل والمؤمن يطمئن للوعد ، ومما يدل على أن الجواب من المؤمنين ، لا من الملائكة ، كما يقول بعض الناس ، ما جاء فى آخر السياق قوله : (فإذا هم جميع - أى كلا الفريقين - لدينا محضرون) .

وقوله ، (ما لها) سؤال استيضاح ، وذهول من هول ما يشاهد . وقوله : (يومئذ تحدث أخبارها) التحديث هنا سريع فى الحديث وهو على حقيقته ، لأن فى ذلك اليوم تتغير أوضاع كل شئ وتظهر

حقائق كل شيء ، وكما أنطق الله الجلود ينطق الأرض ، فنحدث بأخبارها ، (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) ، وتقدم تفصيل ذلك عند أول سورة الحشر ، لأن الله أودع في الجمادات القدرة على الإدراك والنطق . والمراد بإخبارها أنها تنبئ عن أعمال كل إنسان عليها في حال حياته .

ومما يشهد لهذا المعنى حديث المؤذن « لا يسمع صوته حجر ولا مدر إلا وشهد له يوم القيامة » ، وذكر ابن جرير وجهها آخر ، وهو أن إخبارها هو ما أخرجته من أثقالها بوحى الله لها والأول أظهر ، لأنه يثبت معنى جديداً . ويشهد له الحديث الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

في هاتين الآيتين بحثان أحدهما في معنى من لعمومه ، والآخر في صيغة يعمل .

أما الأول فهو مطروق في جميع كتب التفسير على حد قولهم : من للعموم المسلم والكافر ، مع أن الكافر لا يرى من عمل الخير شيئاً ، لقوله تعالى : (وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً)

وفي حق المسلم ، قد لا يرى كل ما عمل من شر ، لقوله تعالى : (إن الله لا يقفر أن يشرك به ويفقر ما دون ذلك لمن يشاء)

وقد بحث الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة بتوسع في دفع إيهام الاضطراب بما يغنى عن إبراده .

أما المبحث الثاني فلم أر من تناوله بالبحث ، وهو في صيغة يعمل ، لأنها صيغة مضارع ، وهي للحال والاستقبال .

والمقام في هذا السياق (يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً) وهو يوم البعث ، وليس هناك مجال للعمل ، وكان مقتضى السياق أن يقال : فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره . ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع ، والمقام ليس مقام عمل ، ولكن في السياق ما يدل على أن المراد بعمل مثقال ذرة أى من الصنفين ما كان من قبل ذلك ، لقوله تعالى (يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) فهم إنما يروا في ذلك اليوم أعمالهم التي عملوها من قبل ، فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات ، حيث كان السياق أولاً من أول السورة في معرض الإخبار عن المستقبل : إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وإذا أخرجت الأرض أثقالها ، وإذا قال الإنسان ما لها . في ذلك اليوم الآتي تحدث أخبارها ، وفي ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم التي

عملوها من قبل كما في قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ،
وقوله : (ووجدوا ما عملوا حاضراً) .

ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير ، فمن
يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل الآن في الدنيا
مثقال ذرة شراً يره في الآخرة ، ومثقال الذرة ، قيل : هي النملة
الصغيرة ، لقول الشاعر :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الدر فوق الإتب منها لأثرا

والإتب : قال في القاموس : الإتب بالكسر ، والمثتبة ككنسة برد
يشق ، فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين ، وقيل : هي الهباء التي
ترى في أشعة الشمس ، وكلاهما مروي عن ابن عباس رضي الله عنه .

وسياتى زيادة إيضاح لكيفية الوزن في سورة القارعة إن شاء الله .

ولعل ذكر الذرة هنا على سبيل المثال لمعرفةهم لصغرها ، لأنه
تعالى عم العمل في قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أيا كان
هو مثقال ذرة أو مثاقيل القناطير ، وقد جاء النص صريحاً بذلك
في قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في
السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) .

وهنا تنبيهان : الأول من ناحية الأصول ، وهو أن النص على

مَثَقَالُ الذَّرَّةِ مِنْ بَابِ التَّنْذِيرِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى ، فَلَا يَمْنَعُ رُؤْيَا
مَثَاقِيلِ الْجِبَالِ ، بَلْ هِيَ أُولَى وَأَحْرَى .

وهذا عند الأصوليين ما يسمى الإلحاق بنفى الفارق ، وقد يكون
المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به ، وقد يكون مساوياً له .
فمن الأول هذه الآية وقوله : (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما) ،
ومن المساوى قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً
إنما يأكلون في بطونهم نارا) فإن إحراق ماله وإغراقه ملحق بأكله ،
بنفى الفارق وهو مساوٍ لأكله في عموم الإلتلاف عليه ، وهو عند
الشافعي ما يسمى القياس في معنى الأصل ، أى النص .

التنبيه الثانى فى قوله تعالى : (وما يمزب عن ربك مثقال ذرة فى
الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك) .

رد على بعض المتكلمين فى العصر الحاضر ، والمسمى بعصر الذرة ،
إذ قالوا : لقد اعتبر القرآن الذرة أصغر شيء ، وأنها لا تقبل
القسيم ، كما يقول المناطقة : إنها الجوهر الفرد ، الذى لا يقبل الانقسام .

وجاء العلم الحديث ، ففقت الذرة وجعلها أجزاء . ووجه الرد
على تلك المقالة الجديدة ، على آيات من كتاب الله هو النص

الصريح من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك إلا في كتاب .
فعلوم ذلك عدد الله ومثبت في كتاب ما هو أصغر من الذرة ،
ولا حد لهذا الأصغر بأي نسبة كانت ، فهو شامل لتفجير الذرة
ولأجزائها مهما صغرت تلك الأجزاء .
سبحانك ما أعظم شأنك ، وأعظم كتابك ، وصدق الله إذ يقول :
(ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَالْعُدَيِّتِ ضَبْحًا . فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا
فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ .

قال الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في إملائه :

العاديات : جمع عادية ، والعاديات : المسرعات في سيرها

فمعنى العاديات : أقسم بالمسرعات في سيرها .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن المراد به الخيل ، تعدو في الغزو ،
والقصد تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله

وقال بعض العلماء : المراد بالعاديات : الإبل تعدو بالحجيج من
عرفات إلى مزدلفة ومِنَى .

ومعنى قوله : ضَبْحًا : أنها تضحضض ضبحًا ، فهو مفعول مطلق ،
والضحضض : صوت أجواف الخيل عند جريها .

وهذا يؤيد القول الأول الذي يقول هي الإبل ، ولا يختص الضبح

بالخيل

فالوريات قدحاً : أى الخيل تورى النار بمخوافرها من الحجارة ،
إذا سارت ايلاً .

وكذلك الذى قال : الماديات : الإبل . قال : برفمها الحجارة فيضرب
بعضها بعضاً .

ويدل لهذا المعنى قول الشاعر

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة تنفى الدرام تنقاد الصياريف

فالمغيرات صبحاً ، الخيل تغير على العدو وقت الصبح .

وعلى القول الأول : فالإبل تغير بالحجاج صبحاً من مزدلفة إلى
منى يوم النحر .

فأثرن به نقماً : أى غباراً . قال به . أى : بالصبح أو به .
أى بالعدو .

والمفهوم من الماديات : توسطن به جمعاً ، أى دخلن فى وسط جمع
أى خلق كثير من الكفار .

ونظير هذا المعنى قول بشر بن أبى حازم :

فوسن جمعهم وأفلت حاجب تحت المجاجة فى الغبار الأقم

وعلى القول الثانى الذى يقول : الماديات الإبل تحمل ، الحبيج .

فمضى قوله : (فوسطن به جمعا) أى صرن بسبب ذلك العدو ، وسط جمع . وهى المزدلفة ، وجمع اسم من أسماء المزدلفة

ويدل لهذا المعنى قول صفية بنت عبد المطلب ، عمة النبي صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام رضى الله عنهما :

فلا والماديات مغبرات جمع بأيدھا إذا سطم الفجار

وهذا الذى ساقه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد جمع أقوال جميع المفسرين فى هذه الآيات ، وقد سقته بحروفه لبيان المعنى كاملا .

ولكن مما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان فى الأضواء : أنه إذا اختلف علماء التفسير فى معنى وفى الآية قرينة . ترد أحد القولين أو تؤيد أحدهما فإنه يشير إليه .

وقد وجد اختلاف المفسرين فى هذه الآيات فى نقطة أساسية من هذه الآيات مع اتفاقهم فى الألفاظ ، ومعانيها . والأسلوب وتراكيبه .

ونقطة الخلاف هى معنى الجمع الذى توسطن به ، أهو المزدلفة لأن

عن أسماؤها جميعاً كما في الحديث : « وقفت ها هنا وجمع كلها موقف »
وهذا مروي عن علي رضي الله عنه ، في نقاش بينه وبين ابن عباس . ساقه
ابن جرير

أم الجمع جمع الجيش في القتال على ما تقدم ، وهو قول ابن عباس
وغيره . حكاه ابن جرير وغيره .

وقد وجدنا قرائن عديدة في الآية تمنع من إرادة المزدلفة بمعنى
جمع ، وهي كالاتي : أولاً وصف الخيل أو الإبل على حد سواء بالماديات ،
حتى حد الضبح ووري النار بالخوافر وبالحصا ، لأنها أوصاف تدل
على الجري السريع .

ومعلوم أن الإفاضة عن عرفات ثم من المزدلفة لا تشمل هذا
العدو ، وليس هو فيها بمحمود ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينادي
« السكينة السكينة » فلو وجد لما كان موضع تعظيم وتقدير .

ثانياً : أن المشهور أن إثارة النقع من لوازم الحرب ، كما قال
بشار :

كأن مشار النقع فوق رموسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها

أي : لشدة السكر والفر .

ثالثاً : قوله تعالى : (فالمغيرات صبحاً . فائرن به نقماً . فوسطن به
 جمعاً) جاء مرتباً بالفاء ، وهى تدل على الترتيب والتعقيب .

وقد تقدم المغيرات صبحاً ، وبعدها فوسطن به جمعاً .

وجمع هى المزدلفة ، وإنما يؤتى إليها ليلاً . فكيف يقرن صبحاً ،
 ويتوطن المزدلفة ليلاً .

وعلى ما حكاه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، أنهم يغيرون
 صبحاً من المزدلفة إلى منى ، تكون تلك الإغارة صبحاً بعد التوسط
 بجمع ، والسياق يؤخرها عن الإغارة ولم يقدمها عليها .

فتبين بذلك أن إرادة المزدلفة غير مقآتية فى هذا السياق .

ويبقى القول الآخر وهو الأصح . والله تعالى أعلم .

ولو رجعنا إلى نظرية ترابط السور لكان فيها ترشيداً لهذا
 المعنى ، وهو أنه فى السورة السابقة ، ذكرت الزلزلة وصدور الناس
 أشثاتاً ليروا أعمالهم .

وهنا حث على أفضل الأعمال التى تورث الحياة الأبدية والسعادة
 الدائمة فى صورة مماثلة ، وهى عدوهم أشثاتاً فى سبيل الله لتحصيل ذلك

العمل الذي يحبون رؤيته في ذلك الوقت ، وهو نصرته دين الله أو الشهادة في سبيل الله ، والمعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : (إن الإنسان لركنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد) .

هذا الجواب قال القرطبي : الكنود : الكفور الجحود لنعم الله ، وهو قول ابن عباس .

وقال الحسن : يذكر للمصائب وينسى النعم ، أخذه الشاعر فنظمه :

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكنود هو الذي يأكل وحده ، ويمنع رفقده ، ويضرب عبده » .

وروى ابن عباس قال : « ألا أبشركم بشراكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفقده ، وجلد عبده »

خرجهما الترمذى الحكيم فى نواذر الأصول .

وروى ابن عباس أيضاً أنه قال : « الكنود بلسان كندة :
الماصى ، و بلسان ربيعة ، مضر : الكفور ، و بلسان كنانة : البخيل
السيء الملكة » .

وقال مقاتل . وقال الشا

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنوداً لنعماء الرجال يبعد

أى كفور .

ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير ، ولا يشكر الكثير .

وقيل : الجاحد للحق .

وقيل : سميت كندة كندة ، لأنها جحدت أباهها .

وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر :

دع البخلاء إن شمعوا وصدوا وذكري بخل ثمانية كنود

فى نقول كثيرة وشواهد .

ومنها : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معصية الله .

وعن ذى النون : الهلوع والكنود : هو الذى إذا مسه الشر

جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .

وقيل : الحسود الحقود .

ثم قال القرطبي رحمه الله في آخر البحث :

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود مخصال مذمومة ، وأحوال غير محمودة ، فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبقى لأحد معه مقال . اهـ .

وهكذا كما قال : إن صح الأثر فلا قول لأحد ، ولكن كل هذه الصفات من باب اختلاف التنوع ، لأنها داخلة ضمن معنى الجحود للحق أو للنعم .

وقد استدل ذو النون المصري بالآية الكريمة ، وهي مفسرة للكنود على المعاني المتقدمة بأنه هو الملعون (إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .

ومثلها قوله : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن)

وقد عقب عليه هناك بمثل ما عقب عليه هنا .

فهنالك قال تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاضون
على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال
حباً جماً) .

وهنا عقب عليه بقوله : وإنه لحب الخير لشديد) والله
تعالى أعلم .

وقوله : إن الإنسان عام في كل إنسان ، ومعلوم أن بعض
الإنسان ليس كذلك ، كما قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق
بالحسنى) مما يدل على أنه من العام المخصوص .

وأن هذه الصفات من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه الشرع ، كما قال
تعالى : (وأحضرت الأنفس الشح) .

وقوله : (ومن يوق شح نفسه فأوائك هم المفلحون) .
ونص الشيخ في إملائه أن المراد به الكافر .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .

اختلف في مرجع الضمير في : وإنه ، فقيل : راجع للإنسان ،
ورجحه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ،
مستدلاً بقوله تعالى بعده (وإنه لحب الخير لشديد) .

وقيل : راجع إلى رب الإنسان .

واختار هذا القرطبي وقدمه .

وجميع المفسرين يذكرون الخلاف ، وقد عرفت الراجع منها ،
وعليه ، فعلى أنه راجع لرب الإنسان فلا إشكال في الآية ، وعلى أنه
راجع للإنسان ففيه إشكال أورده الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه
في دفع إيهام الاضطراب وأجاب عليه .

وهو أنه جاءت نصوص تدل على أنه ينكر ذلك ، وأنه كان
يجب أنه يحسن صنعا ، ونحو ذلك .

ومن الجواب عليه : أن شهادته بلسان الحال .

وقد أورد بعض المفسرين شهادتهم بلسان المقال في قوله تعالى :
(ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر)
إلا أن هذه الشهادة بالكفر هي الشرك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

الخير عام ، كما تقدم في قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا

يره) .

ولكنه هنا خاص بالمال ، فهو من العام الذي أريد به الخاص

من قصر العام على بعض أفراد ، لأن المال فرد من أفراد الخير ، كقوله تعالى : (إن ترك خيراً) أى مالا ، لأن عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه .

وفى معنى هذا وجهان : الأول وإنه لحب الخير أى بسبب حبه الخير لشديد بخيل ، شديد البخل .

كما قيل :

أرى الموت يعمّ الكرام ويصطفى

عقيلة مال الفاحش المتشدد

أى شديد البخل على هذه الرواية من هذا البيت .

والوجه الثانى : وإنه لشديد حب المال . قالهما ابن كثير .

وقال : كلاهما صحيح ، والواقع أن الثانى يتضمن الأول .

ويشهد للوجه الثانى ، قوله تعالى : (وناكلون التراث أكلاماً وتحبون المال حباً جماً) .

وقلنا : إن الثانى يتضمن الأول ، لأن من أحب المال حباً جماً

سيحمله حبه على البخل .

وفى هذا النص مذمة حب المال وهو جبلة فى الإنسان ، إلا من

(٢٩ - أضواء البيان ج ٩)

هذبه الإسلام ، إلا أن الدم ينصب على شدة الحب لحتى تحمل صاحبها على ضياع الحقوق أو تعدى الحدود .

وهذه الآية وما قبلها نازلة في الكفار كما قدمنا كلام الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في إملائه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ .

البعثرة : الانتثار .

وقال الزمخشري : إن هذه الكلمة مأخوذة من أصلين :
البعث والنثر .

فالبعث : خروجهم أحياء .

والنثر : الانتشار كمنثر الحب . فهي تدل على بعضهم منتشرين .

وقد نص تعالى على هذا المعنى في قوله : (وإذا القبور بعثرت)
أي بعث من فيها .

وقوله (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) .

وقوله : (كأهم جراد منتشر) .

وقوله : (يوم يكون الناس كالفرش المبثوث) .

قوله تعالى ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾

قيل : حصل أى أبرز . قاله ابن عباس .

وقيل ميز الخير من الشر .

والحاصل من كل شيء ما بقى .

قال لبيد :

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمراد بما فى الصدور الأعمال ، وهذا كقوله : (يوم تبلى

السرائر) .

ونص على الصدور هنا ، مع أن المراد القلوب ، لأنها هى مناط

العمل ومعد النية .

والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية ، كما فى حديث

« إنما الأعمال بالنيات » وحديث « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا

صاححت صلح الجسد كله » الحديث

وقال الفخر الرازى : خصص القلب بالذكر ، لأنه محل لأصول

الأعمال .

ولذا ذكره في معرض الذم ، فإنه (آثم قلبه) ، وفي معرض المدح (وجلت قلوبهم) .

ويشهد لما قاله قوله : إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقوله : (ثم قست قلوبكم) .

وقال : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم) .

وقوله : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ونحو ذلك .

ومما يدل على أن المراد بالصدر ما فيها هو القلب .

قوله : (فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدر) .

وقال الفخر الرازي : نص على الصدر ليشمل الخير والشر ، لأن القلب محل الإيمان .

والصدر محل الوسوسة لقوله تعالى : (الذي يوسوس في صدور الناس) .

وهذا وإن كان وجيهاً ، إلا أن محل الوسوسة أيضاً هو القلب ، فيرجع إلى المعنى الأول . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .

ذكر الظرف هنا يشمر بقصر الوصف عليه مع أنه سبحانه خبير بهم في كل ، وقت في ذلك اليوم ، وقبل ذلك اليوم ، ولكنه في ذلك اليوم يظهر ما كان خفياً ، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، وهو سبحانه لا يخفى عليه خافية .

ولكن ذكر الظرف هنا للتحذير مع الوصف بخير ، أخص من علم ، كما في قوله : (قال نبأني العلیم الخبير) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۖ .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة الواقعة ،
وقال : كالطامة والصاخة ، والآزفة ، والقارعة . ا هـ . أى وكذلك
الصاخة والساعة

ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماءه .

أو كما روى عن الإمام على : كثرة الأسماء تدل على عظم
المسمى .

ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات ، فإن لكل اسم دلالة على
معنى خاص به .

فالواقعة لصدق وقوعها ، والحاقة لتحقق وقوعها ، والطامة لأنها
تطم وتعم بأحوالها ، والآزفة من قرب وقوعها أزفة الآزفة مثل اقتربت
الساعة ، وهكذا هنا .

قالوا : القارعة : من قرع الصوت الشديد لشدة أهوالها .

وقيل : القرمة اسم للشدة .

قال القرطبي : تقول العرب : قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة ، إذا وقع بهم أمر فظيع .

قال ابن جرير :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لزاحت عندك حيناً
وقال تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة)
وهي الشديدة من شدائد الدهر .
وقوله (وما أدراك ما القارعة) تقدم قولهم : إن كل ما جاء وما
أدراك أنه يدريه وما جاء وما يدريك لا يدريه .

وقد أدراه هنا بقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ،
وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، وهذا حال من أحوالها .

وقد بين بعض الأحوال الأخرى في الواقعة بأنها خافضة رافعة ،
وفي الطامة والصاخة : ينظر المرء ما قدمت يداه .

وقواه : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) .

وأيضاً فإن كل حالة يذكر معها الحال الذي يناسبها ، فالقارعة
من القرع وهو الضرب ، ناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى

الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث ، ويفكك ترابط الجبال إلى هباء
العين المنفوش .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ .

الفراش : جمع فراشة .

وقيل : هي التي تطير وتتهافت في النار .

وقيل : طير رقيق يقصد النار ولا زال يتقحم على المصباح ونحوه
حتى يحترق .

و ذكر الشيخ في إملائه قول جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطفى
وقال الفراء : هو غوغاء الجراد الذي ينتشر في الأرض ويركب
بعضه بعضاً من الهول .

ونقل القرطبي عن الفراء : أنه الهبج الطائر من بعوض وغيره

ومنه الجراد . ويقال : هو أطيش من فراشة قال :

طويش من نفر أطياش أطيش من طائرة الفراش

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش

يقمن فيها ، وهو يزيدهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي .

والمبثوث : المنتشر .

ومثله قوله : (يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم جراد منتشر) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيانه في « سورة اقتربت الساعة » ، سورة ق والقرآن ، وسورة يس والقرآن الحكيم . بما يفنى عن إعادته هذا .

وقد قيل : إن وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب والحيرة .

ووصفهم كالجرد في الكثرة ووحدة الاتجاه (مهطمين إلى الداع) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الواقعة بيان أحوال الجبال يوم القيامة من بدنها بكثيب مهيل ، ثم كالعن المنفوش ، ثم تسير كالسراب .

وأحال فيها على غيرها ، كقوله : (تحسبها جامدة وهي تمر مرّ

السحاب) .

وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة سأل سائل .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .

في قوله : (ثقلت موازينه) دلالة على وقوع الوزن لكل إنسان .

والموازن : يراد بها الموزون ، ويراد بها آلة الوزن ، كالمعايير ، وهما متلازمان .

وتقدم أن المعايير بالذرة وأقل منها .

وقد جاء نصوص على وضع الموازين وإقامتها بالمدل والقسط .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

وقوله : (فهو في عيشة راضية) قالوا : بمعنى مرضية ، وراضية أصلها مرضية ، كما في قوله : (وجوه يومئذ ناعمة لسميها راضية) ، إسناد الرضى للعيشة ، على أنها هي فاعلة الرضى ، لأن كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة وأسباب النعيم ، راضية طائفة لينة لأصحاب الجنة ، فتفجر لهم الأنهار طواعية ، وتدنو النار طواعية ، كما في قوله : (قطوفها دانية) .

فالقول الأول : هو المعروف في البلاغة بإطلاق المحل وإرادة الحال ، كقوله تعالى (فليدع ناديه) .

والنادى : مكان منتدى القوم ، أى ينادى بعضهم بعضاً للاجتماع فيه .

والمراد : من محل في هذا النادى ، ويكون هنا أطلق المحل وهو محل العيشة ، وأراد الحال فيها .

وعلى الثانى : فهو إسناد حقيقى من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به ؛ ومما هو جدير بالذكر أن حمله على الأسلوب البياني ليس متجهاً كالآية الأخرى ، لأن العيشة ليست محلاً لفيرها بل هى حالة ، والمحل الحقيقى هو الجنة والعيشة حالة فيها ، وهى اسم لمعانى الدعيم كما تقدم ، فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح .

وقد جاءت الأحاديث : أن الجنة تحس بأهلها وتفرح بعمل الخير ، كما أنها تنزين وتبهج في رمضان ، وأنها تناظرت مع النار وكل بدلى بأهله وفرحه بهم ، حتى وعد الله كلاً بملئها .

ونصوص تلقى الحور والودان والملائكة في الجنة لأهل الجنة بالرضى والتحية معلومة .

وقوله : (لهم فيها فاكهة وهم ما يدعون) أى لا يتأخر عنهم شيء .

وقوله : (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

وقوله : (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقاصرات الطرف عن رضى بأهلن . ومثله (حور مقصورات في الخيام) أى على أزواجهن .

وقوله : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً) ونحو ذلك ، مما يشعر بأن نعيم الجنة بنفسه راض بأهل الجنة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

وقع الخلاف في المراد من قوله (فأمة هاوية) هل المراد بأمة مأواه وهى النار ، وأن هاوية من أسمائها ، أم المراد بأمة رأسه وأن هاوية من الهوى ، فيلقى فى النار منكساً رأسه يهوى فى النار .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك فى دفع إيهام الاضطراب ، ولا يبعد من يقول إنه لا تعارض بين القولين .

فتكون أمه هاويه ، وهي النار ويلقى فيها منكساً تهوى رأسه
والعياد بالله .

وحكى القرطبي على أن الأم بمعنى قول لبيد :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولده

وعلى ومعنى الهاوية البعيدة والداهية ، قول الشاعر :

يا عمرو لو نالتك رماحنا كنت كمن تهوى به الهاويه

والهاوية : مكان الهوى .

كما قيل :

أكلت دما إن لم أرعك بفضرة

بعيدة مهوى القرط مياحة القد

أو طيبة النشر .

وفي الحديث : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً

يهوى بها في النار أربعين خريماً » .

نسأل الله السلامة .

وقد فسر الهاوية بما بعدها : (وما أدراك ماهيه نار حاميه) .

وقد فسر الهاوية بأنها أسفل دركات النار . عياداً بالله .

وقد جاء . قوله تعالى : (كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة) .

والنبذ : الطرح ، مما يرجح ما قلناه من إمكان إرادة الممنين كون أمه هي الهاوية أي النار ، يهوى فيها على أم رأسه ، وذلك بالنبذ في الهاوية بعيدة المهوى ، وعادة الجسم إذا ألقى من شاهق بعيداً يسبغه إلى أسفل أثقله ، وأثقل جسم الإنسان رأسه . والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّكَاثِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ أَهْلِكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

أهلكم : أى شغلكم ، وهلك : تلهيه ، أى هلكه .

ومنه قول امرئ القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمام محول

أى شغلتها .

والتكاثر : المكاثرة . ولم يذكر هنا فى أى شيء كانت

المكاثرة ، التى ألهتهم .

قال ابن القيم : ترك ذكره ، إما لأن المدموم هو نفس التكاثر

بالشيء لا المتكاثر به ، وإما إرادة الإطلاق . اهـ .

وبمعنى رحمه الله بالأول : ذم الملح ، والنهم .

وبالثانى : ليعم كل ما هو صالح للتكاثر به ، مال وولد وجاه ،

وبناء وغراس .

ولم أجد لأحد من المفسرين ذكر نظير لهذه الآية .

ولكنهم انفقوا على ذكر سبب نزولها في الجملة ، من أن حين
تفاخروا بالآباء وأجداد الأجداد ، فعددوا الأحياء ، ثم ذهبوا إلى
المقابر ، وعدّد كل منهما ما لهم من الموتى يفخرون بهم ، ويتكاثرون
بتعدادهم .

وقيل : في قریش بین بنی عبد مناف وبنی سهم .

وقيل : في الأنصار .

وقيل : في اليهود وغيرهم ، مما يشمر بأن التكاثر كان في
مفاخر الآباء .

وقال القرطبي : الآية تعم جميع ما ذكر وغيره .

وسياق حديث الصحيح : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ،
لأحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، ويتوب الله
على من تاب » .

قال ثابت : عن أنس عن أبي : كنا نرى هذا من القرآن
حتى نزلت (ألهاكم التكاثر) .

وكان القرطبي يشير بذلك ، إلى أن التكاثر بالمال أيضاً .

وقد جاءت نصوص من كتاب الله تدل على أن التكاثر الذي أُلْهِمَ ، والذي ذمَّهم الله بسببه أو حذَّره منه ، إنما هو في الجميع ، كما في قوله تعالى : (اعملوا أنما الحياء الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً - إلى قوله - وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

ففيه التصريح : بأن التفاخر والتكاثر بينهم في الأموال والأولاد .

ثم جاءت نصوص أخرى في هذا المعنى كقوله : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون) .

وقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة أسمى الحيوان لو كانوا يعلمون) .

ولكون الحياة الدنيا بهذه المثابة ، جاء التحذير منها والنهي عن أن تلهيهم ، في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) .

وبين تعالى أن ما عند الله للمؤمنين خير من هذا كله في قوله

(وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) .

ومما يرجح أن التـكـاثر في الأموال والأولاد في نفس السورة ،
ما جاء في آخرها من قوله : (ثم لتـألن يومئذ عن النعيم)
لمناسبتها لأول السورة .

هو ظاهر بشمول النعيم للمال شمولاً أولياً .

وقوله (حتى زرتم المقابر) .

أخذ منه من قال : إن تفاخرهم ، حلمهم على الذهاب إلى المقابر
ليتكأروا بأموالهم ، كما جاء في أخبار أسباب النزول المقدمة .

والصحيح في : زرتم المقابر : يعني متم ، لأن الميت يأتي إلى القبر
كالزائر لأن وجوده فيه مؤقتاً .

وقد روى : أن أعرابياً سمع هذه الآية ، فقال : بعثوا ورب
الكعبة ، ففعل له في ذلك ، فقال : لأن الزائر لا بد أن يرتحل .

تنبيهه

قد بحث بعض العلماء مسألة زيارة القبور هنا لحديث : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر في الآخرة » .

وقالوا : إن المنع كان عاماً من أجل ذكر مآثر الآباء واللوثي ، ثم بعد ذلك رخص في الزيارة ، واختلفوا فيمن رخص له . فقيل : للرجال دون النساء لعدم دخولهن في وار الجماعة في قوله : « فزوروها » .

وقيل : هو عام للرجال وللنساء ، واستدل كل فريق بأدلة يطول إيرادها .

ولكن على سبيل الإجمال لبيان الأرجح ، نورد نبذة من البحث .

فقال المانعون للنساء : لانهن على أصل المنع ، ولم تشملهن الرخصة ، ومجىء اللعن بالزيارة فيهن .

وقال المجيزون : لانهن يدخلن ضمناً في خطاب الرجال ،

كدخولهن في مثل قوله : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فإنهن
يدخلن قطعاً .

وقالوا : إن اللعن المنزه عنه جاء في الحديث بروایتين رواية :
« لعن الله زائرات القبور » .

وجاء « لعن الله زائرات القبور والمتخذات عليهن السرج »
إلى آخره .

فعلى صيغة المبالغة : زائرات لا تشمل مطلق الزيارة ، وإنما
تختص المكثرات ، لأنهن بالإكثار لا يسلمن من عادات الجاهلية من
تعداد مآثر الموتى المحظور في أصل الآية .

أما مجرد زيارة بدون إكثار ولا مكث ، فلا .

واستدلوا لذلك بحديث عائشة رضي الله عنها لما ذكر لها
صلى الله عليه وسلم ، السلام على أهل البقيع ، فقالت « وماذا أقول
يا رسول الله ، إن أنا زرت القبور ؟ قال : قولي : السلام عليكم
آل دار قوم مؤمنين » الحديث .

فأقرها صلى الله عليه وسلم ، على أنها تزور القبور وعلمها ماذا
تقول إن هي زارت .

وكذلك بقصة مروره على المرأة التي تبكى عند القبر فكلّمها ،
 فقالت : إليك عنى ، وهى لا تعلم من هو ، فلما ذهب عنها قيل
 لها : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءت تعتذر فقال لها :
 « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

ولم يذكر لها المنع من زيارة القبور ، مع أنه رآها تبكى .
 وهذه أدلة صريحة فى السماح بالزيارة . ومن ناحية المعنى ، فإن
 النتيجة من الزيارة للرجال من فى حاجة إليها كذلك ، وهى كون
 زيارة القبور تزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة .

ولست هذه بخاصة فى الرجال دون النساء ، بل قد يكن أحوج
 إليه من الرجال .

وعلى كل ، فإن الراجع من هذه النصوص والله تعالى أعلم ، هو
 الجواز لمن لم يكثرن ولا يتكلمن بما لا يليق ، مما كان سبباً للمنع
 الأول ، والعالم عند الله تعالى .

تنبيه آخر

من لطائف القول فى التفسير ، ما ذكره أبو حيان عن التكاثر فى
 قوله : (حتى زرتم المقابر) ما نصه :

وقيل هذا تأنيب على الإكثار من زيارة ، تكثيراً بمن سلف وإشادة بذكره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم قال : « فزوروها » أمر إباحة للاتعاض بها ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر .

ثم قال : قال ابن عطية : كما يصنع الناس في ملازمتها وتسنيئها بالحجارة والرخام وتلوينها شرفاً ، وبيان النواويس عليها ، أى الفوانيس ، وهى السرج .

ثم قال أبو حيان ، وابن عطية : لم ير إلا قبور أهل الأندلس ، فكيف لو رأى ما يتباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة للصغرى ، وباب النصر وغير ذلك . وما يضيع فيها من الأموال ، لتمجب من ذلك ولرأى ما لم يخطر ببال .

وأما التباهى بالزيارة : ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوفية أقوام ليس لهم شغل لا زيار قبور : زرت قبر سيدى فلان بكذا ، وقبر فلان بكذا ، والشيخ فلان بكذا ، والشيخ فلانا بكذا ، فيذكرون أقاليم طفوها على قوم التجريد .

وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ ، بحيث لو كتبت لجاءت أسفار . وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه .

وقد سخر لهم الملوك وعموم الناس في تحسين الظن بهم وبذل المال لهم ، وأما من شذ منهم لأنه يتكلم للامامة فيأتي بمجائب ، يقولون : هذا فتح من العلم اللدني على الخضر .

حتى إن من ينتمى إلى العلم ، لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ، ونقل كثيرا من حكاياتهم ، ومزج ذلك بيسير من العلم طلبا للمال والجاه وتقبيل اليد .

ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته . ا هـ . بحروفه .

وهذا الذي قاله رحمه الله من أعظم ما افتتن به المسلمون في دينهم ودنيائهم مما

أما في دينهم : فهو الغلو الذي نهى عنه صلى الله عليه وسلم ، صيانة للتوحيد ، من سؤال غير الله .

وأما في الدنيا فإن الكثير من هؤلاء يتركون مصالح دنيائهم من زراعة أو تجارة أو صناعة ، ويطوف بتلك الأماكن تاركا ومضيقا من يكون السعى عليه أفضل من نوافل العبادات .

مما يلزم على طلبة العلم في كل مكان وزمان ، أن يرشدوا الجهلة منهم ، وأن يبينوا للناس عامة خطأ وجهل أولئك ، وأن الرحيل لتلك

القبور ليس من سنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا كان من عمل الخلفاء الراشدين ، ولا من عامة الصحابة ولا التابعين ، ولا من عمل أئمة المذاهب الأربعة رحمهم الله .

وإنما كان عمل الجميع زيارة ما جاورهم من المقابر للسلام عليهم والدعاء لهم ، والانعاز بمحالمهم ، والاستعداد لما صاروا إليه .

نسأل الله الهداية والتوفيق ، لاتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والافتقار بآثار سلف الأمة . آمين .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

كلا : زجر عن التلهي والتكاثر المذكور ، وسوف تعلمون : أى حقيقة الأمر ، ومغبة هذا التلهي ، ثم كلا سوف تعلمون ، تكرار للتأكيد .

وقيل : إنه لا تكرار ، لما روى عن علي رضي الله عنه : أن الأولى في القبر ، والثانية يوم القيامة . وهو معقول .

واستدل به البعض على عذاب القبر .

ومعلوم صحة حديث القبر « إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار »

والسؤال فيه معلوم ، ولكن أرادوا مأخذ من القرآن .
وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في الكلام على سورة
غافر ، عند (وحق بال فرعون سوء العذب) إنبات عذاب القبر
من القرآن

وكذلك بيان معناه في آخر سورة الزخرف عند الكلام على
قوله تعالى (فاصبح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) .

وهذا الزجر هنا والتحذير لهم رداً على ما كانوا عليه في التكاث .
كما قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حمى وإنما العزة للكاث

وأصرح دلائل لإنبات عذاب القبر من القرآن ، هو قوله تعالى :
(النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل
فرعون أشد العذاب) لأن الأول في الدنيا ، والثاني في الآخرة .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ
لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .

لو : هنا شرطية ، جوابها محذوف باتفاق قدره ابن كثير .
أى لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاث عن طلب الآخرة ،

حتى صرتم إلى المقابر ، وهلم اليقين : أجاز أبو حيان إضافة الشيء
لنفسه ، أى لمفايرة الوصف ، إذ العلم هو اليقين ، وإن كانه أكد منه .

وعن حسان قوله :

سرفا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

ولترون الجعيم : جواب لقسم محذوف .

وقال : المراد برؤيتها عند أول البعث ، أو عند الورود ، أو عند
ما يتكشف الحال فى القبر .

ثم لترونها عين اليقين :

قيل : هذا للكافر عند دخولها ، هذا حاصل كلام المفسرين .

ومعلوم أن هذا ليس لمجرد الإخبار برؤيتها ، وإن كان وعيد شديد
وتخويف بها ، لأن مجرد الرؤية معلوم .

وإن منكم إلا واردها ، وإن كان هذه الرؤية أخص ، كما فى قوله :
(ورأى المجرمون للنار فظنوا أنهم مواقعوها) أى أيقنوا بدليل قوله :
(ولم يجدوا عنها مصرفا) .

وقد يبدو وجه فى هذا المقام ، وهو أن الرؤية هنا للنار

نوعان :

الرؤية الأولى : رؤية علم وتيقن ، في قوله : (لوتعلمون علم اليقين) علماً تستيقنون به حقيقة يوم القيامة لأصيحتم بمثابة من يشاهد أهواله ويشهد بأحواله ، كما في حديث الإحسان : « تعبد الله كأنك تراه » .

وقد وقع مثله في قصة الصديق لما أخبر نبأ الإسراء ، فقال : « صدق محمد ، فقالوا : تصدقه وأنت لم تسمع منه ؟ قال : إني لأصدقه على أكثر من ذلك » .

فلعله علم اليقين بصدقه صلى الله عليه وسلم فيما يخبر ، صدق بالإسراء كأنه يراه .

وتكون الرؤية الثانية ، رؤية عين ومشاهدة ، فهو عين يقين . وقد قدمنا مراتب العلم الثلاث : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

فالعلم : ما كان عن دلائل .

وعين اليقين : ما كان عن مشاهدة .

وحق اليقين : ما كان عن ملازمة ومخالطة ، كما يحصل العلم بالكعبة ، ووجهتها فهو علم اليقين ، فإذا رآها فهو عين اليقين بوجودها . فإذا دخلها وكان في جوفها فهو حق اليقين بوجودها . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَ ذِئْلِ النَّعِيمِ ﴾ .

أصل النعيم كل حال فاعمة من النعومة والليونة ، ضد الخشونة واليبوسة ، والشدائد ، كما يشير إليه قوله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

ثم قال : (إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) فتقابل للنعمة بالضر .
ومثله قوله تعالى : (ولئن أذقناه نعماء ، بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عني) .

وعلى هذا فإن نعم الله عديدة ، كما قال . (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) .

وبهذا تعلم أن كل ما قاله المفسرون ، فهو من قبيل التمثيل لا الحصر ، كما قال تعالى (لا تحصوها) .

وأصول هذه النعم أولها الإسلام (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

ويدخل فيها نعم التشريع والتخفيف ، عما كان على الأمم الماضية .

كما يدخل فيها نعمة الإخاء في الله (واذكروا نعمة الله عليكم

إذ كنتم إخوانا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) ، وغير ذلك كثيرا .

وثانيها : الصحة ، وكمال الخلقة والعافية ، فمن كمال الخلقة الحواس (ألم نجعل له عيينين ولسانا وشفقين) .

ثم قال : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولا) .

وثالثها : المال في كسبه وإنفاقه سواء ، ففي كسبه من حله نعمة ، وفي إنفاقه في أوجهه نعمة .

هذه أصول النعم ، فإذا يسأل عنه ، منها جاءت السنة بأنه يسأل عن كل ذلك جملة وتفصيلا .

أما عن الدين والمال والصحة ، ففي مجمل الحديث « إذا كان يوم القيامة ، لا تزال قدم عبد حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أبلاه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق ، وعن شبابه فيم أفناه » .

ولعظم هذه الآية وشمولها ، فإنها أصبحت من قبيل النصوص مضرب المثل ، فقد فصلت السنة جزئيات ما كانت تخطر ببال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى القرطبي ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالوا : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا ، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ، قوما فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رآته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء - أي يطلب ماء عذبا - إذ جاء الأنصاري ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ، ما أحد اليوم أكرم ضيفاً مني . قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب ، فقال : كلوا من هذه ، وأخذ المدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأبي بكر وعمر : والذي نفسي بيده لتسألن عن نعم هذا اليوم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » وخرجه الترمذي .

وقال فيه : « هذا والذي نفسي بيده ، من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة ، ظل بارد ورطب طيب ، وماء بارد » وكفى الرجل الذي من الأنصار .

فقال : أبو الهيثم بن التيهان .

قال القرطبي : قلت : اسم هذا الرجل مالك بن التيهان ، ويكنى
أبا الهيثم .

وقد ذكر ابن كثير هذه القصة من عدة طرق .

ومنها : عند أحمد أن عمر رضى الله عنه أخذ بالفرق وضرب به
الأرض ، وقال « إنا لمؤولون عن هذا يا رسول الله ؟ قال : نعم ،
إلا من ثلاثة : خرقه لف الرجل بها عورته ، أو كسرة سد بها
جوعته ، أو جعر يدخل فيه من الحر والقر » .

وقال سفيان بن عيينة : إن ماسد الجوع ، وستر العورة من
خشن الطعام ، لا يسأل عنه المرم يوم القيامة ، وإنما يسأل عن
النعيم ، والدليل عليه أن الله أسكن آدم الجنة فقال له : (إن لك
الاتجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظأ فيها ولا تضحى) .

فكانت هذه الأشياء الأربعة ما يسد به الجوع ، وما يدفع
به العطش ، وما يسكن فيه من الحر ويستر به عورته ، لآدم عليه
السلام بالإطلاق ، لا حساب عليه فيها لأنه لا بد له منها .

وذكر عن أحمد أيضاً بسنده « أنهم كانوا جلوساً فطلع عليهم
النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا :

يا رسول الله ، نراك طيب النفس ؟

قال : أجل ، قال : خاض الناس في ذكر الغنى ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن
اتقى الله ، خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » .

قال : ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة .

وبهذا ، فقد ثبت من الكتاب والسنة ، أن النعيم الذي هو
محل السؤال يوم القيامة عام في كل ما يقتنعم به الإنسان في الدنيا ،
حسباً كان أو معنى .

حتى قالوا : النوم مع المافية ، وقالوا : إن السؤال عام للكافر
والمسلم ، فهو للكافر توبيخ وتقريع وحساب ، وللمؤمن تقرير بحسب شكر
النعمة وجحودها وكيفية تصریفها . والعلم عند الله تعالى .

وكل ذلك يراد منه الحث على شكر النعمة ، والإقرار بالنعيم

والقيام بحقه سبحانه فيها ، كما قال تعالى عن نبي الله : (رب أوزعني
أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً
ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك وإني من المسلمين) .

اللهم أوزعنا شكر نعمتك ، واجعل ما أنعمت علينا عوناً لنا
على طاعتك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .

العصر : اسم للزمن كله أو جزء منه .

ولذا اختلف في المراد منه ، حيث لم يبين هنا .

فقيل : هو الدهر كله ، أقسم الله به لما فيه من المعائب ، أمة تذهب وأمة تأتي ، وقد ينفذ ، وآية تظهر ، وهو هو لا يتغير ، ليل يعقبه نهار ، ونهار يطرده ليل ، فهو في نفسه عجب .

كما قيل :

موجود شبيه الممدوم ، ومتحرك يضاهي الساكن .

كما قيل :

وأرى الزمان سفينة تجري بنا نحو المنون ولا نرى حركانه

فهو في نفسه آية ، سواء في ماضيه لا يعلم متى كان ، أو في حاضره لا يعلم كيف ينقضي ، أو في مستقبله .

واستدل لهذا القول بما جاء موقوفا على علي رضي الله عنه ، ومرفوعا من قراءة شاذة : والعصر ونوائب الدهر . وحمل على التفسير إن

لم يصح قرآنا ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس .

وعليه قول الشاعر :

سبيل الهوى وعر ، وبحر الهوى غمر

ويوم الهوى شهر ، وشهر الهوى دهر

وقيل العصر : الليل والنهار .

قال حميد بن ثور :

ولم يلبث المصران يوم ليلة إذا طلبا أن يدركا ما يتهما

والمصران : أيضا الغداة والعشي .

كما قيل :

وأمطله المصرين حتى يملئ ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

والمطل : التسويف وتأخير الدين .

كما قيل :

قضى كل ذي دين فوق غريمه وعزة مطول معنى غريمها

وقيل : إن للعشى ما بعد زوال الشمس إلى غروبها ، وهو قول

الحسن وقتادة .

ومنه قول الشاعر :

تروح بنا باعمرو قد قصر العصر
وفي الروحة الأولى الغنيمة والاجر

وعن قتادة أيضاً : هو آخر ساعة من ساعات النهار ، لتعظيم
اليمين فيه ، وللقسم بالفجر والضحى .

وقيل : هو صلاة العصر لكونها الوسطى .

وقيل : عصر النبي صلى الله عليه وسلم أو زمن أمته ، لأنه يشبه
عصر عمر الدنيا .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن أقرب هذه الأقوال كلها
قولان : إما العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة ، إذ أقل درجاتها
التفسير ، ولأنه يشمل بعمومه بقية الأقوال .

وإما عصر الإنسان أى عمره ومدة حياته الذى هو محل الكسب
والخسران لإشمار السياق ، ولأنه يخص العبد فى نفسه موعظة
وانتفاعاً .

ويرشح لهذا المعنى ما يكتنف هذه السورة من سور التكاثر قبلها ،
والهمزة بعدها ، إذ الأولى تدم هذا التلميح والتكاثر بالمال والولد ، حتى
زيارة المقابر بالموت ، ومحل ذلك هو حياة الإنسان .

وسورة الهمزة في نفس المعنى تقريباً ، في الذي جمع مالا وعدده ،
يحسب أن ماله أخذه .

فجميع المال وتمداده في حياة الإنسان وحياته محدودة ، وليس
مخلداً في الدنيا ، كما أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبط بحياة
الإنسان .

وعليه ، فإما أن يكون المراد بالمعصر في هذه السورة العموم
لشموله الجميع وللقراءة الشاذة ، وهذا أقواها .

وإما حياة الإنسان ، لأنه ألزم له في عمله ، وتكون كل
الإطلاقات الأخرى من إطلاق الكل ، وإرادة البعض ، والله تعالى
أعلم .

وقوله : (إن الإنسان لفي خسر)

لفظ الإنسان وإن كان مفرداً ، فإن أل فيه جعلته للجنس .

وقد بينه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ،
وتقدم التنبيه عليه مراراً ، فهو شامل للمسلم والكافر ، إلا من استثنى
الله تعالى .

وقيل : خاص بالكافر . والأول أرجح للعموم .

وإن الإنسان لفي خسر ، جواب القسم ، والخسر : قيل : هو

الغبن ، وقيل : النقص ، وقيل : العقوبة ، وقيل : الهلكة ، والكل متقارب .

وأصل الخسر والخسران كالـكفر والكفران ، النقص من رأس المال ، ولم يبين هنا نوع الخسران في أى شيء ، بل أطلق ليعم ، وجاء بحرف الظرفية ، ليشعر أن الإنسان مستغرق في الخسران ، وهو محيط به من كل جهة .

ولو نظرنا إلى أمرين وهما المستثنى والسورة التي قبلها ، لاتضح هذا العموم ، لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور : عدم الإيمان وهو الكفر ، وعدم العمل الصالح وهو العمل الفاسد ، وعدم التواصي بالحق وهو انعدام التواصي كلية أو التواصي بالباطل ، وعدم التواصي بالصبر ، وهو إما انعدام التواصي كلية أو الهلع والجزع .

والسورة التي قبلها تلهم الإنسان بالتكاثر في المال والولد ، بغية الغنى والتكثر فيه ، وضده ضياع المال والولد وهو الخسران .

فعملية يكون الخسران في الدين من حيث الإيمان بسبب الكفر ، وفي الإسلام وهو ترك العمل ، وإن كان يشمله الإيمان في الاصطلاح والتلهم في الباطل وترك الحق ، وفي الهلع والفزع .

ومن ثم ترك الأمر والنهي بما فيه مصلحة المبد وفلاحه وصلاح

دينه ودنياه ، وكل ذلك جاء في القرآن ما يدل عليه نجمه كالآتي :
 أما الخسران بالكفر . فكما في قوله تعالى . (لئن أشركت ليحبطن
 عملك ولتكونن من الخاسرين) .

وقوله : (قد خسر الدين كذبوا بلفاء الله) ، أى لأنهم لم
 يعملوا لهذا اللقاء ، وقصروا أمرهم في الحياة الدنيا فضيّموا أنفسهم ،
 وحظّموا من الآخرة .

وأما الخسران بترك العمل ، فكما في قوله تعالى : (ومن خفت
 موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) لأن الموازين هى معايير الأعمال
 كما تقدم (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) .

ومثله : (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر
 خسراً مبيناً) ، لأنه سيكون من حزب الشيطان (ألا إن حزب
 الشيطان هم الخاسرون) أى بطاعتهم إياه في معصية الله .

وأما الخسران بترك التواصى بالحق فليس بعد الحق إلا الضلال ،
 والحق هو الإسلام بكامله ، وقد قال تعالى : (ومن يتق غير الإسلام
 ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وأما الخسران بترك التواصى بالصبر والوقوع فى الملح والفرع ،

فكما قال تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) .

تحقيق المناط في حقيقة خسران الإنسان

اتفقوا على أن رأس مال الإنسان في حياته هو عمره . كلف بإعماله في فترة وجوده في الدنيا ، فهي له كالسوق . فإن أعمله في خير ربح ، وإن أعمله في شر خسر .

وبدل لهذا المعنى قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية .

وقوله : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله) الآية .

وفي الحديث عند مسلم : « الطهور شطر الإيمان » .

وفي آخره « كل الناس يقدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » مما يؤكد أن رأس مال الإنسان عمره .

ولأهمية هذا العمر جاء قسم الرسالة والندارة في قوله : (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) .

وعلى هذا قالوا : إن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى .

وهدى كل إنسان النجدين ، وجعل لكل إنسان منزلة في الجنة ومنزلة في النار .

فمن آمن وعمل صالحا كان مآله إلى منزلة الجنة ، وسلم من منزلة النار . ومن كفر كان مآله إلى منزلة النار ، وترك منزلته في الجنة .

كما جاء في حديث القبر « أول ما يدخل في قبره إن كان مؤمناً يفتح له باب إلى النار ، ويقال له : ذاك مقعدك من النار لو لم تؤمن ثم يقتل عنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ويقال له : هذا منزلتك يوم تقوم الساعة ، فيقول : رب ، أقم الساعة » .

وإن كان كافراً كان على العكس تماماً ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيأخذ كل منزلته فيها ، وتبقى منازل أهل النار في الجنة خالية فيتوارثها أهل الجنة ، وتبقى منازل أهل الجنة في النار خالية ، فتوزع على أهل النار ، وهنا يظهر الخسران المبين ، لأن من ترك منزلة في الجنة وذهب إلى منزلة في النار ، فهو بلا شك خاسر ، وإذا ترك منزلته في الجنة لغيره وأخذ هو بدلا منها منزلة غيره في النار ، كان هو الخسران المبين ، صياداً بالله .

أما في غير الكافر وفي عموم المسلمين ، فإن الخسران في التفريط بحيث لو دخل الجنة ولم ينل أعلى الدرجات يُحسّ بالخسران في الوقت الذي فرط فيه ، ولم يتنافر في فعل الخير ، لينال أعلى الدرجات .

فهذه السورة فعلا دافع لكل فرد إلى الجـد والعمل المربح ، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد ، فإن أمامه مجال للكسب والربح ، نسأل الله التوفيق والفلاح .

وقد قالوا : لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزيناً ، فإن كان مسيئاً فملى إساءته ، وإن كان محسناً فلتقصيره . وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) .

فالحوف من المستقبل أمامهم ، والحزن على الماضي خلفهم ، والله تعالى أعلم .

ويبين خطر هذه المسألة : أن الانسان إذا كان في آخر عمره ، وشمر بأيامه المحدودة وساعاته المحدودة ، وأراد زيادة يوم فيها ، يتزود منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضاً مما فاتته ، لم يستطع لذلك سبيلاً ، فيشمر بالأسى والحزن على الأيام والليالي والشهور والسنين التي ضاعت عليه في غير ما كسب ولا فائدة ، كان من الممكن أن

تكون مربحة له ، وفي الحديث الصحيح : « نعمتان مغبون فيهما :
الإنسان : الصحة والفراغ » .

أى أنهما يمضيان لا يستغلها في أوجه الكسب المكتملة ، فيفوتان
عليه بدون عوض يذكر ثم يندم ، ولات حين مندم .

كما قيل في ذلك :

بدلت جهة رأس أزعرا وبالثنايا البيض الدر دررا
* كما اشترى المسلم إذ تنصرا *

تنبيه

في سورة التكاثر تقبيح التلوى بالتكاثر بالمال والولد ونحوه ،
ثم الإشعار بأن سببه الجهل ، لأنهم لو كانوا يعلمون علم اليقين لما
ألهم ذلك حتى باغتهم الموت .

وهنا إشعار أيضاً بأن سبب هذا الخسران الذى يقع فيه الإنسان ،
هو الجهل الذى يجر إلى الكفر والتمادى فى الباطل ، ويساعد على
هذا قسوة القلب ، وطول الأمل . كما قال تعالى : (ألم يأن للذين
آمَنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين
أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

تنبيه آخر

قوله تعالى (إن الإنسان لفي خسر) نص على الإنسان على ما تقدم
وقد جاءت آية أخرى تدل على أن الجن كالإنس في قوله تعالى :
(أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن
والإنس إنهم كانوا خاسرين) .

وتقدم بيان تكليف الجن بالدعوة واستجابتهم لها . والدعوة إليها .
قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا
بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدم ، مما دل على العموم كما
قدمنا ، والإيمان لغة التصديق وشرعا الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان
الست ، في حديث جبريل عليه السلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم لما
سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان .

وعملوا الصالحات : العطف يقتضى المغايرة .

وإذا قال بعض الناس : إن الأعمال ليست داخلية في تعريف
الإيمان ومقالاتهم معروفة .

والجمهور : أن الإيمان اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح .

فالعمل داخل فيه ويزيد ويفقص ، وقد قدمنا : أن العمل شرط

أقرب من أن يكون جزءاً ، أى أن الإيمان يصدق بالاعتقاد ، ولا يتوقف وجوده على العمل ، ولكن العمل شرط في الانتفاع بالإيمان ، إذا تمكن العبد من العمل ، وما يدل لكون الإيمان يصدق عليه حد الاعتقاد والنطق ، ولو لم يتمكن العبد من العمل ، قصة الصحابي الذي أسلم عند بدء المعركة ، وقايل ، واستشهد ولم يصل لله ركعة ، فدخل الجنة .

والجمهور : على أن مجرد الاعتقاد لا ينفع صاحبه ، كما كان يعتقد عم النبي صلى الله عليه وسلم صحة رسالته ، ولكنه لم يقل كلمة يحتاج له صلى الله عليه وسلم بها ، وكذلك لو اعتقد ونطق بالشهادتين ، ولم يعمل كان مناقضاً لقوله .

وقد قدمنا هذه المسألة مفصلة .

والصالحات : جمع صالحة . وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه تعريفه وشروط كون العمل صالحاً بأدلة من كونه موافقاً لكتاب الله وعمله صاحبه خالصاً لوجه الله ، وكونه صادراً من مؤمن بالله . إلخ .

وقوله : (وتواصوا بالحق) .

قال شيخنا الكبير : مؤيداً له بما ذكره في كتابه

يعتبر التواصي بالحق ، من الخاص بعد العام ، لأنه داخل في عمل الصالحات .

وقيل : إن التواصي ، أن يوصى بعضهم بعضاً بالحق .

وقيل : الحق كل ما كان ضد الباطل ، فيشمل عمل الطاعات ، وترك المعاصي .

واعتبر هذا أساساً من أسس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بقرينة التواصي بالصبر ، أي على الأمر والنهي . على ما سيأتى إن شاء الله

وقيل : الحق ، هو القرآن . لشموله كل أمر وكل نهى ، وكل خير ، وبشهد لذلك قوله تعالى في حق القرآن (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)

وقوله : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) .

وقد جاءت آيات في القرآن تدل على أن الوصية بالحق تشمل الشريعة كلها ، أصولها وفروعها ، ماضيها وحاضرها ، من ذلك ما وصى الله به الأنبياء وعموماً ، من نوح وإبراهيم ومن بعدهم في قوله تعالى

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وإقامة الدين للقيام بكليته ، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل للأمم ومن بعدهم ، فنفذها إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى :
(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

ومن بعد إبراهيم يعقوب كما قال تعالى :

(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) .

فهذا تواصى الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة ، وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة ، كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى عليه السلام
(وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبرا بوالدتي) .

وكذلك الحالة الاجتماعية ماثلة في الوصية بالوالدين والأولاد ، لترابط الأسرة ، ففي الوالدين قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) .

وفي الأبناء قال : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ
الأنثيين) .

وفي الحقوق العامة أواخر ونواهي ، عبادات ومعاملات ، جاءت
آيات الوصايا العشر التي قال عنها ابن مسعود رضي الله عنه « من
أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها
خاتمه فليقرأ : (قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به
شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم
وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا
مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان
بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا
قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا
صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم
وصاكم به لعلكم تتقون) » .

تلك الوصايا الجامعة أبواب الخير الموصدة أبواب الشر والمذبلة
بهذا التبئين والتعريف ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا
السبل

ولو أردنا أن نربط بين هذا وبين التواصي بالحق وبينهما وبين فاتحة الكتاب ، فكانت النتيجة كالآتي في قوله : (وتواصوا بالحق) إحالة على تلك الوصايا ، وهي شاملة جامعة ومعمنون لها بأنها صراط الله المستقيم .

فكان قوله : (وتواصوا بالحق) مساوياً لقوله : وتواصوا بالصراط المستقيم . واستقيموا عليه .

ثم في سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) وهذا صراط الله المستقيم فاتبعوه .

فكانت سورة العصر مشتملة على التواصي بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه ، ويأتي عقبها قوله (وتواصوا بالصبر) بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم ، إذ الصبر لازم على عمل الطاعات ، كما هو لازم لترك المنكرات .

وتلك الوصايا العشر جمعت أمراً ونهيًا فعلاً وتركاً ، وكذلك فيه الإشارة إلى ما يقوله دعاء الإسلام من أن العمل الصالح والدعوة إلى الحق والتواصي به ، فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغالباً من يقوم به يتعرض لأذى الناس ، فلزمهم التواصي بالصبر ، كما قال

لابنه بوصيه وجامعاً في وصيته وصية سورة العصر إذ قال : (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا عليه بيان قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتفصيل عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) في سورة المائدة .
فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة .

كما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : لو تأمل الناس هذه السورة لكفّتهم .

قوله : (وتواصوا بالصبر) جاء الحث على التواصي بالرحمة أيضاً مع الصبر ، في قوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) .

وبهذه الوصايا الثلاث : بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة ، تكتمل مقومات المجتمع المتكامل قوامه الفضائل المثلى ، والقيم للفضلى .

لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق ، والاستقامة على الطريق للمستقيم .

وبالتواصي بالصبر ، يستطيعون مواصلة سيرهم على هذا الصراط ،
ويتخطون كل عقبات تواجههم .

وبالتواصي بالمرحمة : يكونون مرتبطين كالجسد الواحد ، وتلك
أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطائها في هذه السورة الموجزة .
وبالله التوفيق .

تنبيه

قال الفخر الرازي : إن الله تعالى لما أخبر عن هؤلاء بالنجاة من
الخسران ، وفوزهم بالعمل الصالح والإيمان ، أخبر عنهم أنهم لم
يكتفوا بما يتعلق بهم أنفسهم بل تعدوا إلى غيرهم ، فدعاهم إلى
ما فازوا به على حد قوله صلى الله عليه وسلم « حب لأخيك ما تحب
لنفسك » اهـ . ماخصاً

ويشهد لهذا قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
تنزل عليهم الملائكة — إلى قوله ومن أحسن قولاً من دعا إلى
الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة
ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

فقد بين تعالى أن الناس أقسام ثلاثة ، إزاء دعوة الرسل .
 قوم آمنوا وقالوا : ربنا الله ، واستقاموا على ذلك بالعمل الصالح .
 وقوم : ارتفعت همّتهم إلى دعوة غيرهم وهم أحسن قولاً بلا شك .
 وقوم : عادوا الدعاة وأسأؤوا إليهم .

ثم بين موقف الدعاة من أولئك المسيئين في غضون قوله تعالى :
 (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع) أى إساءة المسيئين (بالتي هي
 أحسن) فيصبحوا أولياء لك وبين أن هذه المنزلة (لا يلقاها إلا الذين
 صبروا) ثم بين أن من ارتفع إليها وسلك مسالكها (أنه ذو حظ عظيم) .

تنبيه

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قوله
 للدعاة عدوان : أحدهما : من الإنس . والآخر من الشياطين .

وقد أرشدنا الله لكيفية التغلب عليهما واكتفاء شرهما .

أما عداوة الإنس فبمقابلة الإساءة بالإحسان ، فيصبح ولياً حميماً .

وأما عدو الجن فبالاستعاضة منه (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ
 فاستمذ بالله إنه هو السميع العليم) .

نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

وقد أشرنا إلى أن الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه قدم مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) .

وذكر سورة العصر عندها ، وعقد مسائل متعددة في منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بما لا غنى عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ .

اختلف في معنى كلمة ويل .

فويل : هو واد في جهنم .

وقيل : هي كلمة عذاب وهلاك .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، ذكر هذين المعنيين في سورة الجاثية عند قوله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم) ، وبين أنها مصدر لا لفظ له من فعله ، وأن المسوغ للاقتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك .

وقد استظهر رحمه الله تعالى هذا المعنى .

ومما يشهد لما استظهره رحمه الله ، ما جاء في حق أصحاب الجنة التي أصبحت كالصريم ، أنهم قالوا عند رؤيتهم إياها (قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين) فهي كلمة تقال عند نزول المصائب ، وعند التوبيخ .

وقال الفخر الرازي : أصل الويل لفظة السخط والدم ، وأصلها

هى لفـلان ، ثم كثرت فى كلامهم فوصلت باللام ، ويقال : ويح
جالء للترحم اهـ .

وعما يدل لقول الرازى أيضاً قول قارون (ويكأن الأ بسط
الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) .

ومثله للتعجب فى قوله : (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا
بعلى شيخا) .

وقوله : (قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا العرب
خأوارى سواة أخى) .

فالظاهر : أنها كلمة تقال عند الشدة والهلكة ، أو شدة التعجب
عما يشبه المستبعد .

والذى يشهد له القرآن : هو هذا المعنى ، وسبب الخلاف قد
يرجع لجيئها تارة مطلقة كقوله : (ويل يومئذ للكذابين) ، وهنا
(ويل لكل همزة لمزة) .

ويجىء مع ذكر ما يتوعد به كقوله : (فويل للذين كفروا من
النار) ، وقوله : (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) ، فذكر
النار والمذاب الأليم .

وكذلك قوله : (فويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم) ،
فهي في هذا كله للوعيد الشديد ، مما ذكر معها من النار والعذاب
الآليم ومشهد يوم عظيم ، وليست مقصودة بذاتها دون ما ذكر معها ،
والعلم عند الله تعالى .

وقوله : (همزة لمزة) قيل : ها بمعنى واحد ، وهو الغيبة .

وأشدد ابن جرير قول زياد الأعجم :

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا وإن أغيب فانت الهامز الهمزة

وعزا هذا لابن عباس ، وهو الذي يصيب الناس ويظعن فيهم .

وقد جاء في القرآن استعمال كل من الكلمتين مفردة عن الأخرى ،

بما يدل على المغايرة .

ففي الهمزة قوله : (ولا تطع كل حلاف مهين هاز مشاء بنميم)

بما يدل على الكذب والنيمة .

وفي الهمزة قوله تعالى : (ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنفـواـبـزوا

بالألقاب) .

وقوله : (ومنهم من يلمزك في الصدقات) مما يدل على أنها أقرب

للتقص والمعيب في الحضور لا في الغيبة ، فتفاير الهمز في المعنى ، وفي

للصفة ، والجمع بينهما جمع بين القبيحين ، فكان مستحقاً لهذا الوعيد الشديد بكلمة ويل .

وقد قيل : الهمز باليد : وقيل : باللسان في الحضرة ، والهمز في الغيبة .

وقيل : الهمز باليد ، واللمز باللسان ، والغمز بالعين ، وكلها معان متقاربة تشترك في تنقص الآخرين .

قوله تعالى ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ .

هذا الوصف يشعر بأنه علة فيما قبله ، إذ الموصول هنا يدل من كل المقدمات ، وليس العيب في جمع مالا بل في عدده . بحسب أن ماله أخلاه . وفي عدده عدة معان :

قيل : عدده كل وقت وآخر ، تحفظاً عليه .

وقيل : عدده كنزه

وقيل : عدده أعدده للحاجة .

وقرىء : جمع وعدد بالتشديد وبالتخفيف . والمراد به من لم يؤد حق الله فيه شحاً وبخلًا ، كما تقدم في سورة (ألهاكم التكاثر) .

قوله تعالى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ .

هذا الحسابان هو المذموم عليه ، والمنصب عليه الوعيد ، لأنه كفر بالبعث . كما قال صاحب الجنة في الكهف (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه . قال : ما أظن أن تبديد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة) .

قوله تعالى : ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ .

كلا : ردع وزجر له على حسابانه الباطل ، ولينبذن في جواب قسم محذوف دل عليه قوله : كلا .

وهذا يفسره ما تقدم في قوله : (فأمه هاروية) أى ينبذ نبذا ، فيهوى على أم رأسه . عياداً بالله .

والحطمة : فعلة من الحطم ، وهو الكسر ، ثم الأكل الكثير .

وقد فسرت بما بعدها (نار الله الموقدة) ، وسميت « حطمة » لأنها تحطم كل ما ألقى فيها ، وتقول : هل من مزيد .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ .

قيل : موصدة في عمد . بأن العمد صارت وصداً للباب كالقفل ، والفلق له .

وقيل : في عمد : أنهم يدخلون في عمد كالقصبة ، مجوفة الداخل .

وقيل : في عمد : أى توضع أرجلهم في العمدة على صورة القيد في الخشبة الممتدة ، يشد فيها عدد من الأشخاص في أرجلهم

و كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في ذلك : أن العمدة بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم ، كما في قوله : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا) .

فيكون أرجح في هذا المعنى .

وقد نص عليه في إملائه رحمة الله تعالى علينا وعليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٩

سُورَةُ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

اختلف في معنى السجيل هنا .

فقال قوم : هو السجين ، أبدات الفون لاما ، والسجين النار .

وقيل : إن السجيل من السجل ، كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيننا لديوان أعمالهم واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وهي حجارة مرسلة لقوله (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) .

وقوله : إن سجيننا ، أي ديوان أعمالهم ، يعني قوله تعالى : (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) .

وقيل : معنى سجيل ستك وطين ، يعني بعض حجر وبعض طين .

وقيل : معناه الشديد .

وقيل : السجيل اسم لسما الدنيا .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ترجيح أنها من طين

شديد القوة .

وهذا ما يشهد له القرآن لما في سورة الذاريات (قالوا إنا أرسلنا
إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك
للمسرفين) فنص على أنها من طين .

والحجارة من الطين : هي الآجر وهو الطين المطبوخ حتى
يتحجر .

وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضوض في قوله : (فلما جاء
أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل
منضوض) .

وقيل فيها : كالحصاة والمدسة ، والضمير في عليهم راجع لأصحاب
القيل ، وقصتهم طويلة مشهورة .

تنبيه

قد أوردنا نصوص معنى سجيل ، وترجيخ الشيخ رحمة الله تعالى
عليها وعليه : أنها حجارة من طين شديد القوة تنبيهاً على ما قيل
من استبعاد ذلك ، ورداً على من صرف معناها إلى غير الحجارة
المحسوسة .

أما من استبعدها ، فقد حكاه الفخر الرازي بقوله : واعلم أن من
الناس من أنكر ذلك .

وقالوا : لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل ، وأن يكون في وزن القبة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات .

فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شمس وأقمار ، ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك في عين الضير ، حتى يكون هو بالشرق ، ويرى قطعة من الأرض بالأنداس ، وكل ذلك محال .

ثم قال : واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا ، إلا أن الصادة جارية بأنها لا تقع .

وهذا القول يحكيه الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ ستمائة وست ، فنرى استبعادهم إياها مبنى على تحكيم العقل ، وهذا باطل لأن خوارق المعادات دائماً فوق قانون العقل ، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده .

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أن يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم ، لو حدثت به العقول سابقا من نقل الحديث ، والصورة على الأثير ، وتوجيه الطائرات وأمثالها ، لما قوى على تصورهما لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته .

وحتى نحن لو لم يسأبرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائي ،
وما له من دور فعال في ذلك لما أمكننا تصوره ، ثم من يمنع شيئاً من
ذلك على قدرته تعالى .

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالعن المنفوش
أخف من التبنه ، التي مثلوا بها ، بل ستكون أقل من ذلك ، كما قال
تعالى : (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، فظهر بطلان هذا القول
الذي استبعدها لعدم إدراك العقل لها .

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر ، فهو قريب من الأول
من حيث المبدأ ، إلا أنه أثبت الأصل وفسره بما يتناسب والعقل .

وهو محكي عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، إذ
فسر الحجارة من سجيل ، بأنه وباء الجدرى .

وبالتالى : فالطير الأبايل : هى البعوض وما أشبهه .

وقد اعتذر له السيد قطب : بأن الدافع لذلك هو ما كان شائعاً في
عصره من موجات متضاربة ، موج انحراف في التفكير نحو الإسلام
واستغلال الإسرائيليات ، كمثال على ما يشبه الأباطيل في تشويه حقائق
الإسلام عند غير المسلمين .

ومن ناحية أخرى طوفان على حديث ، من إنتاج العقل البشرى
فبدلاً من أن تثبت حادثة كهذه صرفت إلى ما يألوه العقل من إيقاع
ميكروب الجدري بجيش أبرهة حتى أهلكه ، لكن لا يتصادم في إثبات
الحادثة على مانص عليه القرآن بواقع للعقلية العلمانية الحديثة .

هذا ملخص ما اعتذر به السيد قطب عن هذا القول .

ولكن من الناحية العلمية والنصوص القرآنية ، فقد تقدم : أن
الحجارة التي من سجيل ، جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم ،
بل ألقيت على قوم لوط ، بعد أن جعل عاليها سافلها ، فما موقع
الجدري منهم بعد إهلاكهم يافكها المذكور ؟

ثم جاء أيضاً : أنها من طين ، فأين الطين من الجراثيم
الجدرية ؟

ومن الناحية العلمية : من أين جاء بميكروب الجدري ؟ وأين
كان قبل أن تأتي به الطير الأبايل ؟

ومتى كان ميكروب الجدري أو غيره ، يميز بين قرشى وحبشى ؟

ومتى كان أى ميكروب يفتك بقوم وبسرعة ، يجعلهم كعصف
مأكول ، مع أن : فجعلهم ، تشمر بالسرعة في إهلاكهم ، والعصف
اليابس الذى تعصف به الريح خلفه .

ومتى كان وجود الجدرى طفرة وفجاءة ، إنه يظهر في حالات فردية ، ثم ينتشر هذا من الناحية العلمية ، وإدراك العقل ، لما عرف من ميكروب الجدرى .

ولكن ملابسات الحادثة تمنع من تصور ذلك عقلا لعدم انتشاره في جميع أفراد المنطقة ، ولعدم تأثيره فعلا بهذه الصورة ، ولعدم أيضاً تصور مجيئه فجاءة ، فدل العقل نفسه على عدم صحة هذا القول .

ثم من ناحية أخرى إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها ، فكيف تثبت مثل : حنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، وتسبيح الحصى في كفه صلوات الله وسلامه عليه ؟

وقد شاهد العقل الصورة القصوى ، وهي خروج الناقة من الصخرة لقوم صالح ، بل إننا الآن بالحس والعقل نشاهد ما لا ندرك كنهه في وسائل الإعلام ، ونسمع الصوت من الجماد مسجلاً على شريط بسيط جداً .

فهل ينفي الباقي ؟ بل كيف أثبت النصارى هيسى ابن مريم عليه السلام لإبراء الأكهم والأبرص . وإحياء الموتى ، وعمل الطير من الطين ، ثم يدفع فيه فيكون طيراً بإذن الله .

وكيف أثبت اليهود لموسى أمر العصا وشق البحر ؟ وأين العقل
من ذلك كله ؟

الواقع أننا فى كل زمان ومع كل قضية ، يجب أن نلتزم جانب
الاعتدال ، لا هو جري وراء كل خبر ، ولو كان إسرائيلياً ولا هو
رد لكل نص ولو كان صريحاً قرآنياً ، بل كما قال السيد قطب
فى ذلك :

يجب أن نستمد فكرنا من نصوص القرآن ، وأن ما يقرره نعتقده
ونقول به .

وقد ناقشنا هاتين الفكرتين القديمة التى استبعدت ذلك كلية ،
والحديث التى أولتها .

ونضيف شيئاً آخر فى جانب الفكرة الثانية ، وهى لعل مما حدا
بأصحابها إلى ذلك ماجاء عن قتادة قوله : إنه لم ير الجدرى بأرض
العرب مثل تلك السنة .

وقيل أيضاً : لم ير شجر الخنظل ، إلا فى ذلك القاربخ .

فيقال أيضاً : إن العقل لا يستبعد هنا أن يكون إهلاك هذا الجيش
الكبير بتلك الحجارة فى مكان معسكره فى بطن الوادى ، ووقوع

الجنث مصابة بها ، لا يمنع أن تتعفن ثم يقول منها مكروب الجدرى ،
ولا مانع من ذلك . والعلم عند الله تعالى .

تنتيه آخر

قالوا : إن أصحاب هذا الجيش نصارى وهم أهل دين وكتاب ،
وأهل مكة وثنيون لادين لهم ، والكعبة ممتلئة بالأصنام ، فكيف
أهلك الله النصارى أصحاب الدين ولم يسلطهم على الوثنيين ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة .

منها : أن الجيش ظالم باغ ، والبغى مرتبه وخيم ، ولو كان
المظلوم أقل من الظالم ، ويشهد لذلك الحديث « في نصرة المظلوم ،
واستجابة دعوته ولو كان كافرا » .

ومنها : أن الوثنية اعتداء على حق الله في العبادة ، وغزو هذا
للجيش اعتداء على حقوق العباد .

ومنها : أنه إرهاب لمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ ولد في هذا
العام نفسه .

وكلها وإن كانت لها وجه من النظر ، إلا أنه يبدو لي وجه ،

وهو أن الأصل في نشأة البيت وإقامته ، إنما هو الله رفع قواعده وأقام الصلاة في رحابه ، وكان طاهراً مطهراً لما كفين فيه والركع السجود ، وإنما الوثنية طارئة عليه وإلى أمد قصير مداه ودنا منهاه ،
لدين جديد .

والمسيحية بنفسها تعلم ذلك وتنص عليه وتبشر به ، فكانت معتدية على الحقين معاً ، حق الله في بيته ، والذي تعلم حرمة وماله ، وحق المباد الذين حوله .

وكانت لو سلطت عليه بمثابة المنتصرة على مبدأ صحيح ، مع فسادها مبدأ صحة وسلامة بناء البيت ، ووضع البيت الذي من خصائصه أن يكون مثابة للناس وأمناً .

فكيف لا يأمن هو نفسه من غزو الغزاة وطفيان اللطفاة ، فصانه الله تعالى صيانة لمبدأ وجوده ، وحفاظاً على أصل وضعه في الأرض ، ويكفي نسبه لله بيت الله .

وقد أدرك أبوطالب هذا المني بعينه إذ قال لأبرهة :

أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه . وأتى باب الكعبة فتعلق بها وقال :

لام إن العبد بمنع رحله فامنع حلاك

لا يفلين صليبهـــــــــــــــــم ومحالمهم عددا يوالك
 إن يدخلوا البلد الحرا م فأمر ما بدا لك

وقيل : إنه قال :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
 إن عدو البيت من عاداكا لأنهم ان يقهروا قواكا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ . إِلَّا فِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ .

اختلف في اللام في لإيلاف قريش ، هل هي متعلقة بما قبلها ،
وعلى أى معنى . أم متعلقة بما بعدها ، وعلى أى معنى .

فن قال : متعلقة بما قبلها ، قال متعلقة بحمل في قوله : (فجعلهم
كعصف ما كول)

ونكون بمعنى لأجل إيلاف قريش يدوم لهم . ويبقى تعظيم العرب
إياهم ، لأنهم أهل حرم الله ، أو بمعنى إلى أى جعلنا المدو كعصف
ما كول ، هزيمة له ونصرة لقريش نعمة عليهم ، إلى نعمة إيلافهم رحلة
الشتاء والصيف .

ومن قال : متعلقة بما بعدها ، قال لإيلاف قريش إيلافهم الذى

ألقوه أى بمثابة التقرير له ، ورتب عليه ، فليعبدوا رب هذا البيت . أى أثبتته إليهم وحفظه لهم .

وهذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير ، ورواه ابن عباس ، ورد جواز القول الأول ، لأنه يلزمه فصل السورتين عن بعض .

وقيل : إنها للتعجب ، أى اعجبوا لإيلاف قريش ، حكاه القرطبي عن الكسائي والأخفش ، والقول الأول أغیره .

وروى أيضاً عن ابن عباس وغيره ، واستدلوا بقراءة السورتين معاً في الصلاة في ركعة قرأ بهما عمر بن الخطاب ، وبأن السورتين في أبى بن كعب متصلتان ، ولا فصل بينهما .

وحكى القرطبي التولين ، ولم يرجح أحدها ، ولا يبعد اعتبار الوجهين لأنه لا يعارض بعضها بعضاً .

وما اعترض به ابن جرير بأنه يلزم عليه اتصال السورتين فليس يلزم ، لأنه إن أراد اتصالهما في المعنى ، فالقرآن كله متصلة سورة معنى .

ألا ترى إلى فاتحة الكتاب وفيها (اهدنا الصراط المستقيم) فجاءت سورة البقرة : (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وبعدها ذكر

أوصافهم وقال (أولئك على هدى من ربهم) فأى ارتباط أقوى من هذا ، كأنه يقول : الهدى الذى تطلبونه فى هذا الكتاب فهو هدى للمتقين ، وإن أراد اتصالاً حساً بعدم البسملة ، فنظيرها سورة براءة مع الأنفال ، ولكن لا حاجة إلى ذلك ، لأن إجماع القراء على إثبات البسملة بينهما ، اللهم إلا مصحف أبى بن كعب ، وليس فى هذين الوجهين وجه أرجح من وجه .

ولذا لم يرجح بينهما أحد من المفسرين ، سوى ابن جرير رحمه الله :

وصحة الوجهين أقوى وأعم فى الامتنان وتعداد النعم .

والإيلاف : قيل من التأليف ، إذ كانوا فى رحلتهم بألفون الملوك فى الشام واليمن ، أو كانوا هم فى أنفسهم مؤلفين ومجمعين ، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف ، ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم ، وأنشدوا :

أبونا قصى كان يدعى مجماً به جمع الله القبائل من فهر

وقيل : من الألف والتعود ، أى ألفوا الرحلتين .

فللابقاء لهم على ما ألفوه وقريش . قال أبو حبان : علم على

القبيلة .

وقيل : أصلها من القرش ، وهو الاجتماع أو التكبس والجمع .

وقيل : من دابة البحر المسماة بالقرش وهي أخطر حيواناته ، وهو مروي عن ابن عباس في جوابه لمعاوية .

وأشد قول به :

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشاً
تأكل الرث والسمن ولا تترك فيها لدى جناحين ريشاً
هكذا في البلاد حتى قريش يأكلون البلاد أكلا كيشاً
ولهم آخر الزمان نهي يكثر القتل فيهم والمخوشا

وقوله تعالى : (رحلة الشتاء والصيف) هو تفسير لإبلافاً سواء على ما كانوا يؤلفون بين الملوك في تلك الرحلات ، أو ما كانوا يألفونه فيهما .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ .

المراد بالبيت : البيت الحرام ، كما جاء في دعوة إبراهيم عليه وعلى عبينا الصلاة والسلام (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ .

بمثابة التعليل لموجب أمرهم بالعبادة ، لأنه سبحانه الذي هيا لهم هاتين الرحلتين اللتين كانتا سبباً في تلك النعم عليهم ، فكان من واجبهم أن يشكروه على نعمه ويعبدوه وحده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى ، عند قوله تعالى : (أولم روا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) وساق النصوص بهذا المعنى بما أغفى عن إعادته .

تنبية

في قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ربط بين النعمة وموجبها ، كالربط بين السبب والمسبب .

ففيه بيان لموجب عبادة الله تعالى وحده ، وحقه في ذلك على عباده جميعاً ، وليس خاصاً بقريش .

وهذا الحق قرره أول لفظ في القرآن ، وأول نداء في المصحف ،

فالأول قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) كأنه يقول هو سبحانه مستحق الحمد ، لأنه رب العالمين ، أي خالقهم ورازقهم ، وراحمهم إلى آخره .

والثاني : (يا أيها الناس ، اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب بقوله : (الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

ثم عدد عليهم نعمه بقوله : (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

فهذه النعم تعادل الإطعام من جوع ، والأمن من خوف ، في حق قريش ، ومن ذلك قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) .

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها ، إلا ما كان استدراجا ، فقال في شكر النعمة : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وقال في الكفران وعواقبه : (وضرب الله مثلا قرية كانت

آمنة مطمئة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله
فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

وبهذه المناسبة إن على كل مسلم أفراداً وجماعات ، أن يقابلوا
نعم الله بالشكر ، وأن يشكروها بالطاعة والمعبادة لله ، وأن يحذروا
كفران النعم .

تنبيه آخر

في الجمع بين إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف ، نعمة عظمى . لأن
الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معاً ،
إذ لا عيش مع الجوع ، ولا أمن مع الخوف . وتكمل النعمة
باجتماعهما .

ولذا جاء الحديث « من أصبح معافى بدنه آمناً في سربه
عنده قوت يومه ، فقد اجتمعت عنده الدنيا بخذاً غيرها » .

تنبيه آخر

إن في هذه السورة دليلاً على أن دعوة الأنبياء مستجابة ، لأن
الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لأهل الحرام بقوله :

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) .

وقال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك)
فأطمعهم الله من جوع وآمنهم من خوف ، وبعث فيهم رسولا منهم
يتلوا عليهم آياته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ .

الذي يكذب بالدين ، فيه اسم الموصول مبهم بيانه ما بعده ، وهو الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين .

وقد بين تعالى في آية أخرى ، أن الإيمان بيوم الدين يحصل صاحبه على إطعام اليتيم والمسكين ، في قوله تعالى : (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) .

ثم قال مبيناً الدافع على إطعامهم إياهم : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطْرِيرًا) .

وهذا سؤال : وهو لم خص المكذبين بيوم الدين عن يرتكب هذين الأمرين دع اليتيم ، وهو دفعه وزجره ، وعدم الحض على إطعام المسكين ، وبالتالي هدم إطعامه هو من عنده ؟

والجواب : أنهما نموذجان ، ومثالان فقط .

والأول منهما : مثال للفعل القبيح .

والثاني : مثال للترك المذموم .

ولأنهما عملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان ، قبل كل شيء .

وفي الآية الأخرى توجيه للجواب ، وهو أن المؤمن يخاف من الله يوماً عبوساً ، وعبر بالعبوس في حق يوم القيامة ، لثلا يعبس هو في وجه اليتيم والمسكين لضعفهما .

ومن جانب آخر فإن كان التكذيب بيوم الدين ، يحمل على كل الموبقات ، إلا أنها قد تجدد ما يمنع منها ، كالقتل والزنى والخمر لتعلق حق الآخرين ، وكذلك السرقة والنهب .

أما إيذاء اليتيم وضياع المسكين ، فليس هناك من يدفع عنه ، ولا يمنع إيذاء هؤلاء عنهما ، وليس ليهما الجزاء الذي ينتظره أولئك منهم على الإحسان إليهم

وجبلت النفوس على ألا تبدل إلا بموض ، ولا تكف إلا عن خوف ، فالخوف مأمون من جانبي اليتيم والمسكين ، والجزاء غير مأمول منهما ، فلم يبق دافع للإحسان إليهما ، ولا رادع عن الإساءة.

لهما إلا الإيمان بيوم الدين والجزاء ، فيحاسب الإنسان على مثقال الذرة من الخير .

وقيل : إن دع اليتيم : هو طرده عن حقه ، وعدم الخض على طعام المسكين : عدم إخراج الزكاة .

ولكن في الآية ما يمنع ذلك ، لأن الزكاة إنما يطالب بها المؤمن والسياق فيمكن يكذب بيوم الدين فلا زكاة .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .

اختلف في المصلين الذين توجه إليهم الوعيد بالويل هنا .

والجمهور : على أنهم الذين يسهون عن أدائها ، ويتساهلون في أمر المحافظة عليها .

وقيل : عن الخشوع فيها وتدبر معانيها .

ولكن الصحيح أنه الأول .

وقد جاء عن عطاء وعن ابن عباس أنهما قالا : الحمد لله الذي قال عن صلاتهم ، ولم يقل في صلاتهم ، كما أن السهو في الصلاة لم يسلم منه أحد ، حتى أنه وقع من النبي صلى الله عليه وسلم لما سلم من ركعتين في الظهر كما هو معلوم من حديث ذى الديدن ، وقال : « إني (٣٥ - أضواء البيان ج ٩)

لا أنسى ، ولكنى أنسى لأسن » فكيف ينسيه الله ليسن للناس أحكام السهو ، ويقع الناس في السهو بدون عمد منهم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكروها عليه » .

• وقد عقد الفقهاء باب سجود السهو تصحيحاً لذلك .

لذلك بقي من المراد بالذين هم عن صلاتهم ساهون .

قيل : نزلت في أشخاص بأعيانهم .

وقيل : في كل من أخر الصلاة عن أول وقتها ، أو عن وقتها كله ، إلى غير ذلك ، أو عن أدائها في المساجد وفي الجماعة .

وقيل : في المنافقين .

وفي السورة تفسير صريح لهؤلاء ، وهو قوله تعالى : (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

والمرأى في صلاته قد يكون منافقاً ، وقد يكون غير منافق .

فالرياء أعم من جهة ، والنفاق أعم من جهة أخرى ، أي قد يرأى في عمل ما ، ويكون مؤمناً بالبعث والجزاء وبشكل أركان الإيمان ، ولا يرأى في عمل آخر ، بل يكون مخلصاً فيه كل الإخلاص .

والمنافق دائماً ظاهره مغالف لباطنه فى كل شىء ، لافى الصلاة فقط .

ولكن جاء النص : بأن المراءاة فى الصلاة ، من أعمال المنافقين .

وجاء النص أيضاً . بأن منع الماعون من طبيعة الإنسان إلا المصلين ، كما فى قوله تعالى : (إن الإنسان خاق هلوفا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان السهو عنها وإضاعتهاف عند قوله تعالى : (نخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غياً ، إلا من تاب) الآية .

وبين فى آخر المبعث تحت عنوان : مسألة فى حكم تاركى الصلاة ججداً أو كسلاً . وزاده بياناً ، عند قوله تعالى : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فى دفع إلهام الاضطراب للجمع بين هذه الآية وآية (ما سلككم فى سقر) .

وذكر قول الشاعر :

• دع المساجد للعباد تسكنها •

على ما سنذكره بعد ، ثم نبه قائلًا : إذا كان الوعيد عن
يسهو عنها فكيف عن يتركها ؟ ١٩ هـ .

وقد تساءل بعض المفسرين عن موجب اقتران هذه الآية بالقى
قبلها .

وأجابوا : بأن الكل من دوافع عدم الإيمان بالبعث ، ومن
موجبات التكذيب بيوم الدين ، فهي مع ما قبلها فى قوة ، فذلك الذى
يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وعن صلاتهم ساهون ،
فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون .

فجمعهم مع الأول ، ونص على وعيده الشديد ، وبين وصفًا ولهم ،
وهو أنهم يمتنعون الماعون .

تنبيه

فى هذه السورة ، وفى آية (والذين هم على صلاتهم يحافظون)
التي هى من صفات المؤمنين معادلة كبيرة .

إحداها : فى المنافقين تاركى الصلاة أو مضيعيها .

ولأخرى فى المؤمنين المحافظين عليها ، أى أن الصلاة هى المقياس
والحد الفاصل .

وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : « المهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ،
فمن ترك الصلاة فقد كفر » .

أما أثر الصلاة في الاسلام ، وعلى الفرد والجماعة ، فهي أعظم من
أن تذكر .

وقد وجدنا بعض آثارها وهو المראה في العمل ، أي ازدواج
الشخصية والانعزال في منع الماعون ، أي لا يمد يد الماعون ولو باليسير
لمجتمعه الذي يعيش فيه ، وقد جاءت نصوص صريحة في أهمية الصلاة
عاجله وآجله .

ففي العاجل قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء
والمنكر) ، ومن الفحشاء : دع اليتيم وعدم إطعام المسكين ، في
الدرجة الأولى .

ومنها : كل رذيلة منكورة ، فهي إذن سباج للإنسان يصونه عن
كل رذيلة ، وهي عون على كل شديدة ، كما قال تعالى : (واستعينوا
بالصبر والصلاة) فجعلها قرينة الصبر في التغلب على الصعاب ، وهي
في الآخرة نور ، كما قال تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات
يسمى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) الآية . مع قوله صلى الله
عليه وسلم : « إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً محجلين من أثر
الوضوء » .

وقوله (يئتمون الماعون) قيل : في الماعون الزكاة لقلتها ،

والماعون : القليل ، والماعون : المال في لغة قريش .

وقيل : هو ما يعين على أى عمل ، ومنه الدلو والفأس والإبرة
والقدر . ونحو ذلك .

وإذا كان السهو عن الصلاة يحمل على منع الماعون ، فإن من
يمنع الماعون وهو الآلة أو الإثناء يقضى به الحاجة ثم يرد ، كما هو
بدون نقصان ، فلأن يمنع الصدقة أو الزكاة من باب أولى .

ومن هنا : لم يكن المنافق ليزكى ماله ولا يتصدق على محتاج ،
بل ولا يقرض آخر قرضاً حسناً . ولذا نجد تفشى الربا في المنافقين
أشد وأكثر .

وهنا يأتى مبحثان :

الأول منهما : حكم الرياء وما حده ؟

والثانى : حكم العارية .

أما الرياء : فقيل هو مشتق من الرؤية ، والمراد به إظهار
العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد عليها ، وقد جاء في الحديث
تسميته الشرك الخفى : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفى ،

قالوا : وما الشرك الخفى يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، فإنه أخفى في نفوسكم من ديب نل .

وجاء قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وبيان الشرك فيه أنه يعمل العمل مما هو أصلاً لله ، كالصلاة أو الصدقة أو الحج ، ولكنه يظهره لتقصد أن يحمده الناس عليه .

فكان هذا الجزء منه مشاركة مع الله ، حيث أصبح من عمله جزء لطلب الثناء من الناس عليه .

وقد جاء حديث أبي هريرة عند مسلم : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك معي غيره تركته وشركه » .

أما حكم الرياء في العمل ، ففي هذا النص دلالة على رد العمل على صاحبه ، وتركه له .

فقيل : إنه يكون لا له فيه ، ولا عليه منه .

.. ل : لا يخلو من ذم ، كما حذر الله تعالى منه بقوله :

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس) .

وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى راء الله به ، ومن سمع سمع الله به » رواه مسلم .

والتسميع : هو العمل ليسمع الناس به كما في حديث الولية « في اليوم الأول والثاني والثالث سمعة . ومن سمع سمع به » .

فالرياء مرجعه إلى الريّة ، والتسميع مرجعه إلى السماع .

ومعلوم أنها نزلت في قريش يوم بدر ، وقد أحبط الله عملهم ، وردهم على أعقابهم .

وفي حديث أبي هريرة . وقيل : إنه محبط للأعمال لمسمى الشرك لمقوله تعالى : (إن الله لا يقفر أن يشرك به) .

وأجيب : بأنه محبط العمل الذي هو فيه فقط ، فإن رأى في الصلاة أحبطها ولا يتعدى إلى الصوم ، وإن رأى في صلاة نافلة لا يتعدى إحباطها إلى صلاة فريضة ، وهكذا ، قد يبدأ عملاً خالصاً لله ، ثم بطراً عليه شبح الرياء ، فهل يسلم له عمله أو يحبطه ما طراً عليه من الرياء ؟

فقالوا : إن كان خاطراً ودفعه عنه فلا يضره ، وإن استرسل معه . فقد رجح أحمد وابن جرير ، عدم بطلان العمل نظراً لسلامة القصد ابتداء .

ودليلهم في ذلك : ما روى أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن بني سلمة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله تعالى قال : « كلهم إذا كان أصل أمره ، أن تكون كلمة الله هي العليا »

وذكر عن ابن جرير : أن هذا في العمل الذي يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام .

أما ما كان مثل القراءة والعلم ، فإنه يلزمه تجديد النية الخالصة لله ، أي لأن كل جزء من القراءة ، وكل جزء من طلب العلم مستقل بنفسه ، فلا يرتبط بما قبله .

وهناك مسألة : وهي أن العبد يعمل العمل لله خالصاً ، ثم يطلع عليه بعض الناس ، فيحسنون الثناء عليه فيعجبه ذلك . فلا خلاف أنه ليس من الرياء في شيء . لما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يعمل من الخير يحمده الناس

عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم « عاجل بشرى المسلم » رواه مسلم .

وقد ذكر بعض العلماء : أن من كان يعمل عملاً خفياً ، ثم حضر بعض الناس فتركه من أجلهم خشية الرياء ، أنه يدخل في الرياء ، لأنه يضعف في نفسه أن يخلص النية لله ، وفي هذا بُعد ومشقة .

أما منع الماهون وإعطاؤه ، وهو العارية كما تقدم .

فإن مبحث العارية في ناحيتين : ما هي العارية ، والثاني : حكمها أوجب أم مباح ، وحكم مانها مضمونة أم لا ؟

أما تعريفها عند الفقهاء : هي إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال ، مع بقاء عينه .

وقولهم مع بقاء عينه : كالقدر والفأس والإبرة والمنخل ، ونحو ذلك ، بخلاف ما يكون إتلافه في استعماله ، كالشمع للاضاءة ، والزيت للدهن ، والكحل للاكتحال ، ونحو ذلك ، مما تنفذ عينه باستعماله ، فلا يكون عارية ، ولكن يكون قرضاً ، وفقرض يكون معاوضته بمثله .

أما حكم العارية . فقيل : جائز .

وقيل : بل واجب .

وقيل : مستحب .

وحكى ابن قدامة الإجماع على استحبابها ، ودليل من قال بالوجوب
بنص الآية : (ويمنعون الماعون) والحديث أبى هريرة رضى الله عنه في
حق الإبل لما ذكر الزكاة « وأن حقها إعارة دلوها ، وإطراق فحلها ،
ومنحه لبنها ، يوم ورودها » .

والواقع أن هذا الحديث ذكر فيه مائيس بعارية قطعاً ، مثل طرق
الفحل ومنح اللبن ، مما يضيف الاستدلال به .

وقد ساق المجد في المنقى برواية أحمد ولهم .

أما الوعيد في الآية فقالوا : هو منصب على الصفات الثلاث :
السهو عن الصلاة ، والرياء في العمل ، ومنع الماعون جميعاً ، ومن
اتصف بواحد . فله قدره من الوعيد بحسبه .

وأقل ما يقال فيها ما جاء في قوله تعالى : (وتعاونوا على البر
والتقوى) والحديث الصحيح في حق الزكاة « لما ذكر صلى الله عليه وسلم
الذهب والفضة والإبل والبقر والخليل ، وقال : « ولا ينسى حق الله
في ظهرها » .

ثم سئل عن الحر ، فقال : « لم أجد إلا الآية الشاذة الفاذة :
(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) » .

وإعارة المتاع لإباحة المنفعة وهي خير كثير .

والحديث الآخر : « لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس »
ونقل الشوكاني عن الكشف قولاً : أنها تكون واجبة عند
الاضطرار ، وقبيح في غير الضرورة مروءة . اهـ .

والضرورة : مثل الدلو إذا وردت الماء ولا دلو معك ، وفي اضطرار
إلى الماء .

وقياس الفقهاء : أنه لو تلف شيء بسبب ذلك لضمن المانع .

كما قالوا في الامتناع في بعض الصور : هل هو فعل أم ترك ؟
مثل من كان عنده خيط ، واحتيج إليه في خياطة جرح إنسان ،
أو قطنة فمات ، فهل يعد ترك إعطاء الخيط مجرد ترك لا يؤاخذ عليه ،
أو يعتبر فعلاً لأنه تسبب عنه موت إنسان . ومثله منع الدلو ليروى
أو يستقى إبله أو يشرب هو ؟

والصحيح عندهم : أن الترك في مثل هذه الحالة يؤاخذ عليه مؤاخذه
الفعل ، كما قال صاحب مراقى السمود .

* والترك فعل في صحيح المذهب *

وهنا ما يشهد له الاستعمال العرب الصحيح ، كما قيل في بناء المسجد :

لمن قعدنا والنبي يعمل لذلك منا العمل المضلل

فسمى القمود عن العمل عملا مضللا ، فتحصل من هذا أن العارية مستحبة شرعا ومروءة وعرفا في حالة الاختيار ، وواجبة في حالة الاضطرار ، مع ملاحظة أن حالات الاستعارة أغلبها اضطرار ، إلا أن حالات الاضطرار تتفاوت ظروفها .

وقد امتدح الله الأنصار بأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فالعارية من باب أولى ، لأنه ينتفع بها وترد لصاحبها .

وقد امتدح الشاعر القوم بعدم منعمهم الماعون ، بقوله :

قوم على الإسلام ولما ينعموا ماعوسهم ويضيع التهليلة

وإن كان بعض الناس حمل الماعون هنا على الزكاة ، ولكن قول الشاعر : قوم على الإسلام ، يتضمن إخراجهم الزكاة ضمن إسلامهم ، فيكون الباقي امتداد حالهم في خصوص الماعون .

بني مبحث ضمانها : تختلف الأقوال في ضمان العارية ، فبعضهم يعتبرها أمانة ، وعليه فلا تكون مضمونة وهذا مذهب الحنفية والمالكية ، إذا لم يحصل منه تعدد .

وعند الشافعي وأحمد : أنها مضمونة ، إلا إذا كانت على الوجه المأذون فيه .

كما قالوا في السيف : يستعيره فينكسر في القتال فلا ضمان فيه .
 واستدل من قال بضمانيها بالحديث العام « على اليد ما أخذت ،
 حتى تؤديه » رواه المجد في المقتضى ، وقال : رواه الخمسة إلا النسائي .
 ويحدث صفوان بن أمية ، أن النبي صلى الله عليه وسلم استعار
 منه يوم حنين أذرعاً قيل ثلاثين ، وقيل ثمانين ، وقيل مائة . فقال :
 أغصباً يا محمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة » ، فقال : فضاع بمضها ،
 فعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يضمها له ، فقال : أنا اليوم في
 الإسلام أرغب » رواه أحمد وأبو داود .

ونص الفقهاء : أن ضمانها بقيمتها يوم تلفت أو بمثلها ، إن كانت
 مثلية ، ويستدل له بما جاء في قصة حفصة لما ضربتها عائشة فسقطت
 على الأرض فانكسرت ، وانتثر الطعام . فأخذ صلى الله عليه وسلم قصة
 عائشة وردها إلى حفصة ، وقال : « قصة بقصة ، وطعام بطعام » أي
 أن الضمان إما بالمثل إن كان مثلياً ، أو بالقيمة إن كان مقوماً .

وإذا كانت العارية مضمونة وحكمها الجواز ، فالمستعير طلب
 ردها متى شاء ، إلا إذا تعلقت بها مصلحة المستعير ، ولا يمكن
 ردها إلا بمضرة عليه .

قالوا : كن أعار سفينة وتوسط بها المستعير عرض البحر ،

فلا يملك المغير ردها لتعذر ذلك وسط البحر .

وقيل : له طلبها ، وتكون بالأجرة على المستعير ، والأول أرجح .

وكالذي أعار أرضا للزراع ، وقبل أن يستحصد الزرع يطلبها صاحبها ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

حكم من جحد العارية

إن حديث المرأة الخزومية مشهور ، وهو أنها كانت تستعير المتاع وتجحده ، فاشتهرت بذلك ، ثم أنها سرقت فقطعت في السرقة ، لا في جحد المتاع المستعار ، وهذا هو الأصح . لأن السرقة لا تكون إلا على وجه التخفي ومن حرز .

والاستعارة خلاف ذلك ، وإنما تدخل في قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » وحديث « أد الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك » رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن .

وهذا مجمل مباحث العارية ، وتفصيل فروعها في كتب الفقه

أوجزنا منه ما يتعلق بمنع الماعون وعدم جواز مسه ، وما يتعلق ببذله ،
وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

في هذه السورة بيان منهج علمي يلزم كل باحث ، وهو جمع
أطراف النصوص وهدم الاختصار على جزء منه ، وذلك في قوله تعالى :
(فويل للمصلين) وهي آية مستقلة ، ولو أخذت وحدها لكانت وعيداً
للمصلين .

كما قال الشاعر الماكن في قوله :

دع المساجد للمباد تسكنها وسر إلى خانة الخمار يسقينا
ما قال ربك ويل للألى سكروا وإنما قال ويل للمصلينا

ولذا لا بد من ضمنية ما بعدها للتفسير والبيان ، الذين هم عن صلاتهم
ساهون ، ثم فسر هذا للتفسير أيضاً بقوله : (الذين هم يراون ويمنعون
الماعون) .

ومثل هذه الآية من الحديث ، ما جاء عند ابن ماجه مانعه بسنده
عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن
مسيرة المسجد تمطلت : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من عمر مسيرة
المسجد كقرب له كفلان من الأجر » .

هذا الحديث وإن كان في الزوائد ، قال عنه : في إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف ، إلا أنه نص فيما تمثل له لأن من اقتصر على جوابه صلى الله عليه وسلم اعتبر مسيرة المسجد أفضل ، ومن جمع طرفي الحديث عرف المقصود منه .

ويفرع على هذا ما أخذه مالك رحمه الله في باب الشهادة : أن الشخص لا يحق له أن يشهد على مجرد قول سمعه ، إلا إذا استشهدوه عليه ، وقالوا : أشهد عليه ، أو إلا إذا سمع الحديث من أوله مخافة أن يكون في أوله ما هو مرتبط بآخره ، كما لو قال المتكلم للآخر : لي عندك فرس ، ولك عندي مائة درهم ، فيسمع قوله : لك عندي مائة درهم ، ولم يسمع ما قبلها ، فإذا شهد على ما سمع كان إضراره بالمشهود عليه ، وهذه السورة تدل لهذا المأخذ ، والله تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو له تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .

الكوثر فوعل من الكثرة ، وأعطيناك قرىء : أنطيناك ، يبدال
لعين نونا ، وليست النون مبدلة عن العين ، كمابدال الألف من الواو
أو العين في الأجوف ونحوه ، ولكن كلا منهما أصل بذاته ، وقراءة
مستقلة . قاله أبو حيان .

واختلف في الكوثر .

فقليل : علم .

وقيل : وصف .

وعلى العلمية قالوا : إنه علم على نهر في الجنة ، وعلى الوصف
قالوا : الخير الكثير .

وعما استدل به على العلمية ، ما جاء في السنة من الأحاديث الصحاح .
فذكرها ابن كثير وغيره .

وفي صحيح البخاري عن أنس قال : لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال « أتيت نهر حافتاه قباب الأولاد مجوف . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » .

وبسنده أيضاً عن عائشة رضي الله عنها « سئلت عن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم ، شاطئاه عليهما در مجوف ، آتيقه كعدد للنجوم » .

وبسنده أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله لإياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير ، الذي أعطاه الله لإياه .

وذكر ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها عن أحمد رحمه الله : ومنها بسند أحمد إلى أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة ، فرفع رأسه متبسماً إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه نزلت عليّ آنفاء سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، حتى ختمها »

فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :
نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي
يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب يخرج العبد منهم ، فأقول : يارب
إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .

وذكر ابن كثير ما جاء في صفة الحوض ، وهذه النصوص على
أن الكوثر نهر في الجنة ، أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث الأخير عن الإمام أحمد قوله : « عليه خير كثير »
يشعر بأن معنى الوصفية موجود .

ولذا قال بعض المفسرين : إنه الخير الكثير .

ومن قال ذلك ابن عباس ، كما تقدم في حديث البخاري عنه

واستدلوا على المعنى ، بقول الشاعر الكمي :
وأنت كثير يا بن مروان طيب وكان أبوك ابن الفصائل

والذي تظمن إليه النفس أن الكوثر ، هو الخير الكثير ، وأن
الحوض أو النهر من جملة ذلك .

وقد أتت آيات تدل على إعطاء الله لرسوله الخير الكثير ، كما جاء

في قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبماً من المثاني والقرآن العظيم)
الآية .

وفي القريب سورة الضحى وفيها : (ولسوف يعطيك ربك فترضى)
أعقبها بنعم جليلة من شرح الصدور ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، واليسر
بعد العسر .

وبعدها في سورة التين جعل بلمه الأمين ، وأعطى المؤمنين الذين
يعملون الصالحات أجراً غير ممنون .

وبعدها سورة اقرأ . امتن عليه بالقرآن ، وعلمه ما لم
يكن يعلم .

وبعدها سورة القدر : أعطاه ليلة خيراً من ألف شهر .

وبعدها سورة البينة : جعل أمة خير البرية ، ومنحهم رضاهم
هم ، وأرضاهم عنه .

وبعدها سورة الزلزلة : حفظ لهم أعمالهم ، فلم يضيع عليهم مثقال
الذرة من الخير .

وفي سورة العاديات : أكبر عمل الجهاد ، فأقسم بالعاديات في سبيل
الله ، والنصر على الأعداء .

وفي سورة التكاثر : تربيتهم على نعمه ليشكروها ، فيزيدهم من فضله .

وفي سورة العصر : جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، تؤمن بالله وتعمل الصالحات ، وتتواصى بالحق وتدعو إليه ، وتتواصى بالصبر ، وتصبر عليه .

وبعدها في سورة قريش : أكرم الله قومه ، فأمنهم وأعطاهم رحلتهم .

وفي السورة التي قبلها مباشرة ، وهي سورة الماعون : يمكن عمل مقارنة تامة أولا

وفي الجملة ، لئن كان المنافقون يمنعون الماعون ، فقد أعطيناك الخير الكثير ، ثانياً .

وعلى التفصيل ففي الأولى : وصف المنافقين والمكذبين بدع اليتيم ، وفي الضحى قد بين له حق اليتيم (فأما اليتيم فلا تقهر) فكان هو خير موكل ، وخير كافل ، ووصفهم هنا بأنهم لا يحضون على طعام المسكين .

وقد أوضح له في الضحى ، (وأما السائل فلا تنهر) فكان يؤثر السائل على نفسه ، وهو لاء ساهون عن صلاتهم يراءون بأعمالهم .

وفي هذه السورة (فصل لربك) أداء الصلاة وخالصة لربه ، وإطعام المسكين بنحر الهدى والضحية والصدقة ، وكل ذلك خير كثير ، يضاف إليه ما جاءت به السنة ، كما في حديث : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وحلت لي المناثم ، ولم تكن تحمل لأحد قبلي . وكان النبي ييمث لقومه خاصة ، فيمث للناس كافة ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيا رجل أدركته الصلاة فليصل » .

وقوله : « رفع لي عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وفي قوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا نحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : قد فعلت » قد فعلت » .

وقوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك

ربك مقاماً محموداً) ، وهو المقام الذى يغبطه عليه الأولون والآخرون .

إلى غير ذلك من النصوص ، بما يؤكد قول ابن عباس ، عند البخارى : إن الكوثر : الخير الكثير .

وأن النهر فى الجنة من هذا الكوثر الذى أعطيه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ .

فى هذا مع ما قبله ربط بين النعم وشكرها ، وبين العبادات وموجبها ، فكما أعطاه الكوثر فليصل لربه سبحانه ولينحمله ، كما تقدم فى سورة لإيلاف قريش ، فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

وهناك (إنا أعطيناك الكوثر) وهو أكثر من رحلتهم وأمنهم ، (فصل لربك) مقابل (فليعبدوا رب هذا البيت) .

وقيل : إنه لما كان فى السورة قبلها بيان حال المنافقين فى السهو عن الصلاة والرياء فى العمل ، جاء هنا بالقدوة الحسنة (فصل لربك) مخلصاً له فى عبادتك ، كما تقدم فى السورة قبلها (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وقوله تعالى فى تعليم الأمة ، فى خطاب شخصه صلى الله عليه وسلم

(لئن أشركت ليحبطن عملك) مع عصمته صلى الله عليه وسلم من أقل من ذلك ، والصلاة عامة والفريضة أحصاها .

وقيل : صلاة العيد ، والنحر : قيل فيه أقوال عديدة :

أولها : في نحر الهدى أو نحر الضحية : وهي مرتبطة بقول من حمل الصلاة على صلاة العيد ، وأن النحر بعد الصلاة كما في حديث البراء بن عازب « لما ضحى قبل أن يصلى ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الضحية بعد الصلاة ، فقال : إني علمت اليوم يوم لحم فمجلت بضحيتي ، فقال له : شاتك شاة لحم ؟ فقال : إن عندنا لعناقا أحب إلينا من شاة ، أفتجزىء عني ؟ قال : اذبحها ، ولن تجزىء عن أحد غيرك » .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه مبحث الضحية وأما عند قوله تعالى : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) وقد ذكروا في معاني : وانحر : أى ضع يدك اليمنى على اليسرى على نحرك في الصلاة ، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه .

وأقوال أخرى ليس عليها نص .

والنحر : هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة ،

بالصدر .

وأصح الأقوال في الصلاة .

وفي النحر هو ما تقدم من عموم الصلاة وعموم النحر أو الذبح لما جاء في قوله تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) .

واتفق الفقهاء أن النحر للإبل ، والذبح للغنم ، والبقر متردد فيه بين النحر والذبح ، وأجمعوا على ذلك هو الأفضل ، ولو عمم النحر في الجميع ، أو عمم الذبح في الجميع لكان جائزاً ، ولكنه خلاف السنة .

وقالوا : إن الحكمة في تخصيص الإبل بالنحر ، هو طول العنق ، إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيداً فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر ، بخلاف النحر في المنحر ، فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله ، أما الغنم فالذبح مناسب لها ، والعالم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ إِنْ شَاءَ نَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

قال البخاري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : شاتوك : عدوك اهـ

والأبتر : هو الأقطع الذي لا عقب له .

وأنشد أبو حيان ، قول الشاعر :

لثبم بدت في أنه خنزوانة على قطع ذي القرن أجذ أباتر

وقال : شاتك : مبفضك .

وفي هذه الآية يخبر سبحانه تعالى : أن مبفض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقطع .

ف قيل : نزلت في العاصي بن وائل .

قال لقريش : دعوه ، فإنه أبترا لا عقب له ، إذا مات استرحم ،
فأنزلها الله تعالى ردأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جاء بمصداقها بالفعل في قوله تعالى : في غزوة بدر في قوله
تعالى (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) .

فقتل عتاديد قریش ، وصدق الوعيد فيهم

ومثله عموم قوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا . والحمد لله

رب العالمين) .

وجاء : (تبت يدا أبي لهب وتب) .

فهي في معناها أيضاً .

وبقي ذكر رسول صلى الله عليه وسلم في عقبه من آل بيته ،
 حوفي أمته كلها .

كما تقدم في قوله تعالى : (ورفضنا لك ذكرك) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .

نداء للمشركين بمكة ، لما عرضوا عليه صلى الله عليه وسلم أن يترك دعوته ويمأكوه عليهم أو يعطوه من المال ما يرضيه ونحوه فرفض ، فقالوا : تقبل منا ما نعرضه عليك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فسكت عنهم فنزلت ، وقالوا له : إن يكن الخير معنا أصبته ، وإن يكن معك أصبناه .

وفي مجيء : قل ، مع أن مقول القول كان قد يكفي في البلاغ ، ولكن مجيئها لغاية فما هي ؟

قال الفخر الرازي : إما لأنهم عابوه صلى الله عليه وسلم في السورة التي قبلها بقولهم : (إنه أبتر) فجاء قوله : (قل) إشعاراً بأن الله يرد عن رسوله بهذا الخطاب ، الذي ينادى عليهم في ناديمهم بأثقل الأوصاف عليهم ، فقال له : (قل يا أيها الكافرون) .

أو أنه لما كان هذا الخطاب فيه مغايرة المؤلف من مخاطبه مصهم من أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، وكان فيه من التقريع لهم ومجابهتهم ، قل له : قل : إشعاراً بأنه مبلغ عن الله ما أمر به ،

وجاءت يا ، وهى لنداء البعيد ، لبعدهم فى الكفر والعناد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾

قيل : تكرار فى العبارات للتوكيد ، كتكرار (ويل يومئذ للمكذبين) وتكرار : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ونظيره فى الشعر أكثر من أن يحصر ، من ذلك ما أورده القرطبي رحمه الله :

هل لا سألت جموع كنفدة يوم ولو أين أيننا
وقول الآخر :

يا علقمة يا علقمة يا علقمة خير تميم كلها وأكرمهم
وقول الآخر :

يا أقرع بن حابس يا أقرع إياك إن يصرع أخوك تصرع
وقول الآخر :

ألا يا سلمى ثم سلمى ثم سلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقد جاءت فى أبيات لبعض تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى ، ضمن مساجلة له معه قال فيها :

تالله إنك قد ملأت مسامعي درأ عليه قد انطوت أحشائي
زدني وزدني ثم زدني ولتكن منك الزيادة شافياً للداء

فكرر قوله : زدني ثلاث مرات .

وقيل : ليس فيه تكرار ، على أن الجملة الأولى عن الماضي والثانية
عن المستقبل .

وقيل : الأولى عن العبادة ، والثانية عن المعبود .

وقيل غير ذلك ، على ما سيأتي إن شاء الله .

والسورة في الجملة نص على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعبد معبودهم ،
ولا هم عابدون معبوده ، وقد فسر قوله تعالى : (فقل لي عملى ولكم
عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذا المعنى ،
عند آية يونس تلك ، وذكر هذه السورة هناك .

وقد ذكر أيضاً في دفع إيهام الاضطراب جواباً على إشكال في
السورة وهو قوله تعالى : (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون
ما أعبد) نفى لعبادة كل منهما معبود الآخر مطلقاً ، مع أننا قد آمن
بعضهم فيما بعد وعبد ما يعبد به صلى الله عليه وسلم ، وأجاب عن ذلك
بأحد أمرين : موجزها أنها في جنس الكفار ، وإن أسلموا فيما بعد

فهو خطاب لهم ماداموا كفاراً إلى آخره ، أو أنها من العام المخصوص ، فتكون في خصوص من حقت عليهم كلمات ربك . اهـ . ملخصاً .

وقد ذكر أبو حيان وجهاً عن الزمخشري : أن ما يتماق بالكفار خاص بالحاضر ، لأن ما إذا دخلت على اسم الفاعل تعيينه للحاضر . وناقشه أبو حيان ، بأن ذلك في مغالب لا على سبيل القطع

والذي يظهر من سياق السورة ، قد يشهد لما ذهب إليه الزمخشري ، وهو أن السورة تتكلم عن الجانبين على سبيل المقابلة جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهة الكفار في عدم عبادة كل منهما معبود الآخر .

ولكنها لم يساو في اللفظ بين الطرفين ، فمن جهة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في الجملة الأولى (لا أعبد ما تعبدون) عبر عن كل منهما بالفعل المضارع الدال على الحال : أى لا أعبد الآن ما تعبدون الآن بالفعل . ثم قال : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فمبر عنهم بالإسمية وعنه هو بالفعلية ، أى ولا أنتم مقصنون بعبادة ما أعبد الآن .

وفي الجملة الثانية قال : ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . فمبر عنه بأنه ليس مقصفا بعبادة ما يعبدون ولا هم عابدون ما يعبد . فكان وصفه هو صلى الله عليه وسلم في الجملة-ين بوصفين مختلفين

بالجملة الفعلية تارة وبالجملة الإسمية تارة أخرى ، فكانت إحداها لنفي الوصف الثابت ، والأخرى لنفي حدوثه فيما بعد .

أما هم فلم يوصفوا في الجملتين إلا بالجملة الإسمية الدالة على الوصف الثابت ، أى في الماضى إلى الحاضر ، ولم يكن فيما وصفوا به جملة فعلية من خصائصها التجدد والحدوث ، فلم يكن فيها ما يتعرض للمستقبل فلم يكن إشكال ، والله تعالى أعلم .

فإن قيل : إن الوصف باسم الفاعل يحتمل الحال والاستقبال ، فيبقى الإشكال محتملا .

قيل : ما ذكره الزمخشري من أن دخول ما عليه تعيينه للحال ، يكفى في نفي هذا الاحتمال ، فإن قيل : قد ناقشه أبو حيان .

وقال : إنها أغلبية وليست قطعية .

قلنا : يكفى في ذلك حكم الأغلب ، وهو ما يصدقه الواقع ، إذ آمن بعضهم وعبد معبوده صلى الله عليه وسلم ، وما في قوله (ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) واقعة في الأولى على غير ذى علم ، وهى أصنامهم وهو استعمالها الأساسى .

وفى الثانية : فى حق الله تعالى وهو استعمالها فى غير استعمالها الأساسى ، فقيل : من أجل المقابلة ، وقد استعملت فيمن يعلم ، كقوله تعالى

(فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) لَأَنَّهُنَّ فِي مَعْرُضِ الْإِسْتِمْتَاعِ بِهِنَّ ،
فَلِلْقَرِينَةِ جَازٌ ذَلِكَ .

وقيل : إنها مع ما قبلها مصدرية ، أى ما مصدرية بمعنى عبادتكم
الباطلة ، ولا تعبدون عباداتى الصحيحة .

وهذا المعنى قوى ، وإن تعارض مع ما ذكر من سبب النزول ، إلا
أن له شاهداً من نفس السورة ويتضمن المعنى الأول ، ودليله من السورة
قوله تعالى فى آخر السورة : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) فأحاطهم على عبادتهم ،
ولم يحلهم على معبودهم .

قوله تعالى : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) .

هو نظير ما تقدم فى سورة بونس (أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء
مما تعملون) .

وكقوله : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) .

وليس فى هذا تقريرهم على دينهم الذى هم عليه ، ولكن من
قبيل التهديد والوعيد كقوله :

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا
نعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم مرادقها) .

وفي هذه السورة قوله (قل يا أيها الكافرون) وصف يكفى بأن عبادتهم وديانتهم كفر .

وقد قال لهم الحق (لا أعبد ما تعبدون) لأنها عبادة باطلة ، عبادة الكفار ، وبعد ذلك إن أبيتم إلا هي ، فلكم دينكم ولي دين .

تنبيه

في هذه السورة مهج لإصلاح ، وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول ، لأن ما عرضه عليه صلى الله عليه وسلم من المشاركة في العبادة ، يعتبر في مقياس المنطق حلاً وسطاً لاحتمال إصابة الحق في أحد الجانبين ، فجاء الرد حاسماً وزاجراً وبشدة ، لأن فيه أى فيما عرضه مساواة للباطل بالحق ، وفيه تعليق المشكلة ، وفيه تقرير الباطل ، إن هو وافقهم ولو لحظة .

وقد تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين ، ونهاية المهادنة ، وبداية المجابهة .

وقد قالوا : إن ذلك بناء على ما أمره الله به في السورة قبلها (إنا أعطيناك الكون) أى وإن كنت وصحبك قلة ، فإن معك الخير الكثير ، ولجئ قل لما فيها من إشعار بأنك مبلغ عن الله ، وهو الذى ينصرك ، ولذا جاء بعدها حالاً سورة النصر وبعد النصر : تب المدو .

وهذا فى غاية الوضوح ، والله الحمد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّصْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

فيه ذكر النصر والفتح ، مع أن كلا منهما مرتبط بالآخر ،
فمع كل نصر فتح ، ومع كل فتح نصر .

فهل هما متلازمان أم لا ؟

كما جاء النصر مضافاً إلى الله تعالى ، والفتح مطلقاً .

أولا اتفقوا على نزول هذه السورة بعد فتح مكة .

ومعلوم : أنه سبق فتح مكة عدة فتوحات .

منها فتح خيبر ، ومنها صلاح الحديبية ، سماه الله تعالى فتحاً في
قوله : (فاعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

والنصر يكون في معارك القتال ويكون بالحجة والسلطان ،
ويكون بكف العدو ، كما في الأحزاب . (ورد الله الذين كفروا
بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً
عزيزاً) .

وكما في اليهود قوله : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيتهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً) .

فالنصر حق من الله ، (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

وقد علم المسلمون ذلك ، كما جاء في قوله تعالى : (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فهم يتطلعون إلى النصر .

وبآتيهم الجواب (ألا إن نصر الله قريب) .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : « نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ »

وقد قال تعالى لموسى وأخيه (لا تخافا إني معكما أسمع وأرى) فهو نصر معية وتأيد ، فالنصر هنا عام .

وكذلك الفتح في الدين بانتشار الإسلام ، وأعظم الفتح فتحان : فتح الحديبية ، وفتح مكة .

إذ الأول تمهيد للثاني ، والثاني قضاء على دولة الشرك في

الجزيرة ، ويدل لإرادة العموم في النصر والفتح .

قوله تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾

فكان الناس يأتون من كل جهة حتى من اليمن ، وهذا يدل على كمال الدعوة ونجاح الرسالة .

ويدل لهذا مجيء آية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) ، وكان نزولها في حجة تلك السنة .

ويلاحظ أن النصر هنا جاء بلفظ نصر الله ، وفي غير هذا جاء نصر الله ، وما النصر إلا من عند الله .

ومعلوم أن هذه الإضافة هنا لها دلالة تمام وكال ، كما في بيت الله . مع أن المساجد كلها بيوت الله ، فهو مشعر بالنصر كل النصر ، أو بتمام النصر كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفتح ، هنا قيل : هو فتح مكة ، وقيل فتح المدائن وغيرها .

وتقدمت الإشارة إلى فتوحات عديدة ، قبل مكة .

وهناك فتوحات موهوبة بها بعد فتح مكة نص صلى الله عليه وسلم

عليها منها في غزوة الأحزاب وهم ، يحفرون الخندق ، لما اعترضتهم كديّة وأعجزتهم ، ودعى إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذ ماء وتمضمض ودعا ما شاء الله أن يدعو ثم ضرب ، فكانت كالكتيب .

وقد جاء فيها ابن كثير بمدة روايات وطرق مختلفة ، وكما تذكر أنه صلى الله عليه وسلم ضرب ثلاث ضربات ، فأبرقت تحت كل ضربة برقة ، وكبر صلى الله عليه وسلم عند كل واحدة منها ، فسأله فقال « في الأولى : أعطيت مفاتيح فارس » وذكر اليمن والشام ، وكما روايات لا تخلو من نقاش ، ولكن لكثرتها يقوى بعضها بعضاً .

وأقواها رواية النسائي بسنده قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ المول ووضع رداءه ناحية الخندق ، وقال : تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ، فنذر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ثم ضرب الثانية ، وقرأ ما قرأه أولاً ، وبرقت أيضاً . ثم الثالثة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تكسرت ، فأخذ رداءه صلى الله عليه وسلم

وجلس ، فسأله سلمان لما رأى من البرقات الثلاث : فقال له : أرأيت ذلك ؟ قال : أى والذي بمثك بالحق يا رسول الله ، فأخبرهم أنه رفعت له فى الأولى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رآها بعينه ، فقالوا : ادعوا الله لنا أن يفتح علينا .

فدعا لهم ، وفى الثانية : رفعت له مدائن قيصر وما حولها ، وفى الثالثة مدائن الحبشة ، وكلها يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدهو لهم فتفتح عليهم ، فدعا لهم إلا فى الحبشة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعوا الحبشة ما ودعوكم . واتركوا الترك ما تركوكم » انتهى ملخصاً .

وقد رواه كل من ابن كثير والنسائى مطولاً ، فهذه الروايات وإن كانت تحتل مقالا .

فقد جاء فى الموطأ ما لا يحتل مقالا ، ولا شك فى صحته ، ولا فى دلالة ، وهو ما رواه مالك عن هشام عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبى زهير أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يفتح اليمى فىأتى قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وتفتح الشام ، فىأتى قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة (٣٨ - أضواء البيان ج ٩)

خير لهم لو كانوا يملكون ، ويفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون
بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يملكون » .

فهذا نص صحيح صريح منه صلى الله عليه وسلم في حياته بفتح اليمن
والشام والعراق ، وما فتحت كلها إلا من بعده صلى الله عليه وسلم
إلا اليمن .

وبؤيد هذا القول ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال « بينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، إذ قال : الله أكبر ، الله
أكبر ، جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ، قيل : يا رسول الله ،
وما أهل اليمن ؟ قال : قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ،
والفقه يمان ، والحكمة يمانية » رواه ابن كثير عنه .

وقد كان فتح مكة عام ثمان من الهجرة ، وجاءت الوفود في دين
الله أفواجا عام تسع منها ، وجاء وفد اليمن وأرسل صلى الله عليه وسلم
حماله إلى اليمن بعد فتح مكة ، وقدم عليه على رضى الله عنه من اليمن
في العام العاشر في موسم الحج ، ففتحت اليمن بعد فتح مكة في حياته
صلى الله عليه وسلم .

وعليه : تكون فتوحات قد وقعت بعد فتح مكة ، يمكن أن
يشملها هنا قوله تعالى : (والفتح) ، وليس مقصوداً على فتح مكة كما قالوا .

وقد يؤخذ بدلالة لإيماء : الوعد بفتوحات شاملة ، لمناطق شاسعة من قوله تعالى : (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) لأن الإتيان من كل فج عميق ، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد ، والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام ، وبالتالي يدل على مجيء المسلمين من بعيد . وهو محل الاستدلال والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

تقدم الكلام على التسبيح ومتعلقه وتصريفه .

وهنا قرن التسبيح بحمد الله ، وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها ، إذ هي في الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجيء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه . ومجيء الافتتاح العام على المسلمين لبلاد الله بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم ، وهي نعمة تستوجب الشكر ويستحق مولها الحمد .

فيكان التسبيح مقترناً بالحمد في مقابل ذلك وقوله : (بحمد ربك) ليظهر أنه سبحانه المولى للنعم ، كما جاء في سورة الضحى في قوله تعالى (ماودعك ربك وما قل) .

وقوله في سورة اقرأ : (اقرأ باسم ربك) وتكرارها (اقرأ

وربك الأكرم) لأن صفة الربوبية مشعرة بالإنما .

وقوله : (واستغفره) قال البعض : إن الاستغفار عن ذنب فما هو .
وتقدم الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند قوله
تعالى : (ووضعنا عنك وزرك) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبة دعوة الرسل ، ولو بدأنا من آدم
عليه السلام مع قصته ففيها (فيلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) ،
ومعلوم موجب تلك التوبة .

ثم نوح عليه السلام يقول : (رب اغفر لي ولن دخل بيتي
مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) الآية .

وإبراهيم عليه السلام يقول : (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك
أنت التواب الرحيم) .

وبناء عليه قال بعض العلماء : إن الاستغفار نفسه عبادة كالسبيح ،
فلا يلزم منه وجود ذنب .

وقيل : هو تعليم لأُمَّته .

وقيل : رفع لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء في السنة ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : « توبوا إلى الله ،

غابى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة ، فتكون أيضاً من باب الاستكثار من الخير ، والإجابة إلى الله .

تنبيه

جاء فى التفسير عند الجميع أنه صلى الله عليه وسلم منذ أن نزلت هذه السورة وهو لم يكن يدع قوله : « سبحانك اللهم ومحمدك » تقول عائشة رضى الله عنها : « يتأول القرآن » أى يفسره ، ويعمل به .

ونقل أبوحيان عن الزمخشري أنه قال : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل الأمر بما هو قوام أمر الدين ، من الجمع بين الطاعة والاحتراز من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصيته لطفاً لأمتة ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة فى نفسه .

وفى هذا لفت نظر لأصحاب الأذكار والأوراد الذين يحرصون على دوام ذكر الله تعالى ، حيث هذا كان من أكثر ما يداوم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى أذكار الصباح والمساء دون الملازمة على ذكر اسم من أسماء الله تعالى وحده ، منفرداً مما لم يرد به نص صحيح ولا صريح .

ولاشك أن الخير كل الخير فى الاتباع لا فى الابتداع ، وأى خير

أعظم مما اختاره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ، وبأمر
به ، ويلزم هو عليه .

وقلنا في آخر حياته : لأنه صلى الله عليه وسلم توفي بعدها بمدة
بسيطة .

وفي هذه الآية دلالة الإيمان ، كما قالوا : ودلالة الالتزام كما جاء
عن ابن عباس في قصة عمر رضى الله عنه مع كبار المهاجرين
والأنصار ، حينما كان يسمح له بالجلوس معهم ، ويرى في وجوههم ،
وسألوه وقالوا :

إن لنا أولادا في سنه ، فقال : إنه من حيث علمتم .

وفي يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر ، قال ابن عباس : فعلمت أنه
مادعاني إلا لأمر ، فسألهم عن قوله تعالى : (إذا جاء نصر الله
والفتح) السورة .

فقالوا : إنها بشرى بافتتح وبالنصر ، فقال : ما تقول أنت يا ابن
عباس ؟

قال : قلت ، لا والله ، إنها نعت إلينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو بين أظهرنا .

فقال عمر : وأنا لا أعرف فيها إلا كما قلت ، أى أنه

صلى الله عليه وسلم جاء لمهمة ، وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول
في الدين أفواجا .

وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة . فعليه أن يتأهب
للملاقاة ربه ليلقى جزاء عمله ، وهو مأخذ في غاية الدقة ، وبيان لقول
على رضي الله عنه : أو فهم أعطاه الله من شاء في كتاب الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْمَشَدِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

التب : القطع .

ومن المادة : بت بتقديم الباء ، فهي تدور على معنى القطع ، كما يفيد
فهذه اللفظة في دوران للمادة على معنى واحد .

وقال : التَّب ، والتَّبب ، والتَّبَاب ، والتَّبِيب ، والتَّبِيب :
النقص والخسار ، إلى أن قال : وتبت يداه : ضلعا وخسرتا .

وقال الفخر الرازي : التبات : الهلاك ، ونظيره قوله تعالى : (وما كيد
فرعون إلا في قباب) أى في هلاك .

وذلك لأن أباهلأهلك نفسه بفساد اعتقاده وسوء فعله ، كما جاء
في السنة قول الأعرابي : هلك وأهلك : أى بوقاعه أهله في
رمضان ، وجاء قوله تعالى : (فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون
من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبؤ) .

فقالوا : غير خسران ، والخسران يؤدي إلى الهلاك ،
والقطع .

كما جاء في معناه في قصة صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .
وله تعالى : (فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدوني غير
تخسير) فظهر من هذا كله أن معنى : تبت يدا أبي لهب ، دائر بين
معنى القطع والهلاك والخسران .

أما قطعها فلم يقدر عليه قطع يديه قبل موته .

وأما الهلاك والخسران : فقد هلك بالفدة .

وأما الخسران : فما أشد خسارته بعد هذا الحكم عليه من الله
تعالى .

وإذا كان المعنى قد تعين بنص القرآن في الهلاك والخسران ، فما
معنى إسناد القب لليدين ؟

الجواب : أن ذلك من باب إطلاق البعض وإرادة الكل كما تقدم
في قوله تعالى : (ناصية كاذبة) مع أن الكاذب هو صاحبها .

وقد قدمنا هناك أن مثل هذا الأسلوب لا بد فيه من زيادة اختصاص
الجزء المنطوق في المعنى المراد .

لما كان الكذب يسود الوجه ، وبذل الناصية ، وعكسه الصدق
يبيض الوجه ويميز الناصية ، أسند هناك الكذب إلى الناصية لزيادة
اختصاصها بالكذب عن اليد مثلاً .

ولما كان الهلاك والخسران غالباً بما تكسبه الجوارح واليد أشد
اختصاصاً في ذلك أسند إليها البت .

ومما يدل على أن المراد صاحب اليدين ، ما جاء بعدها ، قوله
تعالى : (وتب) أى أبو لهب نفسه .

وسواء كان قوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب) على سبيل الإخبار
أو الإنشاء ، فإنه محتمل من حيث اللفظ .

ولكن قوله تعالى بعده : (وتب) فهو إخبار ، فيكون الأول
للإنشاء كقوله : (قتل الإنسان ما أكفره) .

ثم جاء الثانى تصديقاً له ، وجاءت قراءة ابن مسعود (وقد تب)

قوله تعالى ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾

سواء كانت ما استفهامية فهو استفهام إنكار ، أو كانت نافية

فإنه نص ، على أن ماله لم يغن عنه شيئاً .

وقوله : (وما كسب)

فقيل : أى من المال الأول ما ورثه أو ما كسب من عمل
جره عليه هذا الملاك ، وهو عداؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذه الآية المتقدمة (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) .

وتقدم الكلام عليه هناك .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان معنى (ما أغنى عنه
ماله وما كسب) عند قوله تعالى : (من وراءهم جهنم ولا يغنى عنهم
ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) .

وساق كل النصوص في هذه المعنى بتمامها .

تنبيه

في هذه الآية سؤالان هما :

أولاً : لقد كان صلى الله عليه وسلم مع قومه في مكة ملاطفاً حلماً ،
فكيف جاء به منه بهذا الدعاء : (تبت يدا أبي لهب) ؟ والجواب :

أنه كان يلاطفهم ما دام يطمع في إسلامهم ، فلما يئس من ذلك ، كان هذا الدعاء في محله ، كما وقع من إبراهيم عليه السلام ، كان يلاطف أياه (يا أبت لا تعبد الشيطان) . (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فانبهي أهدك صراطاً سوياً) فلما يئس منه تبرأ منه كما قال تعالى : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حلیم) .

والسؤال الثاني : وهو مجيء قوله تعالى (وتب) بعد قوله (تب) يتبادر إلى ذهنك مع أنها كافية سواء كانت إنشاء للدعاء عليه أو إخباراً بوقوع ذلك منه .

والجواب ، والله تعالى أعلم : أن الأول لما كان محتملاً للخبر ، وقد يحو الله ما يشاء ويثبت ، أو إنشاء وقد لا ينفذ كقوله : (قتل الإنسان ما أكفره) ، أو يحمل على الزم فقط ، والتقبيح فجاء « وتب » لبيان أنه واقع به لا محالة ، وأنه ممن حقت عليهم كلمات ربك لييأس صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون من إسلامه ؛ وتنقطع للملاطفة معه ، والله تعالى أعلم .

وقد وقع ما أخبر الله به ، فهو من إعجاز القرآن أن وقع ما أخبر به ، كما أخبر ولم يتخلف .

(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) . وقوله : (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) .

نسأل الله العافية ، إنه سميع مجيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْخَالِصَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

الأحد :

قال القرطبي : أى الواحد الوتر ، الذى لا شبيه له ولا نظير ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا شريك . ا هـ .

ومعلوم أن كل هذه المعانى صحيحة ، فى حقه تعالى .

وأصل أحد : وحد ، قلبت الواو همزة .

ومنه قول النابغة :

كأن رحلى وقد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد

وقال الفخر الرازى فى أحد وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى واحد .

قال الخليل : يجوز أن يقال : أحد اثنان ثلاثة ، ثم ذكر أصلها

وحد ، وقلبت الواو همزة للتخفيف .

والثانى : أن الواحد والأحد لبسا اسمين مترادفين .

قال الأزهرى : لا يوصف شيء بالأحادية غير الله تعالى ، لا يقال : رجل أحد ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل واحد أى فرد به ، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء .

ثم قال : ذكروا فى الفرق بين الواحد والأحد وجوها :

أحدها : أن الواحد يدخل فى الأحد ، والأحد لا يدخل فيه .

وثانيها : أنك لو قلت : فلان لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد .

فإنك لو قلت : فلان لا يقاومه أحد ، لا يجوز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان .

وثالثها : أن الواحد ، يستعمل فى الإثبات ، والأحد يستعمل فى النفى .

تقول فى الإثبات : رأيت رجلا واحدا .

وتقول فى النفى : مارأيت أحدا ، فيفيد العموم .

أما ما نقله عن الخليل ، وقد حكاه صاحب القاموس فقال : ورجل واحد وأحد ، أى خلافا لما قاله الأزهرى .

وأما قوله : إن أحدا تستعمل فى النفى فقد جاء استعمالها فى الإثبات أيضا .

كقوله : (أو جاء أحد من الفائت) .

فتكون أغلبية في استعمالها ودلالاتها في العموم واضحة .

وقال في معجم مقاييس اللغة في باب الهمزة والحاء وما بعدها :
أحد ، إنها فرع والأصل الواو وحد .

وقد ذكر في الواو وفي مادة وحد . قال : الواو والحاء والدال
أصل واحد يدل على الانفراد ، من ذلك الوحدة بفتح الواو وهو
واحد قبلته ، إذا لم يكن فيهم مثله .

قال :

يا واحد العرب الذي ما في الأنام له نظير

وقيل : إن هذا البيت لبشار يمدح عقبة بن مسلم ، أو إلى ابن
المولى يزيد بن حاتم ، نقلًا عن الأعاني .

فيكون بهذا ثبت أن الأصل بالواو والهمزة فرع عنه .

وتقدم أن دلالاتها على العموم أوضح أي أحد .

وقد دلت الآية الكريمة ، على أن الله سبحانه وتعالى أحد ، أي في
ذاته وصفاته لا شبيه ولا شريك ، ولا نظير ولا ند له ، سبحانه وتعالى .

وقد فسره ضمنا قوله : (ولم يكن له كفوا أحد) .

وقوله : (ليس كمثله شيء) أما المعنى العام فإن القرآن كله ،
والرسالة المحمدية كلها ، بل جميع الرسالات ، إنما جاءت لتقرير
هذا المعنى ، بأن الله سبحانه واحد أحد . بل كل ما فى الوجود شاهد
على ذلك .

كما قيل:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

أما نصوص القرآن على ذلك فهي أكثر من أن تحصى ، لأنها
بمعنى لا إله إلا الله .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إشارة إلى ذلك فى
أول الصافات وفى غيرها ، وفى البقرة (وإلهكم إله واحد لا إله إلا
هو الرحمن الرحيم) .

وفى التوبة : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو)
فجاء مقروناً بلا إله إلا الله .

وفى ص - قوله : (قل إنما أنا نذير وما من إله إلا الله الواحد
القهار) .

وكما قدمنا أن الرسالة كلها جاءت لتقرير هذا المعنى ، كما فى
قوله : (هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد)

سبحانه جل جلاله وتقدس أسمائه ، وتنزهت صفاته ، فهو واحد أحد
في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله

وقد جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلاً كما قرره نقلاً ، وذلك في
قوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتفوا إلى ذي العرش
سبيلاً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) .

وقوله : (لو كان فيما آلهة إلا الله لفسدتا) .

فدل على عدم فسادها بدم تعددها ، وجمع العقل والنقل في قوله :
(ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ،
ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .

قال بعض المفسرين : يفسره ما بعده (لم يلد ولم يولد) .

وقال ابن كثير ، وهذا معنى حسن .

وقال بعض العلماء : هو المتناهي في السؤدد ، وفي الكمال من كل

شيء .

وقيل : من يصمد الخلائق إليه في حاجاتهم ، ولا يحتاج هو
إلى أحد .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، معنى الصمد في سورة الأنعام عند قوله تعالى : (وهو يطمم ولا يطمم) ، فذكر شواهد هذه الأقوال كلها .

وبإيمان النظر في مبدأ يفسره ما بعده ، يتضح أن السورة كلها تفسير لأولها (قل هو الله أحد) لأن الأحدية ، هي تفرد سبحاته بصفات الجلال والكمال كلها ، ولأن المولود ليس بأحد ، لأنه جزء من والده .

والوالد ليس بأحد ، لأن جزءاً منه في ولده .

وكذلك من يكون له كفء ، فليس بأحد لوجود الكفء ، وهكذا السورة كلها لتقرير (قل هو الله أحد) .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان شواهد عند قوله تعالى : (الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) الآية من سورة الإسراء .

تنبيه

نفى اتخاذ الولد لا يستلزم نفى الولادة ، لأن اتخاذ الولد قد يكون

بدون ولادة كالتبني أو غيره ، كما في قصة يوسف في قوله تعالى عن عزيز مصر : (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) .

ففي هذه السورة نفى أخص ، فلزم التنبيه عليه في هذه السورة الكريمة وهي سورة الإخلاص . والتي تعدل ثلث القرآن لاختصاصها بحق الله تعالى في ذاته وصفاته من الوجدانية والصمدية ، ونفى الولادة والولد ، ونفى الكفء ، وكلها صفات انفراد لله سبحانه .

وقد جاء فيها النص الصريح بعدم الولادة ، وأنه سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد ، فهي أخص من تلك ، وهذا من المسلمات عند المسلمين جميعا بدون شك ولا نزاع . ولم يؤثر فيها أى خلاف .

ولكن غير المسلمين لم يسلموا بذلك ، فاليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله .

فاتفقوا على ادعاء الولد لله ، ولم يدع أحد أنه سبحانه مولود .

وقد جاءت النصوص للصريحة في نفي الولد عن الله سبحانه وتعالى ، إلا أن مجرد النص الذي لم يؤمن به الخصم لا يكفي لإقناعه ، وفي هذه السورة وهي المختصة بصفات الله ، لم يأت التنويه فيها عن المانع من اتخاذ الله للولد ، ومن كونه سبحانه لم يولد .

ولما كان بيان المانع أو الموجب من منهج هذا الكتاب، إذا كان يوجد للحكم موجب أو مانع ولم تتقدم الإشارة إلى ذلك، فيما تقدم من كلام الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه مع أنه رحمه الله، قد تكلم على آيات الأسماء والصفات جملة وتفصيلاً، بما يكفى ويشفى.

ولكن جاء في القرآن الكريم ذكر ادعاء الولد لله، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلاً مع الإشعار بالدليل العقلي. ولذا لزم التقويه عليه، وذلك في قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل مافى السماوات والأرض كل له قانتون، بديع السماوات والأرض، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

فهذا نص صريح فيما قالوه: (اتخذ الله ولداً) .

ونص صريح في تنزيه الله سبحانه وتسميته عما قالوا .

ثم جاء حرف الإضراب عن قولهم: (بل له مافى السماوات والأرض كل له قانتون) ، ففيه بيان المانع عقلاً من اتخاذ الولد بما يلزم الخصم، وذلك أن غاية اتخاذ الولد أن يكون باراً بوالده، وأن ينتفع الوالد بولده، كما في قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أو يكون الوالد وارثاً لأبيه كما في قوله تعالى عن نبي الله تعالى زكريا عليه السلام:

(وهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب) الآية .

والله سبحانه وتعالى حيٌّ باقي يرث ولا يورث كما قال تعالى :
(كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك) الآية

وقوله : (والله ميراث السماوات والأرض) .

فإذا كان لله سبحانه وتعالى كل ما في السماوات والأرض في
قنوت وامتنال طوعاً أو كرهاً ، كما قال تعالى : (وما ينبغي للرحمن أن
يتخذ ولداً ، إن كل ما في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً)

فهو سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى الولد لفناه عنه .

ثم بين سبحانه قدرته على الإيجاد والإبداع في قوله تعالى :
(بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)

وهذا واضح في نفى الولد عنه سبحانه وتعالى .

وقد تمدح سبحانه في قوله : (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً
ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره
تكبيرا) .

أما أنه لم يولد . فلم يدع أحد عليه ذلك ، لأنه ممتنع عقلاً ،
بدليل الممانعة المعروف وهو كالاتي :

لوتوقف وجوده سبحانه على أن يولد لكان في وجوده محتاجا إلى من يوجدّه ، ثم يكون من يلدّه في حاجة إلى والد ، وهكذا يأتي الدور والتسلسل وهذا باطل .

وكذلك فإن الحاجة إلى الولد ينفيها معنى الصمدية المتقدم ذكره ، ولو كان له والد لكان للوالد أسبق وأحق ، تعالى الله عن ذلك .

وقد يقال : من جانب الممانعة العقلية لو افترض على حد قوله :
(قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) .

فنقول على هذا الافتراض : لو كان له ولد فما مبدأ وجود هذا الولد وما مصيره ؟ فإن كان حادثا فمتى حدوثه ؟ وإن كان قديما تعدد القدم ، وهذا ممنوع .

ثم إن كان باقيا تعدد البقاء ، وإن كان منتهيا فمتى انتهاءه ؟ وإذا كان مآله إلى الانتهاء فما الحاجة إلى إيجاد مع عدم الحاجة إليه ، فانتفى اتخاذ الولد عقلا ونقلا ، كما انتفت الولادة كذلك عقلا ونقلا .

وقد أورد بعض المفسرين سؤالا في هذه الآية ، وهو لماذا قدم نفي الولد على نفي الولادة ؟ مع أن الأصل في المشاهد أن يولد ثم يلد ؟

وأجاب بأنه من تقديم الأهم لأنه رد على النصارى فى قولهم :
 عيسى ابن الله ، وعلى اليهود فى قولهم : عزيز ابن الله ، وعلى قول
 المشركين : الملائكة بنات الله ، ولأنه لم يدع أحد أنه سبحانه مولود
 لأحد ، فكانت دعواهم الولد لله فرية عظيمة . اهـ .

كما قال تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون
 إلا كذباً) .

وقوله : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد
 السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا
 للرحمن ولداً) .

فلشناعة هذه الفرية قدم ذكرها ، ثم الرد على عدم إمكانها بقوله :
 (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من فى السماوات والأرض
 إلا آتى الرحمن عبداً) .

وقد قدمنا دلائل المنع عقلاً ونقلاً .

وهنا سؤال أيضاً ، وهو إذا كان ادعاء الولد قد وقع ، وجاء
 الرد عليه : فإن ادعاء الولادة لم يقع ، فلماذا ذكر نفيه مع عدم
 ادعائه ؟

والجواب والله تعالى أعلم : أن من جوز الولادة له وأن يكون له

ولد ، فقد يجوز الولادة عليه ، وأن يكون مولوداً نجاء نفيها تنجئة
لأنفى والتنزيه ، كما فى حديث البحر ، كان السؤال عن الوضوء من
مائة فقط ، نجاء الجواب عن مائه وميته ، لأن ما احتمال السؤال
فى مائه يحتمل الاشتباه فى ميته . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

قالوا : كفؤا وكفوا وكفاء ، بمعنى واحد ، وهو المثل .

وقد تعددت أقوال المفسرين فى معنى الآية ، وكلها تدور على
معنى نفى المماثلة .

فعن كعب وعطاء : لم يكن له مثل ولا عديل .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أنه بمعنى ليس كمثل شيء .

وعن مجاهد : أى لا صاحبة له .

وقد جاء نفي الكفاء والمثل والند والعدل ، فالكفاء فى هذه
السورة والمثل فى قوله : (ليس كمثل شيء) ، وقوله : (فلا تضربوا
للله الأمثال) .

والند فى قوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

والعدل فى قوله : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آية الأنعام بيان
لذلك ، أى يساوونه بمعيره من المدل بكسر أوله ، وهو أحد شقى
حل البعير على أحد التفسيرين ، والآخ من المدول عنه إلى غيره .

وفى هذه السورة مبحثان بوردتها المفسرون . أحدهما : أسباب
نزولها ، والآخ : ما جاء فى فضلها ، ولم يكن من موضوع هذا
الكتاب تتبع ذلك ، إلا ما كان له دوافع تتعلق بالمعنى

أما ما جاء فى فضلها ، فقد قل أبو حيان فى تفسيره : لقد
أكثر المفسرون إيراد الآثار فى ذلك ، وليس هذا محلها ، وهو كما
قال ، فقد أوردها ابن كثير والفخر الرازى والقرطبى وابن حجر فى
الإصابة فى ترجمة معاذ بن جبل وغيرهم ، وليس هذا محل إيرادها ،
الاهم إلا ما جاء فى الصحيح : أن تلاوتها تعدل ثلث القرآن . لتعلق
موضوعها بالتوحيد

أما المبحث الآخر وهو سبب نزولها ، فقليل فيه : إن المشركين
طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه ، فنزلت .

وقوله فيها (لم يلد ولم يولد) رد على إثبات النسب له سبحانه
وتعالى .

وقد جاء مثل هذا المعنى حينما سأل فرعون موسى عن ربه ، فقال
له : (وما رب العالمين ؟) .

فجاء جوابه (قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) قال لمن حوله : ألا تستمعون ، قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون .

وكنيت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أن موجب قول فرعون عن موسى لمجنون ، لأنه سأله بما في قوله : (قال فرعون وما رب العالمين) ؟ وما يسأل بها عن شرح الماهية فكان مقتضى السؤال بها أن يبين ماهية الرب سبحانه وتعالى ، من أى شيء هو ، كما يقال في جواب : ما الإنسان إنه حيوان ناطق .

ولكن موسى عليه السلام أعرض عن سؤال فرعون لجهله عن حقيقة الله تعالى أو لتجاهله ، كما في قوله تعالى : (وجعلوا بها واستيقنتها أنفسهم) وأجابه عما يخصه ويلزمه الاعتراف به من أنه سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما ، لا ربوبية فرعون الكاذبة .

ومثل ذلك في القرآن ، لما سألوا عن الأهلة ، ما بالها تبدو صغيرة ، ثم تكبر ؟ فهو سؤال عن حقيقة تغيرها ، فترك القرآن جوابهم على سؤالهم وأجابهم بما يلزمهم وينفعهم .

وكذلك جواب الخليل عليه السلام للمرود حينما حاجّه في ربه
(إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت) .

فذكره سبحانه بصفاته ، وفي هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله
ونسبه جاء الجواب بصفاته ، لأن ما بسألون عنه إنما يكون في المخلوقات
لا في الخالق سبحانه ، وفي الممكن لا في الواجب الوجود لذاته ،
سبحان ما لا يدرك كنهه غيره ، وصدق الله العظيم في قوله : (ليس
كمثله شيء وهو السميع البصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يحيطون به علماً) .

المعوذتان

سورة الفلق وسورة الناس

يذكر المفسرون عن ابن مسعود، أنه كان يراها معوذتين من غير القرآن، ولكن أبي بن كعب قال: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: (قل أعوذ برب الفلق) فقلتها وقال: (قل أعوذ برب الناس) فقلتها، فنحن نقول ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره ابن كثير عن الإمام أحمد.

وذكر نحوه عن البخاري ثم قال: ثم قد رجع عن قوله إلى قول الجماعة، فإن الصحابة رضي الله عنهم أثبتوها في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق.

وروى عن الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في الصلاة وساق عدة طرق في إثبات أنهما قرآن، مما ينفي أي خلاف بعد ذلك في إثباتهما.

وقد اعتذر القرطبي عن ابن مسعود، بأنه لم يسمعهما من النبي

صلى الله عليه وسلم ، على أنهما قرآن وسمعهما فظنهما أنهما دعاء من الأدعية ، كقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » .

ولما بلغه إثباتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى قول الجمهور .

ومن الجدير بالذكر التنويه عن ارتباطهما بسورة الإخلاص قبلهما .

وهو أنه سبحانه ، لما ذكر أنه سبحانه وتعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، والصمد من معانيه الذي تصمد الخلائق إليه في حاجاتهم ، جاء في هاتين السورتين توجيه العهد إلى من يستعينون ويلوذون به ، وهو الله الصمد سبحانه ، فهو وحده الذي يميزهم ويحفظهم وهو الذي يلجئون إليه سبحانه .

وقل أعوذ برب الفلق : تعاذل الاستعانة بالخالق بما خلق ، لأن كل موجود منفلق عن غيره ، إلا الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد .

وجاءت السورة الثانية بمدحها قل أعوذ برب الناس إله الناس صفات المظلة كلها لله تعالى .

وسياتى إن شاء الله تعالى تنبيه على ما يعطيه السياق من ختم
المصحف الشريف بهاتين السورتين الكريمتين ، وللمقارنة بينهما ابيان
عظم منزلتهما .

كما أن الشيخ رحمه الله تعالى علمنا وعليه ، قد أحال على سورة الناس
للإتمام مبحث أفراد الله تعالى بالعبادة ، كما سنوضحه كله إن شاء الله في
محلّه . وبالله تعالى التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

سورة الفلق

قيل : إنه لما صرح تعالى بخالص التوحيد في سورة الإخلاص ، وهي
معركة الإيمان والشرك ، ومثار الخلاف والخصومة بين النبي صلى الله
عليه وسلم وأعدائه ، أمر صلى الله عليه وسلم أن يتموذ من شرور
الخلق فلا يضرروه . إلخ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .

قال أبو حيان وغيره : الفلق فعل بمعنى مفعول أى مفلوق ،
واختلف في المراد بذلك .

فقيل : إنه الصبح يتفلق عنه الليل .

وقيل : الحب والنوى .

وقيل : هو جب في جهنم .

وقال بعض المفسرين : كل ما فلقه الله عن غيره ، كالليل عن

الصبح ، والحب والنوى عن النبات ، والأرض عن النبات ، والجبال

عن العمون ، والأرحام عن الأولاد ، والسحاب عن المطر .

وقال ابن جرير : إن الله أطلق ولم يقيد ، فتطلق كذلك كما أطلق .

والذى يظهر أن كل الأقوال ما عدا القول بأنه جب في جهنم من قبيل اختلاف القنوع ، وأنها كلها محتملة ، قال ابن جرير على الإطلاق .

أما القول بأنه جب في جهنم ، فلم يثبت فيه نص ، وليست فيه أية مشاهدة يحال عليها للدلالة على قدرة الله تعالى ، كما في الأشياء الأخرى المشاهدة .

والذى يشهد له القرآن هو الأول ، كما جاء النص الصريح في الصبح والحب والنوى ، كقوله تعالى (إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) .

وكلها آيات دالة على قدرة الله ، وجاء في حديث عائشة رضى الله عنها في بدء الوحي ، وأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرى رؤيا ، إلا جاءت كفلق الصبح .

والفلق : بمعنى الصبح . معروف في كلام العرب .

وعليه قول الشاعر :

باليلة لم أنها بت مرتقبا أرعى النجوم إلى أن قدر الفلق

وقول الآخر مثله وفيه : إلى أن نور الفلق بدل قدر ، والواقع أنه في قوة الإقسام رب الكون كله يتفلق بمضه عن بعض .

قوله تعالى ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .

وهذا عام وهو على عمومته ، حتى قال الحسن : إن إبليس وجههم مما خلق .

والمعزلة في هذه الآية كلام حول خالق أفعال العباد ، وأن الله لا يخلق للشر ، وقالوا : كيف يخلقه ويقدره ، ثم يأمر بالاستعاذة به سبحانه مما خلقه وقدره ؟

وأجيب من أهل السنة : بأنه لا مانع من ذلك ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « وأعوذ بك منك » .

وقد قال تعالى : (الله خالق كل شيء) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مناقشة هذه المسألة

في مناظرة الأسفرائيني مع الجبائي في القدر .

ومعلوم أن المخلوق لا يتأتى منه شيء قط إلا بمشيئة الخالق ،
وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .

الغاسق : قيل الليل ، لقوله تعالى : (أقم الصلاة لذ لك الشمس إلى
غسق الليل) .

ووقب : أي دخل .

وعليه قول الشاعر :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكت الهم والأرقا

وقول الآخر :

يا طيف هند قد أبيت لي أرقا إذ جئنا طارقا والليل قد غسقا

قال القرطبي : وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي

وغيرهم .

وقيل : الغاسق : القمر إذا كان في آخر الشهر ، لحديث عائشة عند

الترمذى « أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : تموذى من هذا فإنه الفاسق إذا وقب » . أى القمر .

وقائل هذا القول يقول : إنه أنسب لما يجيء بعده من السحر ، لأنه أكثر ما يكون عندهم فى آخر الشهر .

ونقل القرطبي عن ثعلب ، عن ابن الاعرابى ، أن أهل الريب يسمون وجبة القمر ، أى سقوطه وغيوبته .

وأنشد قول الشاعر :

أراحى الله من أشياء أكرهها

منها المعجوز ومنها الكلب والقمر

هذا يوح وهذا يستضاء به

وهذه ضميرز قوامه السحر

والضميرز : الناقة المسنة ، والمرأة الغليظة .

والصحيح الأول ، الذى هو الليل بشهادة القرآن .

والثانى : تابع له ، لأن القمر فى ظهوره واختفائه مرتبط بالليل ،

فهو بعض ما يكون فى الليل ، وفى الليل تنتشر الشياطين وأهل الفساد ،

من الإنسان والحيوان ويقل فيه المنيث إلا الله .

وفي الحديث « أطفئوا السرج فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم ليلاً » . أى الفأرة .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾

المراد به السحرة قطعاً ، سواء كان النفث من النساء كما هو ظاهر اللفظ ، أو من الرجال على معنى الجماعات ، أو النفوس الشريرة فتشمل النوعين .

وأجمع المفسرون : أنها نزلت في لبيد بن الأعصم ، لما سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتاه جبريل عليه السلام وأخبره .

وقد تقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه مبحث السحر وأقسامه وأحكامه وكل ما يتعلق به ، عند الكلام على قوله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) من سورة طه ، ما عدا مسألة واحدة ، وهى حكم ما لو قتل أو أنلف شيئاً بسحره ، فما يكون حكمه ، ونوردها موجزة .

مسألة

ذكر ابن قدامة في المفنى رحمه الله النوع السادس من أنواع القتل : أن يقتله بسحر يقتل غالباً فيلزمه القود ، وإن كان مما لا يقتل غالباً ، ففيه الدية . اهـ .

وذكر النووى فى المنهاج شرح مفنى المحتاج للشافعية : التنبيه على أنه يقتل كذلك .

وذكر مثله ابن حجر فى الفتح : أن الساحر يقتل إذا قتل بسحره .

تنبيهه

يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان .

قال أبو حيان : أخبرنى أنه رأى فى بعض الصحراء عند البعض خيطاً أحمر ، قد عقدت فيه عقد على فصلان أى جمع فصيل ، فنمت من رضاع أمهاتها بذلك ، فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه فى الحين فوضع . اهـ .

كما يقع الحسد أيضاً على الحيوان ، بل وعلى الجماد أى عين العائن تؤثر فى الحيوان والجماد والنبات ، كما تؤثر فى الإنسان

على ما سيأتى إن شاء الله .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

اقتران الحسد بالسحر هنا ، يشير إلى وجود علاقة بين كل من السحر والحسد ، وأقل ما يكون هو التأثير الخفى الذى يكون من الساحر بالسحر ، ومن الحاسد بالحسد مع الاشتراك فى عموم الضرر ، فكلاهما إيقاع ضرر فى خفاء ، وكلاهما منهى عنه .

وقد أوضح فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنواع السحر وأحكامه وأورد فيه كلاماً وافياً .

وقد ظهر بما قدمنا : أن الحسد له علاقة بالسحر نوعاً ما ، فلزم إيضاحه وبيان أمره بقدر المستطاع ، إن شاء الله .

أولاً : تعريفه : قالوا : إن الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير ، أو عدم حصول النعمة للغير شجاً عليه بها .

وقد قيدت الاستعانة من شر الحاسد إذا حسد ، أى عند إيقاعه الحسد بالفعل ، ولم يقيد بها من شر الساحر إذا سحر .

وذلك والله تعالى أعلم : أن النفط فى المقد هو عين السحر ،

فتكون الاستعاذة واقعة موقعها عند سحره الواقع منه بنفثه الحاصل منه في المقد .

أما الحاسد فلم يستعذ منه إلا عند إيقاعه الحسد بالفعل ، أى عند توجهه إلى المحسود ، لأنه قبل توجهه إلى المحسود بالحسد لا يتأتى منه شر ، فلا محل للاستعاذة منه .

أما حقيقة الحسد : فيعذر تعريفه منطقياً .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه أنه قال في السحر : لا يمكن تعريفه خلفائه .

ومعلوم أن الحسد أشد خفاء ، لأنه عمل نفسى وأثر قلبى ، وقد قيل فيه : إنه كإشعاع غير مرئى ، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود ، عند تحرقه بقلبه على المحسود ، وقد شبه حسد الحاسد بالنار فى قولهم :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وقد أنكر بعض الفلاسفة وقوع الحسد ، حيث إنه غير مشاهد وهم محجوجون بكل موجود غير مشاهد ، كالنفس والروح والعقل
(٤١ - أضواء البيان ج ٩)

وقد شوهدت اليوم أشعة [إكس] وهي غير مرئية ، ولكنها تنفذ إلى داخل الجسم من إنسان وحيوان ، بل وخشب ونحوه . ولا يردّها إلا مادة الرصاص لكثافته معدنه ، فتصور داخل جسم الإنسان من عظام وأمعاء وغيرها ، فلا معنى لرد شيء لعدم رؤيته .

تنبيه

قد أطلق الحسد هنا ولم يبين المحسود عليه ، ما هو مع أنه كما تقدم زوال النعمة عن الغير .

وقد نبه القرآن الكريم على أعظم النعمة التي حسد عليها المسلمون عامة ، والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهي نعمة الإسلام ونعمة الوحي وتحصيل الفناء .

فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام في قوله تعالى :
(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) .

والمشركون حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي إليه ، كما في قوله تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) .

والناس هنا عام أريد به الخصوص ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما في قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) .

فالناس الأولى عام أريد به خصوص رجل واحد ، وهو نعيم ابن مسعود الأشجعي .

ومما جاء فيه الحسد عن نعمة متوقفة . قوله تعالى : (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن تبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) .

فتبين بنص القرآن أن الحسد يكون في نعمة موجودة ، ويكون في نعمة متوقعة وجودها .

تنبيه آخر

توجد المين كما يوجد الحسد ، ولم أجد من فرق بينهما مع وجود للفرق .

وقد جاء في الصحيح « إن للمين لحق » .

كما جاء في السنن : « لو أن شيئاً يسبق القدر لسبقته المين »

ويقال في الحسد : حاسد ، وفي العين : عائن ، ويشتركان في الأثر ،
ويختلفان في الوسيلة والمنطلق .

فالحاسد : قد يحسد ما لم يره ، ويحسد في الأمر المتوقع قبل
وقوعه ، ومصدره تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود ، ويتمنى
زوالها عنه أو عدم حصولها له وهو غاية في حطة النفس .

والعائن : لا يعين إلا ما يراه والموجود بالفعل ، ومصدره انقذاح
نظرة العين ، وقد يعين ما يكره أن يصاب بأذى منه كوله وماله .
وقد يطلق عليه أيضاً الحسد ، وقد يطلق الحسد ويراد به الغبطة ،
وهو تمنى ما يراه عند الآخرين من غير زواله عنهم .

وعليه الحديث : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله
ما لا فسلطه على ماله في الخير ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي
بها بين الناس » .

وقال القرطبي : روى مرفوعاً « المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد »
وقال : الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء ، وأول ذنب
عصي به في الأرض ، فحسد إبليس آدم وحسد قابيل هابيل . اهـ .

تحذير

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : إن أول معصية وقعت هي الحسد ، وجر شؤمها إلى غيرها ، وذلك لما حسد إبليس أبانا آدم على ما آتاه الله من الكرامات من خلقه بيديه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فحمله الحسد على التكبر ، ومنعه التكبر من امتثال الأمر بالسجود ، فكانت النتيجة طرده ، عياذاً بالله

أسباب الحسد

وبتأمل القصة ، يظهر أن الحاسد على الحسد أصله أمران :

الأول : ازدراء المحسود .

والثاني : إعجاب الحاسد بنفسه ، كما قال إبليس ممللاً لامقناعه من السجود : (أنا خير منه) .

ثم فصل معنى الخيرية المزعومة بقوله : (خلقتني من نار وخلقته من طين) ويلحق بذلك جميع الأسباب .

وقد ذكرنا منها التميز في نفسه ، ولا يريد لأحد أن يرتفع عليه ، والقعجب بأن يعجب بنفسه ، ولا يرى أحداً أولى منه ،

والخوف من فوات المقاصد عند شخص إذا رآه سيستغنى عنه ، وحب الرئاسة ممن لا يريد لأحد أن يتقدم عليه في أى فن أو مجال .

وذكرها الرازى نقلا عن الغزالي .

ومن هنا لا نرى معجبا بنفسه قط ، إلا ويزدري الآخرين ويحسد على أدنى نعمة أنعمها الله عليهم . عافانا الله من ذلك :

تنبيه

إذا كانت أول معصية وقعت هي حسد إبليس بأبينا آدم على ما أنعم الله به عليه ، وجاء حسد المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي ، وحسد أهل الكتاب للمسلمين على نعمة الإسلام ، وجاءت هذه الصورة في أواخر القرآن ، فكانها جاءت في أعقاب القرآن لتذكر المسلمين بعظم نعمته عليهم وشدة حسدهم عليه ، ليحذروا أعداءهم الذين يكيدون لهم في دينهم ، من كل من الجنة والناس ، على ماسياتي في السورة بعدها والأخيرة ، إن شاء الله

مسألة

في حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئا باليمين

تقدم بيان ذلك في حق السحر ، أما في حق اليمين ، فقد قال

ابن حجر في فتح الباري في كتاب الطب مانصه وقد اختلف في جريان القصاص بذلك ، يعني بالعين .

فقال القرطبي : لو أتلّف العائن شيئاً ضمنه لو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه ، بحيث يصير عادة وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً . هـ .

ولم يتعرض الشافعية للقصاص في ذلك بل منعه ، وقالوا : إنه لا يقتل غالباً ولا يعد مهلكاً ،

وقال النووي في الروضة : ولا دية فيه ولا كفارة ، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون ما يختص ببعض الناس في بعض الأحوال ، مما لا انضباط له ، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً ، وإنما غاية حسد وتمن لزوال نعمة .

وأيضاً ، فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصوله مكروه لذلك الشخص ، ولا يعم ذلك المكروه في زوال الحياة ، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين . هـ .

ولا يعمكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر ، فإنه في معناه ، والفرق بينهما عسير .

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم : أنه ينهى الإمام منع

العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس ، وأنه يلزمه بيته ، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به ، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي أمر عمر رضي الله عنه بمنعه من مخالطة الناس ، وأشد من ضرر الثوم الذي منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

قال النووي : وهذا القول صحيح متعين ، لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه . ا هـ . من فتح الباري .

وبتأمل قول القرطبي والنووي بدقة ، لا يوجد بينهما خلاف في الأصل ، إذ القرطبي يقيد كلامه بما يتكرر منه بحيث يصير عادة له .

والنووي يقول : إنه لا يقتل غالباً ، وعليه فلو ثبت أنه يقتل غالباً وتكرر ذلك منه ، فإنه يتفق مع كلام القرطبي تماماً في أن من أتلف بعينه وكان معتاداً منه ذلك فهو ضامن ، وهذا معقول المعنى ، والله تعالى أعلم .

وعند الحسابلة في كشف القناع مانصه : والمعيان الذي يقتل بعينه .

قال ابن نصر الله في حواشي الفروع : ينبغي أن يلحق بالساحر الذي يقتل بسحره غالباً ، فإذا كانت عينه يستطيع القتل بها ويفعله باختياره وجب به القصاص . ا هـ .

مسألة

بيان مائعالج به العين

لما كان الحسد أضر ما يكون على الإنسان ، والإصابة بالعين حق لا شك فيها وجاء فيها : « لو أن شيئاً سبق القدر لسبقته العين » .

وحديث : « إن العين لحق » فقد فصلت السنة كيفية اتقائها قبل وقوعها ، والملاج منها إذا وقعت .

وذلك فيما رواه مالك في الموطأ وغيره من الصحاح ، في حديث سهل بن حنيف ، وبوئب البخاري في صحيحه باب رقية العين ، وذكر حديث عائشة أنها قالت : « أمرني النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أمر أن يسترقى من العين » .

وعقد مالك في الموطأ باباً بعنوان « الوضوء من العين » وباب آخر بعده بعنوان « الرقية من العين » ، وساق حديث سهل بتمامه وفيه بيان كيفية اتقائها وعلاجها ، ولذا فكتفي بإبراده لشموله .

قال : عن محمد بن أبي أسامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبي سهل بن حنيف بالحرار فنزع جبة كانت عليه ،

وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجل أبيض حسن الجلد ، قال : فقال له عامر بن ربيعة : مارأيت كاليوم ولا جلد عذراء ، قال : فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلاً وعك ، وأنه غير رافع معك يا رسول الله ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره سهل بالذي كان من أمر عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علام يقتل أحدكم أخاه إلا بركت ، إن العين حق ، ترضاً له فتوضاً له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . »

وساق مرة أخرى وفيه ، فقال صلى الله عليه وسلم « هل تهمون له أحداً ؟ قالوا : نهم عامر بن ربيعة ، قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامراً فتغيب عليه ، وقال : علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، اغتسل له ، ففسل عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ، وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس . »

فهذه القصة تثبت قطعاً وقوع العين ، وهذا أمر يجمع عليه من أهل السنة وسلف الأمة ، كما أنها ترشد إلى أن من برك ، أي قال : تبارك الله .

وفي بعض الروايات لغير مالك : هلا كبرت ، أي يقول :

الله أكبر ثلاثا ، فإن ذلك يرد عين العائن .

كما جاء في السنة « أن الدعاء يرد البلاء » فإذا لم تدفع عند صدورها وأصاب ، فإن العلاج منها كما جاء هنا توضحاً له ، واللفظ الآخر : « اغتسل له » .

وقد فصل المراد بالفصل له : أنه غسل الوجه واليدين أى الكفين فقط ، والمرفقين والركبتين والقدمين وطرف الإزار الداخلى ، ويكون ذلك فى إناء لا يسقط الماء على الأرض ، ويفرغ هذا الماء على المصاب من الخلف ويكفؤ الإناء خلفه .

وقد ذكرها مفصلة القاضى الباجى فى شرح الموطأ فقال : وروى عن يحيى بن يحيى عن ابن نافع فى معنى الوضوء الذى أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يفسل الذى يتهم بالرجل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه ورجليه وداخلة إزاره ، وقال : ولا يفسل ما بين اليد والمرفق ، أى لا يفسل الساعد من اليد .

وروى عن الزهرى أنه قال : الفسل الذى أدركنا علماءنا يصفونه : أن يؤتى العائن بقدح فيه ماء ، فيمسك مرتفعاً من الأرض فيدخل فيه كفه فيمضمض ، ثم يمسح به فى القدح ، ثم يفسل وجهه فى

القدح صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على كفه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ظهر كفه اليسرى صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على مرفقه الأيمن ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على قدمه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على قدمه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على ركبته اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ركبته اليسرى ، كل ذلك في قدح ثم يدخل داخلة إزاره في القدح ولا يوضع القدح في الأرض ، فيصب على رأس الممين من خلفه صبة واحدة ، وقيل : يفتل ويصب عليه ، أى في حالة غفلته ، ثم يكفأ القدح على ظهر الأرض وراءه .

وأما داخلة إزاره : فهو الطرف المتدلى الذى يفضى من مآزره إلى جلده مكانه ، إنما يمر بالطرف الأيمن على الأيسر ، حتى يشده بذلك الطرف المتدلى الذى يكون من داخل . ١ هـ .

ومما يرشد إليه هذا الحديث تفيظه صلى الله عليه وسلم على عامر ابن ربيعة .

وقوله صلى الله عليه وسلم « علام يقتل أحدكم أخاه » مما يبين شناعة هذا العمل ، وأنه قد يقتل .

ومما ينبغى مراعاته من كل من الطرفين من ابتلى بالصين ،
فليبارك عند رؤيته ما يعجبه لئلا يصيب أحداً بعينه ، ولئلا تسبغه عينه .

وكذلك من انهم أحداً بالعين . فليكبر ثلاثاً عند تخوفه منه . فإن
الله يدفع العين بذلك . والحمد لله .

وقد ذكروا للحسد ذواء كذلك ، أى يداوى به الحاسد نفسه
ليستريح من عناء الحسد المتوقد في قلبه المنفص عليه عيشه الجالب عليه
حزنه ، وهو على سبيل الإجمال في أمرين . العلم ثم العمل .

والمراد بالعلم هو أن يعلم يقيناً أن النعمة التي يراها على المحسود ،
إنما هي عطاء من الله بقدر سابق وقضاء لازم ، وأن حسده إياه عليها
لا يغير من ذلك شيئاً ، ويعلم أن ضرر الحسد يعود على الحاسد وحده
في دينه لعدم رضائه بقدر الله وقسمته لعباده ، لأنه في حسده كالمعارض
على قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) وفي
دنياه لأنه يورث السقام والأحزان والسكابة ونفرة الناس منه ومقتهم
إياه ، ومن وراء هذا وذاك : العقاب في الآخرة .

أما العمل فهو مجاهدة نفسه ضد نوازع الحسد ، كما تقدمت الإشارة
إليه في الأسباب ، فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه ، فليحاول أن يقدره
ويخدمه .

وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه ، ردّها إلى التواضع وإظهار العجز والافتقار .

وإن سوّأت له نفسه تمنى زوال النعمة عن غيره ، صرف ذلك إلى تمنى مثلها لنفسه . وفضل الله عظيم .

وإن دعاه الحسد إلى الإساءة إلى المحسود ، سمى إلى الإحسان إليه ، وهكذا . فيسلم من شدة الحسد ، ويسلم غيره من شره .

وكما في الأثر : « المؤمن يقيط ، والمنافق يحسد » .

نسأل الله العافية والمغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على هذه السورة عند كلامه على قوله تعالى : (ألا تعبدوا إلا إياه إنني لكم منه نذير وبشير) في سورة هود ، فقال على تلك الآية : فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها ، هي أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به في عبادته شيء .

وساق الآيات المماثلة لها ثم قال : وقد أشرنا إلى هذا البحث في سورة الفاتحة ، وسنتقصي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في سورة الناس ، ليكون خاتمة هذا للكتاب المبارك حسنى . ٥١ .

وإن في هذه الإحالة منه رحمة الله تعالى علينا وعليه لتنبيهنا على المعاني التي اشتملتها هذه السورة الكريمة ، وتوجيهاً لمراعاة تلك الخاتمة .

كما أن في تلك الإحالة تحميل مسئولية الاستقصاء حيث لم يكتف بما قدمه في سورة الفاتحة ، ولا فيما قدمه في سورة هود ، وجعل (٤٢ - أضواء البيان ج ٩)

الاستقصاء في هذه السورة، ومعنى الاستقصاء: الاستقياب إلى أقصى حد .

وما أظن أحداً يستطيع استقصاء ما يريده غيره ، ولا سيما ما كان يريده الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه وما يستطيمه هو .

ولكن على ما قدمنا في البداية : أنه جهد المقل ووسع الطاقة .
فنستعين الله ونستهديه مسترشدين بما قدمه الشيخ رحمه الله تعالى علينا
وعليه في سورتي الفاتحة وهود ، ثم نورد وجهة نظر في السورتين مما
للخلق والناس ، ثم منهما وفي نسق المصحف الشريف ، آمل من الله تعالى
دراج توفيقه ومعاونته .

أما الإحالة فالذي يظهر أن موجبها هو أنه في هذه السورة الكريمة
اجتمعت ثلاث صفات لله تعالى من صفات العظمة والكمال : رب الناس ،
ملك الناس ، إله الناس ، وليكأنها لأول وهلة تشير إلى الرب الملك هو الإله
الحق الذي يستحق أن يعبد وحده .

ولعله ما يرشد إليه مضمون سورة الإخلاص قبلها : هو الله أحد ،
الله الصمد ، وهذا هو منطق المقل والقول الحق لأن مقتضى الملك
يستلزم العبودية . والعبودية تستلزم التأليه والتوحيد في الألوهية ، لأن
العبد المملوك يجب عليه الطاعة والسمع لما لكه بمجرد الملك ، وإن كان

مالك عبداً مثله ، فكيف بالمبد الملك لربه وإلهه ، وكيف بالمالك
الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ؟

وقد جاءت تلك الصفات الثلاث : الرب الملك الإله ، في أول افتتاحية
أول المصحف : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) .
والقراءة الأخرى (ملك يوم الدين) .

وفي أول سورة البقرة أول نداء يوجه للناس بعبادة الله تعالى
وخلده ، لأنه ربهم مع بيان الموجبات لذلك في قوله تعالى : (يا أيها الناس
اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب لذلك بقوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم) :
وقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل
من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

وهذا كله من آثار الربوبية واستحقاقه تعالى على خلقه العبادة ،
ثم بين موجب إفراده وحده بذلك بقوله : (فلا تجملوا لله أندادا
وأنتم تعلمون) .

أى كما أنه لاند له فى الخلق ولا فى الرزق ولا فى شيء مما ذكر ،
فلا تجملوا لله أندادا أيضاً فى عبادة ، وأنتم تعلمون حقيقة ذلك .

وعبادته تعالى وحده ونفى الأنداد ، هو ما قال عنه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه : معنى لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً .

فالإثبات في قوله تعالى : (اعبدوا الله) .

والنفي في قوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً) .

وكون الربوبية تستوجب العبادة ، جاء صريحاً في قوله تعالى :
(فليعبـدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

فالموصول وصلته في معنى التعليل لموجب العبادة ، وسيأتي لذلك زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى في نهاية السورة .

وقد جاء هنا لفظ (رب الناس) بإضافة الرب إلى الناس ، بما يشعر بالاختصاص ، مع أنه سبحانه رب العالمين ورب كل شيء ، كما في أول الفاتحة : (الحمد لله رب العالمين) .

وفي قوله : (قل أغير الله أبني رباً وهو رب كل شيء) .

فالإضافة هنا إلى بعض أفراد العام .

وقد أضيف إلى بعض أفراد أخرى كالسماوات والأرض وغيرها .

من بعض كل شيء ، كقوله : (قل من رب السماوات والأرض ،
قل الله) .

وقوله : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) .

وإلى البيت (فليعبدوا رب هذا البيت) .

وإلى البلد الحرام (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) .

وإلى العرش (رب العرش الكريم) .

وإلى الرسول (اتبع ما أوحى إليك من ربك) .

وقوله : (وربك فكبر) إلى غير ذلك .

ولكن يلاحظ أنه مع كل إضافة من ذلك ما يفيد العموم ، وأنه
مع إضافته لفرد من أفراد العموم ، فهو رب العالمين ، ورب كل شيء .
ففى إضافته إلى السماوات والأرض جاء معها (قل الله) .

وفى الإضافة إلى المشرق والمغرب جاء (لا إله إلا هو فاتخذه
وكيلاً) .

وفى الإضافة إلى البيت جاء (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم
من خوف) وهو الله سبحانه .

وفى الإضافة إلى البلدة جاء (الذى حرمها) وهو الله تعالى .

وفي الإضافة إلى العرش جاء قوله تعالى : (فتعالى الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش) .

وفي الإضافة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاء قوله : (ماودعك ربك) ، وغير ذلك من الإضافة ، إلى أى فرد من أفراد الموم يأنى معها ما يفيد العموم ، وأن الله رب العالمين .

وهنا رب الناس جاء معها (ملك الناس إله الناس) ليفيد الموم أيضاً ؛ لأن إطلاق الرب قد يشارك فيه السيد المطاع ، كما فى قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .

وقول يوسف لصاحبه فى السجن (اذكرنى عند ربك) أى الملك على أظهر الأقوال ، وقوله : (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة) الآية .

فجاء بالملك والإله للدلالة على العموم ، فى معنى رب الناس ، فهو سبحانه رب العالمين ورب كل شىء ، ولكن إضافته هنا إلى خصوص الناس إشمار بمزيد اختصاص ، ورعاية الرب سبحانه لعبده الذى دعاه إليه ليستفيد به من عدوه ، كما أن فيه تقوية رجاء المبدى فى ربه بأنه سبحانه ربوبيته سيمضى عبده لعبوديته ويميزه بما استقامته به منه .

ويقوى هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول صلى الله عليه وسلم
 في جميع أطواره منذ البدأين : بدأ الخلقة وبدأ الوحي ، في قوله :
 (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من عاق) ، ثم في
 نشأته (ماودعك ربك وما قل - إلى قوله - ألم يجدك يتيما فآوى ،
 ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) .

وجعل الرغبة إليه في السورة بعدها (وإلى ربك فارغب) بعد
 تعداد النعم عليه من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، ثم
 في المنتهى قوله : (إن إلى ربك الرجعى) .

قوله تعالى : (ملك الناس) في مجيء ملك الناس بعد رب
 الناس ، تدرج في التنبيه على تلك المعاني العظام ، وانتقال بالعباد من
 مبدأ الإيمان بالرب لما شاهدوه من آثار الربوبية في الخلق والرزق ،
 وجميع تلك الكائنات ، كما تقدم في أول نداء وجه إليهم (اعبدوا
 ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم
 الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات
 رزقا لكم) .

كل هذه الآثار التي لمسوها وأقروا بموجبها ، بأن الذي أوجدها
 هو ربهم ، ومن ثم ينتقلون إلى الدرجة الثانية ، وهي أن ربه الذي

هذه أفعاله هو ملكه وهو المتصرف في تلك العوالم ، وملك لأمره
وجميع شئونه ، ومالك لأمر الدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا وصل بإقراره إلى هذا الإدراك ، أقر له ضرورة له بالالوهية
وهي المرتبة النهائية . إله الناس أى مألوههم ومعبودهم وهو ماخلقهم
إليه ، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وفى إضافة الملك إلى الناس من إشعار الاختصاص ، مع أنه
سبحانه ملك كل شيء ، فيه مافى إضافة الرب للناس المتقدم بحنه ، فهو
سبحانه مالك الملك كما فى قوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك
من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتميز من تشاء)

وقوله تعالى : (له الملك وله الحمد)

وقوله : (له ملك السماوات والأرض) وقوله (الملك القدوس)

فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالملك لا شريك له فى ملكه ، كما قال
تعالى : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى
الملك) فبدأ بالحمد أولاً .

ومثله قوله : (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء) بدأ

بتسبيح نفسه وتنزيهه لعموم الملك ومطلق التصرف ونفى الشريك لأن

ملكه ملك تصرف وتدير مع الكمال في الحمد والتقديس .

وكقوله : (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) .

وبهذه النصوص يعلم كمال ملكه تعالى ، ونقص ملك ما سواه من ملوك الدنيا ، ونعلم أن ملكهم بتمليك الله تعالى إياهم كما في قوله تعالى : (والله يؤتي ملكه من يشاء) .

وقوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) .

ومن المعلوم أن ملوك الدنيا ملكهم ملك سياسة ورعاية ، لا ملك ملك وتصرف ، وكما في قوله تعالى : (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال . قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) .

والجدير بالتنبيه عليه بهذه المناسبة أن « بريطانيا » تحترم نظام الملكية إلى هذا الوقت الحاضر ، بدافع من هذا المعتقد ، وأنه لا ملك إلا بتمليك الله إياه ، وأن ملوك الدنيا باصطفاء من الله .

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه ، من أن ملوك الدنيا لا يكون

أمر الرعية لأن طالوت ملكا ، وليس مالكا لأموالهم .

بينما ملك الله تعالى ملك خلق وإيجاد وتصرف ، كما في قوله تعالى : (الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا نانا . إناثا ويجعل من يشاء عقيما . إنه عليم قدير) .

وعليم قدير هنا من خصائصه سبحانه وتعالى ، فيتصرف في ملكه بعلم وعن قدرة كاملتين سبحانه ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .

وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق ، فيتلاشى كل ملك قل أو كثر ، ويذل كل ملك كبر أو صغر ، ولم يبق إلا ملكه تعالى يوم هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

وفي سورة الفاتحة (ملك يوم الدين) .

والقراءة الأخرى (مالك يوم الدين)

في القراءتين معاً إسماعيل بالفرق بين ملك الله وملك المباد ، كالفرق بين الملك المطلق والملك النسبي ، إذ الملك النسبي لا يملك . والملك المطلق

فهو الملك القدوس ، والذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجع الخلائق كلهم .

ومن كانت هذه صفاته ، فهو المستحق لأن يعبد وحده سبحانه ، ولا يشرك معه أحد ، وهذا هو شمار العبد في الركن الخامس من أركان الإسلام ، حين يهلّ بالقلبية : إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

قوله تعالى : (إله الناس) .

هذه هي المرتبة الثالثة في كمال العبودية ، وإفراد الله تعالى بالألوهية .

وهذا هو محل الإحالة ، التي عنها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يظهر ، لأن المبدأ إذا أقر بأن الله تعالى ربه وخالقه ، ومنعم عليه أوجده من العدم ، ورباه بالنعم ، لا رب له سواه ، ثم تدرج بملءه وبقينه إلى الإقرار بأن ربه هو مليك والمتصرف في أمره وحده ، وأنه لا يملك هو نفسه مع الله شيئاً ، ولا يملك له أحد من الله شيئاً .

وأن كل تصرفات العالم كله بأمره فلا يصل إليه خير إلا بإذنه ،

ولا يصرف عنه ضرر إلا بأمره .

وعرف في يقين : أنه عبد مملوك لمن بيده ملكوت السموات والأرض ،
توصل بعلمه هذا أن من كانت هذه صفاته ، كان هو وحده المستحق
لإفراده بالعبادة وبالألوهية ، لا إله إلا هو .

فيكون في خاتمة المصحف الشريف انتزاع الإقرار من العبد لله
سبحانه بطريق الإلزام ، بالمعنى الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل من
أجله كتبه ، وهو أن يعبد الله وحده ، وهو ما صرح الشيخ به في
الإحالة السابقة .

وإذا كان الشيخ رحمه الله ، قد نبه على مراعاة خاتمة المصحف ،
فإننا لو رجعنا إلى أول المصحف وآخره لوجدنا ربطاً بديعاً ، إذ تلك
الصفات الثلاث في سورة الناس موجودة في سورة الفاتحة ، فاتفقت
الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم ، إذ في الفاتحة الحمد لله رب العالمين .
وملك يوم الدين ، فجاءت صفة الربوبية والملك والألوهية في لفظ
الجلالة .

وتكون الخاتمة الشريفة من باب عود على بدء ، وأن القرآن كله

فما بين ذلك شرح وبيان لتقدير هذا المعنى الكبير .

وسياتى لذلك زيادة إيضاح فى النهاية ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .

كلاهما صيغة مبالغة من الوسوسة والخنس ، بسكون النون ،

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى الوسوسة ،
والوسواس لغة وشرعاً ، أى المراد عند كلامه على قوله تعالى : (فوسوس
إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) الآية .

وبين مشتقاتهما وأصل اشتقاقهما ، وهو يدور على أن الوسوسة :
الحديث الخفى . والخنس : التأخر ، كما تكلم على ذلك فى دفع
إيهام الاضطراب ، حيث اجتمع المعنيان المتنافيان .

لأن الوسواس : كثير الوسوسة ، ليضل بها الناس . والخناس : كثير
التأخر والرجوع عن إضلال الناس .

وأجاب بأن لكل مقام مقالا ، وأنه يوسوس عند غفلة العبد عن
ذكر ربه ، خانس عند ذكر العبد ربه تعالى ، كما دل عليه قوله

تعالى : (ومن يمش عن ذكر الرحمن نقبض له شيطانا فهو له قرين)
إلى آخره . ١٥ .

قوله تعالى ﴿ الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .

اختلف في الظرف هنا ، هل هو ظرف للوسواس حينما يوسوس ،
فيكون موجوداً في الصدور ، ويوسوس للقلب ، أو هو ظرف للوسوسة ،
ويكون المراد بالصدور القلوب ، لكونها حالة في الصدور من باب إطلاق
المحل ، وإرادة الحال على ما جار في الأساليب البلاغية .

وعلى حد قوله تعالى : (فليدع ناديه) أطلق النادى ، وأراد من
يحل فيه من القوم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث تمعية الوسوسة
تارة بإلى وتارة باللام ، ففي سورة الأعراف (فوسوس لهما الشيطان) ،
وفي طه : (فوسوس إليه الشيطان) .

وحاصل ما ذكره في الجمع بينهما أحد أمرين : إما أن حروف الجر
ينوب بعضها عن بعض ، وذكر شواهد ، وإما أن يكون وسوس
له أى لأجله ووسوس إليه أى أنهى إليه الوسوسة ، ولكن هنا قال :

(في صدور الناس) ولم يقل : إلى صدور الناس ، فهل هو من باب
غيابة حروف الجر بعضها عن بعض أيضاً ؟ أم هي ظرف محض ؟ .

والظاهر أنها ظرف ، ولكن هل هو الظرف للوسواس ، أو ظرف
للسوسة نفسها ؟

وبالنظر إلى كلام المفسرين ، فإن كلام ابن جرير يحتمل اعتبار
للمعنيين بدون تعيين .

وأما القرطبي ، والألويسي ، فصرحا بما ظهر لهما ووصلا إليه .

فقال القرطبي ، قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير يجري من
مجرى الدم في المروق سلطه الله على ذلك وذكر الحديث « إن الشيطان
ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه » .

وقال : إن أبا ثعلبة الخشني قال : سألت ربي أن يريني الشيطان ،
ومكانه من ابن آدم ، فرأيت يديه ورجلاه في رجليه ومشاعيه
في جسده ، غير أن له خطما كخطم الكلب ؟ فإذا ذكر الله خنس ،
وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه .

أما الألويسي فقد صرح بالتقسيم الذي أوردناه ، فقال : الذي
يوسوس في صدور الناس .

قيل : أريد قلوبهم مجازاً .

وقال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر الذي هو بمنزلة الدهليز ، فيلقى منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه ، ولا مانع عتلا من دخوله في جوف إنسان . وساق الحديث أيضاً « إن الشيطان يجرى » إلى آخره .

ومراده بالمجاز ما قدمنا من إطلاق المحل وإرادة الحال .

وذكر ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن الصدر ظرف للوسواس ، وأنه يوقع الوسوسة في القلب . على ما قاله ابن عباس ومجاهد رحمهم الله .

وفي لفظ الناس هنا المضاف إليه الصدر ، اختلاف في المراد منه ، فتيل : الإنس . لظاهر الاستعمال .

وقيل : الثقلان : الإنس والجن .

وإن إطلاق الناس على الجن مسموع ، كما حكاه القرطبي قال عن بعض العرب :

إنه كان يحدث فجاء قوم من الجن فوقفوا ، فقيل : من أنتم ؟ فقالوا : ناس من الجن ، وهذا معنى قول الفراء .

واستدل صاحب هذا القول بطريق القياس باستعمال لفظي رجال

ونفر في قوله تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) وقوله (وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن) .

وعليه يكون الوسواس المستعاذ منه يوسوس في صدور الجن والإنس .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الوجه ، ولكنه رده وضعفه ، لأن لفظ الناس أظهر وأشهر في الإنس ، وهو المعروف في استعمال القرآن ، ولأنه على هذا يكون قسم الشيء قسماً منه ، لأنه يجعل الناس قسم الجن ، ويجعل الجن نوعاً من الناس هـ . ملخصاً .

وعلى كل ، فإن منهج الأضواء أن ما كان محتملاً وكان أكثر استعمالات القرآن لأحد الاحتمالين ، فإن كثرة استعماله إياه تكون مرجحاً ، وجميع استعمالات القرآن للفظ الناس إنما هو في خصوص الإنس فقط ، ولم تستعمل ولا مرة واحدة في حق الجن مع مراعاة استعمالها في هذه السورة وحدها خمس مرات ، حتى سميت سورة الناس .

أما القياس على لفظتي رجل ونفر ، فقد رده شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً بأهمها وردا مقيدتين رجال من الجن ، نفراً من الجن .

أما على الإطلاق فلم يردا ، وهكذا لفظ الناس فلا مانع من (٤٣ - أضواء البيان ج ٩)

لأستعماله مقيداً ناس من الجن . أما على الإطلاق فلا .

وعليه ، فحيث ورد لفظ الناس هنا مطلقاً فلا يصح حمله على الجن والإِنس معاً ، بل يكون خاصاً بالإِنس فقط ، ويكون في صدور الناس أى في صدور الإِنس

وقد ذكر أبو السعود معنى آخر في لفظ الناس : وهو أن الناس من النسيان ، حذفت الياء تخفيفاً لأن الوسواس لا يوسوس إلا في حين النسيان والغفلة .

وعليه ، يكون حذف الياء كحذفها من الداع في قوله : (يوم يدع الداع) ونحوه .

ولكن يبقى على هذا القول بيان من المراد بالناس ، أهو من الإِنس أم من الجن ، فلم يخرج عن الاحتمالين السابقين ، مع أن هذا القول من لوازم معنى الوسواس الخناس .

ويرد على هذا القول جمع الصدور وإفراد الناس ، والجمع لا يضاف إلا إلى جمع ، أى جمع الصدور ، لأن الفرد ليس له جمع من الصدور ، فمقابل الجمع بجمع ، أو يكتفى بالفرد بمفرد .

وقد جاء في إضافة الجمع إلى المثني في قوله : (فقد صفت قلوبكما) .

قال أبو حيان : وحسنه أن المثنى جمع في المعنى ، والجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع .

كما قال الشاعر :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ كنوافذ العيط التي لا ترفع
وهذا كان القياس وذلك أن المعبر عن المثنى بالمثنى ، لكن كرهوا
اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع بأن التثنية جمع في المعنى والإفراد ،
لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر .
كقوله

* حماسة بطن الواديين ترنمى *

يريد بطنى ، وغلط ابن مالك في التسهيل إذ قال : ونختار
الإفراد على لفظ التثنية ، فتراه غلط ابن مالك في اختياره جواز
إضافة الجمع إلى المفرد ، كما أنه قل : ولا يجوز ذلك إلا في الشعر ، وأنه
مع المثنى لكرهية اجتماع التثنيتين ، فظهر بطلان قول أبي السعود .

أما الراجح في الوجهين في معنى الناس المتقدم ذكرهما . فهو الوجه
الأول ، وهو أنهم الإنس ، وأن قوله تعالى (من الجنة والناس)
بيان لمن يقوم بالوسوسة ، أى بيان للوسواس الخناس وأنه من كل
من وسواس الجنة ووسواس الناس .

ويظهر ذلك من أمور :

منها : أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته تبعاً له فهو

في حق الناس أظهر .

ومنها : أننا لو جعلنا الناس الأولى عامة لمن يوسوس إليه كان من الجنة ، والناس مصدر الوسوسة ، فيكون من وسواس الناس من يوسوس في صدور الجن . وهذا بعيد .

ومنها : أنه لو كان لفظ الناس يشمل الجن والانس ، لما احتيج إلى هذ التقسيم الجنة والناس ، واكتفى في الثانية بما اكتفى به في الأولى ، وكان يكون الذي يوسوس في صدور الناس من الناس ، ولكن جاء بيان محل الوسوسة صدور الناس ، ثم جاء مصدر الوسوسة الجنة والناس ، والله تعالى أعلم .

تنبيه

ذكر أبو حيان في آخر تفسيره مقارنة لطيفة بين سورتي المعوذتين ، فقال : ولما كانت مضرة الدين ، وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت ، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب ، والملك ، والإله ، وإن اتحد المطلوب

وفي الاستعاذة من ثلاث : الفاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، بصفة واحدة وهي الرب ، وإن تكثر الذي يستعاذ منه .

وهذه الأخرى لفظة كريمة ، طالما كنت تطلعت إليها في وجهتي

نظر ، إحداهما : بين السورتين ، والأخرى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، سيأتى إيرادها إن شاء الله .

إلا أنه على وجه نظر أبى حيان ، وهى أنه تعالى فى سورة الفلق جاء فى الاستعاذة بصفة واحدة وهى رب الفلق .

وفى سورة الناس جاء فى الاستعاذة بثلاث صفات ، مع أن المستعاذ منه فى الأولى ثلاثة أمور ، والمستعاذ منه فى الثانية أمر واحد ، فلخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث .

ويقال أيضاً من جهة أخرى : إن المستعاذ منه فى السورة الأولى أمور تأتى من خارج الإنسان ، وتأتية اعتداء عليه من غيره ، وقد تكون شروراً ظاهرة ، ومثل ذلك قد يمكن التعرض منه أو انقاؤه قبل وقوعه ، وتجنبه إذا علم به . بينما الشر الواحد فى الثانية يأتية من داخلية وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه ، إذ الشيطان يرانا ولا نراه ، كما فى قوله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

وقد يثر عليه خلجات نفسه ونوازع فكره ، فلا يجد له خلاصاً إلا بالاستعاذة واللجوء إلى رب الناس ملك الناس إله الناس .

أما الوجهتان اللتان نوهنا عنهما ، فالأولى بين السورتين وهى مما

أورده أبو حيان : إذ في سورة الفلق قال : (قل أعوذ برب الفلق)
ورب الفلق تعادل قوله : (رب العالمين) .

لأنه مامن موجود في هذا الكون إلا وهو مفلق عن غيره .

وفي الزرع : (فالق الحب والنوى) .

وفي الزمن (فالق الإصباح) .

وفي الحيوانات : (الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها
زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء) .

وفي الجمادات يشير إليه قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا
أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء
حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم) .

فرب الفلق تعادل رب العالمين ، فقابلها في الاستعانة بعموم المستعان
منه ، من شر ما خلق .

ثم جاء ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به ، وهو من شر غاسق
إذا وقب ، والنفاثات في المقعد ، وحاسد إذا حسد .

فالمستعان به صفة واحدة ، والمستعان منه عموم ما خلق جملة وتفصيلا ،

بينما فى السورة الثانية جاء بالمستعاذ به ثلاث صفات ، هى صفات العظمة
 لله تعالى : الرب والملك والإله .

فقابل المستعاذ منه وهو شيء واحد فقط ، وهو الوسواس
 الخناس ، وهذا يدل على شدة خطورة المستعاذ منه .

وهو كذلك ، لأننا لو نظرنا فى واقع الأمر لوجدنا مبعث كل
 فتنه ومنطلق كل شر عاجلاً أو آجلاً ، لوجدناه بسبب الوسواس الخناس .
 وهو مرتبط بتاريخ وجود الإنسان .

وأول جناية وقعت على الإنسان الأول ، إنما هى من هذا
 الوسواس الخناس ، وذلك أن الله تعالى لما كرم آدم ، خلقه بيده
 وأسجد الملائكة له وأسكنه الجنة هو وزوجه لا يجوع فيها ولا يعرى ،
 ولا يظلم فيها ولا يضغى ، يأكلان منها رغداً حيث ماشاءا ، إلا من
 الشجرة المنوعة ، فوسوس إليهما الشيطان حتى أكل منها ودلاهما بفرور ،
 حتى أهبطوا منها جميعاً بعضهم لبعض عدو .

وبعد سكنها الأرض أتى ابنيها قابيل وهابيل فلاحقهما أيضاً
 بالوسوسة ، حتى طوّعت نفس أحدهما قتل أخيه فأصبح من الغادمين .

وهكذا بسأثر الإنسان فى حياته بالوسوسة حتى يربكه فى الدنيا ،
 ويهلكه فى الآخرة ، واقد اتخذ من المرأة جسراً لكل ما يريد .

وهاهو يعيد الكرة في نزع اللباس عن أبويننا في الجنة، فينتزعه عنهما في ظل بيت الله الحرام في طوافهم قبل البعثة ولا يزال يفويه، وعن طريق المرأة في كل زمان ومكان ليخرجه عن الاستقامة كما أخرج أبويه من الجنة .

ولا يزال يحلب على الإنسان بخياله ورجله باراً بقسمه بين يدي الله بعزته ليفوينهم أجمعين .

وإن أخطر أبواب الفساد في المجتمعات هي عن المال أو الدم أو المرض، كما في الحديث في حجة الوداع : « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا » إلى آخره .

وهل وجدت جنسية على واحد منها، إلا من تأثير الوسواس الخفاس . اللهم لا .

وهكذا في الآخرة .

وقد بين ثمالى الموقف جلياً في مقالة الشيطان البليغة الصريحة :
(وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إلى كفرت بما أشركتمون من قبل) الآية .

ولقد علم عدو المسلمين ، أن أخطر سلاح على الإنسان ، هو الشك ولا طريق إليه إلا بالوسوسة ، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين في دينهم وفي دنياهم ، ويشككهم في قدرتهم على الحياة الكريمة مستغلين عنه ، ويشككهم في قدرتهم على التقدم والاستقلال الحقيقي ، بل وفي استطاعتهم على الإبداع والاختراع ، ليظلوا في فلكه ودائرة نفوذه ، فيبقى المسلمون يدورن في حلقة مفرغة ، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى .

والمشكك في نتيجة عمل لا يقدم عليه أبداً ، بل ما يبنيه اليوم يهدمه غداً ، وقد أعلن عن هذه النتيجة الخطيرة رئيس مؤتمر المشرقين في الشرق الأوسط ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، حينما انعقد المؤتمر في [بيروت] لعرض نتائج أعمالهم ودراسة أساليب تبشيرهم .

فتشكى المؤتمر من أن لهم زهاء أربعين سنة من عملهم المتواصل ، لم يستطيعوا أن ينصروا مسلماً ، واحداً ، فقال رئيس المؤتمر : إذا لم نستطع أن ننصر مسلماً ، ولكن استطعنا أن نوجد ذبذبة في الرأي ، فقد نجحنا في عملنا .

وهكذا منهج العدو ، تشكيك في قضايا الإسلام ليوجد ذبذبة في عقيدة المسلمين ، فمن طريق الميراث تارة ، وعن طريق تعدد الزوجات

أخرى ، وعن دوافع القتال ، وعن استرقاق الرقيق ، وعن وعن .
حتى وجد من أبناء المسلمين من يتخطى حدود الشك إلى التصديق ،
وأخذ يدعو إلى ما يدعو إليه العدو ، وما ذاك كله إلا حصاد ونتائج
الوسواس الخناس .

فلا غرو إذا أن تجمع الصفات الجليلة الثلاث : رب الناس ، ملك
الناس ، إله الناس .

هذه وجهة النظر الأولى بين سورتي الفلق والناس .

أما الوجهة الثانية وهي بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ،
بقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين
إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت
عليهم) .

وفي هذه البداية الكريمة بث الطمأنينة في القلب المعبر عنها بالحمد ،
عنوان الرضى والسعادة والإقرار لله بالربوبية ، ثم الإيمان بالبعث
والإقرار لله بملك يوم الدين ، ثم الالتزام بالعبادة لله وحده والاتجاء
إليه مستعينين به ، مستهديا الصراط المستقيم ، سائلا صحبة الذين أنعم
عليهم .

ثم يأتي بعدها مباشرة في أول سورة البقرة (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) أى إن الهدى الذى تنشده إلى الصراط المستقيم ، فهو في هذا الكتاب لا ريب فيه ، ثم بين المتقين الذين أنعم الله عليهم بقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) .

ومرة أخرى للتأكيد : أولئك لا سواهم على هدى من ربك وأولئك هم المفلحون .

ثم ترسل السورة في تقسيم الناس إلى الأقسام الثلاثة : مؤمنين وكافرين ومذبذبين بين بين ، وهم المنافقون .

ثم يأتي النداء الصريح وهو أول نداء في المصحف لموم الناس (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ويطبق البراهين على استحقاقه للعبادة وعلى إمكان البعث بقوله (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

وبعد تقرير الأصل وهى العقيدة ، تمضى السورة في ذكر روع

الإسلام ، فتشتمل على أركان الإسلام كلها وعلى كثير من مسائل المعاملات والجهاد ، وقلّ باب من أبواب الفقه إلا وله ذكر في هذه السورة ، ويأتى ما بعدها مبيناً لما أجمل فيها أو لما يذكر ضمنها .

وهكذا حتى ينتهى القرآن بكمال الشريعة وتمام الدين .

ولما جاء في وصف المتقين المهتدين في أول المصحف ، أنهم يؤمنون بالغيب ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، أمور الغيب تستلزم اليقين ، لترتب الجزاء عليه ثواباً أو عقاباً .

والثواب والعقاب هما نتيجة الفعل والترك

والفعل والترك : هما مناط التكليف ، لأن الإنسان يمتثل الأمر رجاء الثواب ، ويكف عن متعلق النهى مخافة العقاب .

فلـكأن نسق المصحف الشريف يشير إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه ، من أن القرآن بدأ بالحمد ثناءً على الله بما أنعم على الإنسان بإنزاله ، وإرسال الرسول صاحبه به ، ثم نقله من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، وهو الأعظم قدراً وخطراً ، ثم رسم له الطريق الذى سلكه المهتدون أهل الإنعام والرضى ، ثم أوقفه عليه ليسلك سبيلهم .

وهكذا إلى أن جاء به بعد كمال البيان والإرشاد والهداية ، جاء

به إلى نهاية هذا الصراط المستقيم ، فاستوقفه ليقول له إذا اطأنت لهذا الدين ، وآمنت بالله رب العالمين ، راعقت مجيء يوم الدين ، وعرفت طريق المهتدين ورأيت قسام الناس الثلاث مؤمنين وكافرين ومنافقين ، ونهاية كل منهم ، فالزم هذا الكتاب ، وسر على هذا الصراط ورافق أهل الإنعام ، وجانب المفضوب عليهم والضالين ، واحذر من مسلك المنافقين المتشككين ، وحاذر كل الحذر من موجب ذلك كله ، وهو الوسواس الخناس ، أن يشككك في متعلقات الإيمان ، أو في استواء طريقك واستقامته أو في عصمة كتابك وكلامه ، وكن على يقين مما أنت عليه ، ولا تنس خطره على أبويك من قبل ، إذ هما في الجنة دار للسلام ولم يسلا منه ، ودلاهما بفرور فحاذر منه ولذبي كلما ألم بك أو مسك طائف منه ، وكن كسلفك الصالح إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

وقد علمت عداوته لك من بعد ، وعداوته ناشئة عن الحسد .

ولكان ارتباط السورتين ليشير إلى منشأ تلك العداوة وارتباطها بهذا التحذير ، إذ في الأولى : ومن شر حاسد إذا حسد ، فحسد الشيطان آدم على إكرام الله إياه كما أسلمنا .

والعدو الحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن المحسود ، ولئن كانت

ثوبة آدم هي سبيل نجاته ، كما في قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .

فنجائك أيضاً في كلمات تستعيز بها من عدوك : رب الناس ملك الناس إله الناس ، لأن الرب هو الذي يرحم عباده ، وملك الناس هو الذي يحميهم ويحفظهم ويحرسهم . وإله الناس الذي يتألمون إليه ويتضرعون ويلوذون به سبحانه .

تنبيه

إذا كان هذا كله خطر الوسواس الخناس من الجنة والناس ، وهما عدو مشترك ومتربص حاقد حاسد ، فما طريق النجاة منه ؟
الذي يظهر ، والله تعالى أعلم : أن طريق النجاة تعتمد على أمرين :

الأول : يؤخذ من عمومات الكتاب والسنة .

والثاني : سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

أما الأول فهو : إذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد ، فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضي دون

تردد، كما في قوله : (فإذا عزمتم فتوكل على الله) ، وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالاعتناء بهم (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريك إلى مالا يريك » .

والقاعدة الفقهية « اليقين لا يرفع بشك » .

والحديث : « يأتي الشيطان لأحدكم وهو في الصلاة فينفخ في مغمده ، فيتنخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث ، فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً ، يجذ ربجاً » .

ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين ، فالعقائد لا بد فيها من اليقين .

والفروع في العبادات لا بد فيها من النية « إنما الأعمال بالنيات » .

والشرط في النية الجزم واليقين ، فلو نوى الصلاة على أنه إن حضر فلان تركها ، لا تنعقد نيته ، ولو نوى صوماً أنه إن شاء أفطر ، لا ينعقد صومه .

ونص مالك في الموطأ: أنه إن نوى ليوم الشك في ليلته الصوم غداً ، على أنه إن صح من رمضان فهو لرمضان ، وإلا فهو نافلة ، لا ينعقد صومه لا فرضاً ولا نفلاً حتى لو جاء رمضان لا يعتبر له منه ، وعليه قضاؤه لعدم الجزم بالنية .

والحج : لو نواه لزمه ولزمه المضي فيه ، ولا يملك الخروج منه باختياره .

وهكذا المعاملات في جميع العقود مبنية على الجزم حتى في المرح والالعاب ، يؤخذ في البعض كالنكاح والطلاق والعتاق .

فمن هذا كله ، كانت دوافع الغريمة مستقاة من التكاليف ، مما يقضى على نوازع الشك والتردد ، ولم يبق في قلب المؤمن مجال لشك ولا محل لوسوسة .

وقد كان الشيطان يفر من طريق عمر رضي الله عنه .

أما الذي كنت سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فقوله : لقد علمنا الله كيفية اتقاء العدو من الإنس ومن الجن .

أما العدو من الإنس ففي قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة

ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه
ولى حميم).

فدل على أن مقابلة إساءة العدو بالإحسان إليه تذهب عداوته ،
وتكسب صداقته ، كما قال تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن)
السيئة .

وأما عدو الجن ففي قوله تعالى : (ولما ينزغتك من الشيطان
نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .

وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع
ذكر الله .

وعلى قوله رحمه الله : فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه بالله ،
ويكفيه ذلك ، لأن كيد الشيطان كان ضعيفا .

أما شيطان الإنس فهو في حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه ،
كما يرشد إليه قوله تعالى : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها
إلا ذو حظ عظيم)

رزقنا الله تعالى وجميع المسلمين حظاً عظيماً في الدنيا والآخرة ،
لأنه المستول ، وخير مأمول .

روى ابن كثير حديث أبي سعيد رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يتعوذ من أعين الجن والإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما » رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وروى عن عبد الله الأسلمى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال « قل : فلم أدر ما أقول . ثم قال لى : قل . فقلت : هو الله أحد ، ثم قال لى : قل . قلت : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق حتى فرغت منها ، ثم قال لى : قل . قلت : أعوذ برب الناس حتى فرغت منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا فتعوذ . وما تموذ المتعوذون بمثلهن قط . »

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله وسلم على أفضل خلقه وأكرمهم عليه ، من اصطفاه لرسالته وشرفنا ببعثته ، وختم به رساله وكرمنا به وهدانا لاتباعه : وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعلينا معهم أجمعين . إنه سميع مجيب .

حاتمة

نسأل الله حسنها

ورحم الله مشائخنا ووالدينا ، وجزى الله عنا والدنا وشيخنا الشيخ
محمد الأمين أحسن الجزاء ، وعن أضيائه حسن الضياء وحلل البهاء .
وجزى الله بالإحسان كل من ساهم في إكمال هذه للقطعة ، بتوجيه
أو إرشاد أو دلالة على إحالة ، أو غير ذلك حساً أو معنى ، ومن
يساعد على إظهاره ونشره ، وأن يجعل عملنا ، وعمل من عمل معنا
خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله لنا ولشيخنا رحمه الله من الآثار
التي تكتب لنا من بعدنا ، وأن يعم نفعه ، ويعظم لنا أجره ، ولن
انتفع منه ، إنه جواد كريم . والحمد لله رب العالمين .

وقد كان الفراغ منه في آخر يوم من رمضان المبارك سنة ست
وتسعين وثمانمائة وألف ١٣٩٦ هـ من هجرة من له كمال العزة والشرف ،
في المدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

اعتذار

إن ما أوردناه وما يورده الآخرون من وجهات نظر ، إنما هو بحسب ما يظهر من نسق السياق ، ومنطوق الكلام ومفهومه استنتاجاً واستظهاراً . ولا يحق لقائل أن يقول : من أجل ذلك كان على ما كان ، وكما قال ابن القيم رحمه الله : وأمرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر ، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن سبه بادية إلى الخافي يسير

لطفاً

أذكر الفارئ الكريم بما ذكرته في مستهل التقديم ، من أنه جهد المقل ووسع الطاقة ، والخطأ لازم والمصمة ممنوعة والتحصيل متفاوت ، فمن اطلع على خلل سدده وأصلح خطاه ، ومن رأى نقصاً أكمله لا إظهاراً لنقص ولا تظاهراً بعلم ، ولكن ابتغاء لوجه الله ، فله منى حسن الثناء ، ومن الله أحسن الجزاء .

شكر وتقدير

وإن من الواجب على تقديم الشكر الجزيل والاعتراف بالجميل ، لكل من له على اليد في هذا العمل الفاضل ، وأخص أولاً فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله ، على ما كان منه من حرص وتأکید على إتمام هذا الكتاب ، وفاء بحق الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه ، ورجاء إتمام النفع ، وعلى ما أولاني من نصح وتكليف بهذا العمل فشرفت به ، وقد بذل الكثير من وقته ، وقرأت عليه في بادئ الأمر بعض النماذج لما كتبت فاستحسنها وشجع على المضي مسعياً بالله تعالى ، وعلى مساعيه الحميدة في نفاذ طبعه على النحو السابق أجزل الله له المثوبة .

كما أشكر الجهة التي تبذل الكثير لإتمام الطبع مع عدم الرغبة في الإعلان عنها ، فرحم الله من مات ، وأكرم الله من بقى ، وكذلك للأخوين الجليلين الشيخ محمد بن سيدى بن الحبيب والشيخ محمد الأمين ابن الحسين ، وهما من أخص تلاميذ الشيخ رحمه الله ، وكاتباً للأضواء في حياته ، وهما اللذان كانا يقومان بالمقابلة مع الشيخ رحمه الله تعالى ، إذا استمرا معى بنفس العمل في هذه القيمة المباركة ، فأسديا لى أعظم المساعدات في التبويض والتصحيح والمراجعة والمناقشة ، وفيما يحال

عليه من الأضواء ، إذ هما بحق أوسع من عرفت استيعاباً للأضواء
وبإحالاته ، وأكثر سماعاً من الشيخ نفسه في حياته ، فجزاها الله
عني وعن القراء الكرام أحسن الجزاء .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء
 والمرسلين ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأود أن يعلم أنه توجد آيات من موضوع الكتاب لو أعيد
اللفظ لتناولها البحث . ولكن هذا شأن التجربة الأولى في أغلب
الأمور ، ولقد كان هذا العمل من الشيخ رحمه الله تجربة ناجحة من
عالم مستوعب والفضل للأسبق .

يلي هذا إن شاء الله رسالة في النسخ والمنسوخ موجزة جداً .
أصلها أبيات للسيوطي رحمه الله ، عشرة أبيات . أوجز فيها خلاصة
ما ثبت نسخه وشرحها الشيخ رحمه الله ، كنت درستها عليه
وأعطانيها بخطه فبيّضها وصححتها عليه ، فلهذهما لقوة ارتباطهما
بالتفسير .

ثم رسالة منع جواز المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز ، كان
رحمه الله كتبها رداً على مناقشات أثبتت حول آيات الصفات ،

وما يدور فيها من نقاش بين مذهبي السلف والخلف ، وإيمانها على حقائقها من غير تأويل ولا تمطيل ولا تشبيه ولا تمثيل . وبين صرفها عن حقائقها بنوع تأويل على أسلوب المجاز في اللغة العربية على ما هو متعارف .

فكان القول بالمجاز في اللغة أقوى موجب للتأويل في آيات الصفات . فكانت هذه الرسالة لهذا الموضوع ، وكان الفرض منها هو الحفاظ على آيات الصفات من إدخال المجاز ، وعمدة ما فيها أن المجاز ، وإن كان أسلوباً لغة ، فليس كل مجاز لغة جاز قرآن ، وساق نماذج قل أن توجد إلا في هذه الرسالة .

ثم دفع إيهام الاضطراب عن أى الكتاب :

وهذا الكتاب من أخص ما كتب في علوم القرآن وموضوعه : الجواب عن كل ما يوهب تعارضاً أو اضطراباً بين بعض آيات القرآن مع بعض ، وهذا وإن كان موضوعه من حيث هو موجود ، كفردات ترد في محالها من التفسير ، إلا أنها لم يوجد فيها كتاب قد تنبها في القرآن كله وجمعها في محل واحد يسهل تناوله ، بل ولا يوجد التنبيه على كل ما جاء فيه في عمومات التفاسير .

وقد كان سببه سؤال عند الدرس عن مدى التوفيق بين قوله

تعالى : (وقفوهم إنهم مسئولون . ما لكم لا تناصرون) مع قوله تعالى :
 (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) فأجاب رحمه الله باستفاضة ،
 وذكر لها أمثلة عديدة ، فسأله عن تأليف فيها فقال : لا أعلمه ،
 فكان رجائي منه أن يؤلف فيه لنفع المسلمين فوعد خيراً ثم فعل ، وقد
 تتبع هذا النوع في القرآن من أوله إلى آخره

وهو أيضاً تجربة أولى موفقة ، ولو أعيدت كتابته فإن في القرآن
 بعض مواطن من موضوع الكتاب

ثم فهرس الكتاب : ومنها فهرس فقهي لمواضيع الفقه للوجود
 في مواضع متفرقة في جميع أجزائه ، قد جمعت مرتبة على أبواب الفقه ،
 ومبين مرجع كل مسألة في أي جزء ، وعند أي آية ، ليسهل تناولها
 والاستفادة منها

وكان رحمه الله قد اطلع عليه إلى الجزء الخامس والسادس فاستحسنه ،
 ولم يمانع في طبعه مع الجزء الأخير من الكتاب .

ثم بعض تقارير ونعي للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه شعراً
 من بعض أبناء .

ثم ترجمة لحياته العلمية ، لما فيها من مثل عليا في الجد والتحصيل ،
 وبالله تعالى التوفيق .

وقد وجدت للشيخ رحمه الله مؤلفات مخطوطة أخرى .

منها : في الفقه المالكي .

ومنها : في المنطق .

ومنها : في الفرائض .

ومنها : الرحلة ، وتسجيله حوادث الطريق ومحادثاته العلمية والأدبية مع من لقي من العلماء والأدباء في طريقه من بلده إلى المدينة المنورة ، والكل في محاله ، لطبعه إن شاء الله .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخاتم رسله سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

عطية محمد سالم

بيان الناسخ والمنسوخ

من آى الذكر الحكيم

كتبها فضيلة الوالد الشيخ الأمين رحمه الله على أبيات للسيوطى فى الإتيقان
ونقلتها عن خطه وقرأتها عليه

نص الأبيات من الإتيقان :

قد أكثر الناس من المنسوخ من عدد	وأدخلوا فيه أباليس تنحصر
وهاك تحرير أى لأمزيد لها	عشرين حررها الخذاق والكبر
أبى التوجه حيث المرء كان وأن	بوصى لأهليه عند الموت محضر
وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث	وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صح من أثر	وفى الحرام قتال للأولى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها	وأن يدان حديث النفس والفكر
والخلف والحبس للزانى وترك أولى	كفر وإشهادهم والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أو لزانية	وما على المصطفى فى المقد محظر
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجر	واه كذلك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان من ملكة	وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

شرحها الشيخ رحمه الله بقوله :

١ - قوله : « أى التوجه » ، يشير إلى أن قوله تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) منسوخة على رأى ابن عباس بقوله تعالى : (قول وجهك شطر المسجد الحرام) .

٢ - وقوله : « وأن يوصى لأهليه » : أشار به إلى أن آية (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية) الآية . منسوخة . قيل بآية المواريث ، وقيل بحديث : « لا وصية لوارث » ، وقيل : بالإجماع . حكاه ابن العربى .

٣ - وقوله : « وحرمة الأكل بعد النوم مع رفق » يشير إلى أن آية (كتب عليكم الصيام) المتضمنة حرمة الأكل والجماع بعد النوم كما فى صوم من قبلنا منسوخة بآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفق إلى نسائكم) .

٤ - وقوله : « وفدية لمطيق » يشير إلى أن آية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) منسوخة بآية (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقيل محكمة و « لا » مقدره ، يعنى : وعلى الذين لا يطيقونه .

٥ - وقوله : « وحق تقواه » يشير إلى أن قوله تعالى : (اتقوا

الله حق تقاته (منسوخ بقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) ، وقيل :
محكمة .

٦ - وقوله « وفي الحرام قتال » يشير إلى أن قوله تعالى :
(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) وقوله : (ولا الشهر
الحرام) منسوخان بقوله تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة) الآية .
أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة .

٧ - وقوله « والاعتداد بحول مع وصيتها » يعني أن قوله تعالى
(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم) الآية ،
منسوخ بقوله : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن
بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) .

٨ - قوله : « وأن يدان حديث النفس والفكر » يشير إلى
قوله تعالى : (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ،
منسوخ بقوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

٩ - قوله : « والحنف » أى المحالفة ، يشير إلى قوله تعالى :
(والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصابهم) منسوخة بقوله تعالى :
(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) الآية .

١٠ - وقوله « والحبس للزاني » يشير إلى أن قوله تعالى :

(فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت) منسوخ بقوله تعالى :
(فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) .

١١ - قوله « وترك أولى كفر » يشير إلى قوله تعالى : (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) منسوخ بقوله تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) .

١٢ - وقوله : « وإشهدهم » يشير إلى أن قوله تعالى : (أو آخران من غيركم) منسوخ بقوله تعالى : (واشهدوا ذوى عدل منكم) .

١٣ - وقوله « والصبر » يشير به إلى قوله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) الآية . منسوخ بما بعده وهو قوله تعالى : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) .

١٤ - قوله « والنفر » يشير إلى أن قوله تعالى : (انفروا خفافاً وثقالاً) منسوخ بقوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) أو (ليس على الأعرج) الآية ، أو قوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية .

١٥ - قوله : « ومنع عقد لزان أو لزانية » يشير إلى قوله

تعالى : (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) الآية ، منسوخ بقوله تعالى : (وانكحوا الأيامى منكم) .

١٦ — وقوله : « وما على المصطفى في العقد محذور » يشير إلى قوله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ..) الآية . منسوخ بقوله تعالى : (إنا أحلنا لك أزواجك) الآية .

١٧ — قوله « ودفع مهر لمن جاءت » يشير إلى أن قوله تعالى : (فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا) منسوخ ، قيل بآيات السيف ، وقيل : بآيات الغنيمة .

١٨ — وقوله « كذلك قيام الليل » يشير إلى أن قوله (يا أيها المزمل قم الليل) منسوخ بقوله تعالى : (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقروا ما ينسر من القرآن) وبقوله تعالى : (فاقروا ما ينسر منه) . وهذا الناسخ أيضاً منسوخ بالصلوات الخمس .

١٩ — وقوله « وآية نجواه » يشير إلى أن قوله تعالى (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » منسوخ بقوله تعالى : (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) وبقوله : (فإن لم تفعلوا وتاب الله عليكم) .

٢٠ — قوله « وزيد آية الاستئذان مما ملكت » . آية الاستئذان

(ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والأصح فيها عدم النسخ ، لكن تساهل الناس بالعمل بها .

٢٩ — « وآية القسمة » (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) والصحيح فيها أيضاً عدم النسخ

ومثال نسخ الناسخ آخر سورة المزمل ، فإنه منسوخ بفرض الصلوات الخمس . وقوله : (انفروا خفافاً وثقالاً) فإنه ناسخ لآية الكف ، منسوخ بآية العذر .

* * *

تمت بحول الله رسالة فضيلة الشيخ محمد الأمين المختصرة في بيان أبيات السيوطي الرمزية تقريباً في هذا الفن . وهي على إيجازها واختصارها كافية شافية للطالب الدارس . أملاها عليّ فضيلته في ذي الحجة سنة ١٣٧٣ هـ

أما المدرس والباحث المدقق والمناقش للأقوال فإن هناك المطولات لقيمة للبحث لبيان إثبات النسخ على منكره ، وبيان حكمة النسخ وبيان أقسامه ، وقوة الناسخ من كتاب أو سنة ، ومراتبه من شدة إلى ضعف والعكس . إلى غير ذلك .

قهرين

الجزء الثاني من التتمة والتاسع من الأضواء

الصفحة	الموضوع
	قوله تعالى (عم يتساءلون)
٥	أصل عم ومعناها والقرآن فيها
٦	الخلاف في النبأ العظيم المسأل عنه وبيان الراجع من سياق القرآن
٨	قوله تعالى : (كلا سيعلمون) وبيان أنهم علموا بموجب الأدلة القاطعة
٩	» » (ألم نجعل الأرض مهاداً) أدلة النبأ العظيم وهي أحد أدلة البعث
٩	» » (وجعلنا نومكم سباتاً - إلى - معاشاً) إحالة على ماتقدم في الفرقان
١٠	» » (وبنينا فوقكم سباً شداداً) إحالة على ماتقدم في ق
١٠	» » (يوم ينفخ في الصور) بيان حال تلك الأفواج وفيه أثر عتمان مطولا
١١	» » (وسيرت الجبال فكانت سراباً) إحالة على ماتقدم في طه والنمل
١٢	» » (لا بشئ فيها أحقاباً - إلى - وغساقاً) فيها مبحث فناء النار وقد ناقشها الشيخ رحمه الله في دفع الإيهام
١٣	» » (وكل شئ أحصيناه كتاباً) والمراد بالشئ هنا وبيان سعة علم الله بالجزئيات .
١٤	» » (إن للمتقين مفازاً) بينه ما بعده حدائق وأعناناً .. الخ
١٤	» » (عطاء حساباً) والمقارنة جزاء وفاقاً وعطاء حساباً
١٥	» » (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) الخلاف في معنى الروح هنا وبيان الراجع

١٦ قوله تعالى (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن) وبيان السبب في منعهم عن الكلام إلا بإذن

١٦ قوله تعالى (ذلك اليوم الحق) بيان ذلك اليوم

١٧ » » (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) بيان المسآب والمراد من التخيير

١٨ » » (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً)

١٨ » » (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) بيانه قوله تعالى . (يوم تجد كل

نفس ما عملت ..)

سورة النازعات :

٢١ قوله تعالى (والنازعات) بيان النازعات والزرع وما بعد النازعات هنا

٢٢ » » (والناشطات نشطا) والفرق بين النازعات والناشطات

٢٣ » » (والسابحات سبحاً - إلى - سبقاً) الخلاف فيها وبيان الراجع

٢٤ » » (فالمدبرات أمراً) والمراد منها ومناقشة الفخر الرازي في أنها أرواح

٢٤ » » (يوم ترجف الراجفة) وتقدم في يس عند (ونفخ في الصور)

٢٥ » » (يقولون أئنا لمردودون في الحافرة) وبيان الحافرة والراجع فيها

٢٦ » » (أئذا كنا عظاماً نخرة) معنى نخرة لغة ونظيرها هذا الاستنكار منهم

٢٧ » » (هل أتاك حديث موسى) بيان هذا الحديث ومكانه وإحالة على

(ونادياها من جانب الطور الايمن) في سورة مريم وبيان ذلك

في غيرها من السور

٢٩ وضع القرآن المنهج المتكامل للدعوة إلى الله

قوله تعالى (فأراه الآية الكبرى فكذب وعصا) جمع فرعون بين التكذيب

والعصيان . وتقدم بيانه في سورة القمر عند (ولقد جاء آل فرعون النذر)

٣٠ قوله تعالى (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) بيان الراجع في الخلاف في

المراد بالآخرة والأولى

٣١ قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء) والجواب عليهم بأن خلقها أكبر
 ٣٢ » » (بناها رفع مكمها فسواها) تقدم عند (أفلم ينظروا إلى السماء
 فوقهم) في سورة ق

قوله تعالى (والارض بعد ذلك دحاها - إلى - أرساها) المراد بدحاها ،
 وقضية كروية الارض .

٣٣ الدحو لغة البسط ، والادلة عليه مطولة

٣٧ أقوال أهل الهيئة في شكل الارض وأنها كرة . يكور الليل على النهار ..

٤٠ الدليل العقلي على كروية الارض

٤٠ ثبوت كروية الارض عن طريق النظر لا عن طريق النص من القرآن

٤٢ الإجابة على النصوص التي ظاهرها أنها سطع منبسط

قوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية) الآية . معنى العشية وضحاها

وتقدم في يونس عند (ويوم يحشرهم كان لم يلبثوا إلا ساعة من نهار)

وفي دفع الإيهام

سورة عبس :

قوله تعالى (عبس وتولى) سبب نزولها والتصريح بالاعمى ليس تنابذا

بالالاقاب وبيانه في دفع الإيهام

٤٩ تنبيه : على جواز ذكر مثل هذا الوصف عند الحاجة والسر في ذكره هنا

٥٠ علاقة ذلك بالامة وبمكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم

٥٧ قوله تعالى (أما من استغنى فأنت له تصدى) الآية . بيان حرصه صلى الله عليه

وسلم على إسلام الجميع

٥٣ قوله تعالى (كلا إنها تذكرة - إلى - بررة) ذكر المشتبه بتهديد لا تخيير

٥٤ » » (قتل الإنسان ما أ كفره) ما أفعله هنا أفعل تفضيل أم تعجب ؟

٥٤ قوله تعالى (ثم السبيل يسره) المراد بالسبيل هنا وتيسيره

٥٥ » » (فلينظر الإنسان إلى طعامه) ربط خلق الإنسان بإنبات النبات

والرد على الشيوعيين والطبعيين فيقال لهم (قتل الإنسان ما أكفره) .
الآية . وتقدم بيان خلق الإنسان في مواطن متعددة في الرحمن والجاهلية ،
والواقعة .

٥٧ قوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) المراد بيومئذ وموجب
الاستبشار وتقدم بيانه في سورة الحديد
سورة التكاوير :

٦١ قوله تعالى (إذا الشمس كورت) الخلاف في كورت ، وموقف ابن جرير
وبيان الراجح من الكتاب والسنة

٦٢ قوله تعالى (وإذا النجوم انكدرت) الخلاف فيه وبيانه من القرآن
» » (وإذا الجبال سيرت) تقدم في سورة طه (ويسألونك عن الجبال)
وفي الكهف (ويوم نسير الجبال)

٦٣ قوله تعالى (وإذا المؤودة سُئلت) كيف يوجه السؤال إليها وهي لاعلم لها
ولا ذنب . مناسبة ذلك بمنع الحمل الذي فشا في الناس اليوم وأحاديث العزل
٦٤ أسباب الواد في الجاهلية والرد عليهم

التحذير من هذه الدعوة اليهودية أساساً باسم الاقتصاد

٦٥ تنبيه : حول دعاة تحرير المرأة .

٦٨ قوله تعالى (وإذا الجحيم سعرت) تقدم عند : (ومن الناس من يجادل
- إلى - عذاب السمير) في سورة الحج

قوله تعالى (وإذا الجنة أزلقت) قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت)

قوله تعالى (فلا أقسم بالحنس - إلى رسول كريم) هل هو قسم أو غير
قسم . وتقدم عند (لا أقسم بيوم القيامة)

٦٩ تنبيه : الفرق بين إقسام الله وإقسام الخلق . والمناسبة بين كل ما أقسم الله به
والمقسم عليه وهو مبحث مطول .

٧٤ قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) وبيان المراد بالقول وبالرسول الكريم .

٧٥ تنبيه : على قوة سند اتصال القرآن ووصوله إلينا جبريل عن الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم

٧٦ قوله تعالى (ماتشاؤون إلا أن يشاء الله) : هذه أساس في الإيمان بالقدر .
وتقدم للشيخ في الزخرف (لو شاء الرحمن ما عبدناهم) والنداريات
٧٧ تنبيه : حول القضاء والقدر

٧٨ تنبيه آخر : بيان الاستقامة في سورة الفاتحة .

سورة الانقطار :

٨١ قوله تعالى (إذا للسما انقطرت) بيان انقطارها وتقدم في الشورى عند
(السماء منقطر به)

قوله تعالى (وإذا القبور بعثرت) أى بعث من فيها

٨٢ » » (علمت نفس ما قدمت و خرت) بينه الشيخ في دفع الإيهام

» » (الذى خلقك فسواك فعدلك) تقدم في الكهف (ثم سواك رجلاً)

٨٣ قوله تعالى (وإنا عليكم لحافظين) تقدم في ق عنه (ما يلفظ من قول إلا
لديه رقيب هتيد) وفي الانعام عند (ويرسل عليكم حفظة) .

٨٤ توجيه لحسن اختيار كتبة ولاية الامور

قوله تعالى : (إن الأبرار لفي نعم) وبيان أنه دائم وهم مخلدون فيه

٨٥ » » (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً) الآية . وبيان السبب والنصوص فيها
سورة المطففين :

٩١ » » (ويل للمطففين) سبب نزولها وعلاقتها بالربا

٩٢ ذكر الوفاء في الكيل مقروناً بمباداة الله وحسنه في عدة مواطن مما يبين
الاهتمام به وبيان ذلك

- ٩٥ تعميم وشمول معاني الكيل والوزن - ربط الميزان بالكتاب في إقامة المدلة
- ٩٦ ربط هذه السورة بما قبلها
- ٩٧ قوله تعالى (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) وسبب جرأتهم على التطفيف
- ٩٨ السر في قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) بدلا من مثل ليوم الحساب
- ٩٩ أعرابي يحذر عبد الملك بن مروان
- تنبيه : بعض حيل أصحاب الكايل والموازين في التطفيف مما ينبغي أن تمنى بمراقبة البلديات والمسؤولون
- ١٠١ تنبيه آخر : حكم من يبيع برخص ليضر غيره والعمل على حفظ الأسعار
- ١٠٢ « آخر : نوع الكيال والميزان يرجع اختياره للإمام
- ١٠٣ غريبة في المنام
- قوله تعالى (كلا بل ران) الآية . معنى ران لغة والقرآن في الآية . وتقدم في الكهف عند (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه)
- ١٠٥ قوله تعالى (ختامه مسك - إلى - للتنافسون) : عود على بدء السورة وبيان محل التنافس حقاً
- ١٠٥ قوله تعالى (إن الذين أجمعوا - إلى يتغامزون) وبيان أن هذا الوصف مشترك بين جميع الأمم
- ١٠٦ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في سورة البقرة عند (ويسخرون من الذين آمنوا)
- ١٠٧ تنبيه : على كل داعية إلى الله أن يتأسى بالرسول ولا يبالى بسخرية الجاهل
- قوله تعالى (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) فيه رد على سخرية الكفار منهم في الدنيا . وإحالة على كلام الشيخ في سورة المؤمنون عند (إنهم جزيتهم اليوم بما صبروا)

سورة الانشقاق :

١١١ قوله تعالى (إذا السماء انشقت) مقدم في الانفطار وللشيخ في الشورى وق
قوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) تقدم مادة الإذن في الجمعة ، وبيان أن
المعنى هنا سمعت وإطاعة حقيقة لا مجازاً ولا دلالة

١١٢ قوله تعالى (وإذا الأرض مدت) فيها بيان كيفية مد الأرض آنذاك .

١١٣ » » (وألقت ما فيها ونخلت) بيان ما فيها من الكنوز أو الموتى ،
وما نخلت عنه

١١٤ قوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) تقدم .

» » (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقية) وبيان المراد
بالإنسان العموم أو شخص ومن هو

١١٥ تنبيه : فيما ينبغي أن يكون الكدح فيه

» آخر : على شمول الكدح وعموم الإنسان .

١١٦ قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه يمينه — إلى — لن يحور) فيها بيان
نتيجة الكدح

١١٨ لا يجمع الله على العبد خوفين ولا أمينين ، فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة .

١١٩ قوله تعالى (فلا أقسم بالشفق — إلى — عن طبق) معاني الشفق لفة وشرعاً وتقدم .

١٢٠ كلام الشيخ رحمه الله في بيان مواقيت الصلاة عند (فسبحان الله حين
يمسون) صعود الحليل منارة الإسكندرية ليتحقق غياب الشفق الأبيض

١٢١ قوله تعالى (والليل وما وسق والقمر إذا انشق)

١٢٢ » » (لتركبن طبقاً عن طبق) القراءات فيها ، وبيان المراد منها هل هو
في الدنيا أم في الآخرة

١٢٣ الربط بين المقسم به والمقسم عليه

١٢٤ قوله تعالى (إلا الذين آمنوا - إلى - غير ممنون) معنى المن هل هو القطع أو الانعام
سورة البروج :

١٢٩ قوله تعالى (والسما ذات البروج) اختلف فيها هل هي المنازل أو البروج أو
غير ذلك وربطها بما قبلها وتقدم ، ذلك في سورة الحجر عند (ولقد جعلنا
في السماء بروجاً) وفي سورة الفرقان عند (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً)

١٣٠ قوله تعالى (واليوم الموعد) : دلالة النصوص على أنه يوم القيامة

١٣١ » » (وشاهد ومشهود) . تعدد الأقوال في المراد منها والجمع بين
تلك الأقوال وهو مبحث مطول في أنواع الشهادات

١٣٦ تنبيه : في ربط هذه الآية بالمدالة والقضاء

١٣٧ قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود للنار ذات الوقود) الخلاف فيها هل هي
جواب القسم أم لا ، وهل هي جملة جبرية أم هي إنشائية دعاء عليهم

١٣٨ قوله تعالى (النار ذات الوقود) : الخلاف في المراد بها وبيان الراجع من
السنة

١٤١ بيان ما يؤخذ من القصة من حال الساحر والكاهن نحو عشرين مسألة

١٤٤ قوله تعالى (إذ هم عليها قومود) الخلاف في مرجع الضمائر في هم وعليها .
وقمود .

١٤٥ قوله تعالى (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) فسر . قوله تعالى : قومود
وبيان السرفيه .

قوله تعالى (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) شاهد على
ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم وبيان عمومته أو خصوصه بأصحاب
الأخدود .

١٤٦ السر في التذييل لهذا السياق بصفي العزيز الحميد .

١٤٧ قوله تعالى (الذي له ملك السموات والأرض) تأكيد لما قبله ولمعنى العزة

- قوله تعالى (والله على كل شيء شهيد) ربط بقوله وشاهد ومشهود
 » (إن الدين فتنوا المؤمنين - إلى - ثم لم يتوبوا) . بيان المراد
 بالدين فتنوا ومعنى الفتنة هنا
- ١٤٨ قوله تعالى (إن بطش ربك لشديد) بيان بالمفهوم من العزيز الحميد .
 » (إنه هو يبدى ويعيد) بيان المراد بإبدائه وإعادته أهو الإنسان
 بدأ خلقه ويعيده بالبعث ، أو المذاب يبدأه ثم يعيده عليهم .
- ١٤٩ قوله تعالى (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود) بيان المشابهة في
 للقصتين أى فرعون وصاحب الأخدود، لوجود السحر والطفيان والتكذيب
 والتعذيب
- ١٥١ قوله تعالى (بل الذين كفروا في تكذيب) .
 والفرق بين يكذبون هنا وفي تكذيب هناك في الانتظار لمرعاة المعنى
 لا لرؤوس الآي كما قال البعض .
 سورة الطارق :
- ١٥٤ قوله تعالى (والسماء والطارق) الطرق لغة . والمراد بالثاقب وتقدم في
 سورة النجم في أولها .
- قول سفيان : كل ما في القرآن وما أدراك فقد أخبره بها . وكل وما يدريك
 لم يخبره به . وبيان أن ذلك هو الغالب وقد جاءت وما أدراك ثلاث عشرة
 مرة ، كله أخبره بها صراحة إلا في الحاقة ما الحاقة .
- ١٥٧ تنبيه : يلاحظ أنها كلها في قصار السور، ومن الحاقة فما بعدها. أما ما يدريك،
 فهي في القرآن ثلاث مرات فقط . وبيان مواقعها
 تنبيه آخر : حول السر في الإقسام بالسماء والنجم الطارق .
- ١٥٨ قوله تعالى (إن كل نفس لما عليها حافظ) هل حافظ لذاتها أو بحفظ
 أعمالها عليها

قوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق) لفظ الإنسان عام مخصوص منه آدم،
وحواء وعيسى ، لأنهم لم يخلقوا من ماء دافق

وتقدم عند قوله (خلق الإنسان من نطفة) في النحل وفي الواقعة وتقدم
في الدهر .

١٥٩ قوله تعالى (إنه على رجهه لقادر) الخلاف في المراد برجهه وترجيح المراد
هل هو الماء الدافق واللبن إلى الضرع والمولود إلى الرحم . أو الإنسان
يوم البعث .

١٦١ قوله تعالى (يوم تبلى السرائر) تقدم للشيخ رحمه الله عند (هنالك تبلى كل
نفس ما أسلفت) وسيأتي عند (وحصل ما في الصدور) في العاديات
وفيها اشتغالها لإمارة التكليف الخفية كالطهارة والصوم والزكاة

١٦٢ قوله تعالى (فماله من قوة ولاناصر) وبيان حالة ضعفه في صور مختلفة
» » (والسماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع) والخلاف فيهما
وبيان الراجع في القرآن

١٦٣ قوله تعالى (إنه لقول فصل) قيل حق وقيل عدل وقيل تهديد ، وبيان
الراجع

١٦٤ قوله تعالى (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا) نسبة ذلك إلى الله من باب
المقابلة وبيان أنه مما لا يشتق منه اسما ولا يطلق مفردا

١٦٥ إطلاق العرب السكيد بمعنى السكر

١٦٦ قوله تعالى (فهل الكافرين أمهلهم رويدا) بحثه الشيخ في دفع الإيهام ،
وبين أنه منسوخ، وقد عارض بعض المعاصرين النسخ مع أنه في الآية الإشارة
بقوله : رويدا أي قليلا .

سورة الأعلى :

١٧١ قوله تعالى (سبع اسم ربك الأعلى) تقدم معنى التسبيح . ولكن هنا بيان

المراد بالتسبيح هل هو تسبيح الله وتسبيح أسمائه ، ومسألة الإسم والمسمى ومبحث مطول

- ١٧٦ قوله تعالى (الذى خلق فسوى) للعموم والشمول
» » (والذى قدر فهدى) بيان لما قبله في تسوية الخلق بالتقدير .
- ١٧٧ من لوازم الخلق التقدير وهو مما استدل به موسى على فرعون لقدرة الله تعالى ولوجوده .
- ١٧٧ قوله تعالى (منقرؤك فلا تنسى) تقدم للشيخ رحمه الله في طه عند (ولا تمجل بالقرآن) .
- قوله تعالى (فذكر إن نعمت الذكرى) هل إن بمعنى إذا أو شرطية وما يتربط عليه .
- قوله تعالى (سيدكر من يخشى) تقدم للشيخ رحمه الله بيان الحكمة من الذكرى عند (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) في الذاريات .
- ١٧٩ قوله تعالى (ويتجنبها الأشقى الذى صلى النار الكبرى) . في لفظ الأشقى إشعار لعلة تجنبه الذكرى أى لشقائه .
- قوله تعالى (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) هذه الحالة من خصائص يوم القيامة لأن فيها سلب النقيضين ، وهذا فى الدنيا محال . وتقدم فى طه عند (إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى)
- قوله تعالى : (قد أفصح من تزيكى وذكر اسم ربه صلى) .
- ١٨٠ إحالة على كلام الشيخ فى سورة النور عند (ولولا فضل الله عليكم) .
- ١٨٠ قوله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا إلى موسى) القراءة فى تؤثرون بيان سبب هذا الإيثار .
- ١٨٣ قوله تعالى : (إن هذا لى للصحف الأولى) المراد باسم الإشارة أى للإشار إليه . وبيان موضوع صحف إبراهيم ما هو .

سورة الفاشية :

١٨٧ قوله تعالى: (هل أتاك حديث الفاشية - إلى - من جوع) تحقيق معنى هل الخلاف في معنى الفاشية ، والراجح من المراد منها وأنها في عموم أحوال القيامة تنشى الناس .

١٨٩ قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) الآيات . وبيان العمل والنصب ، وهل هو في الدنيا أو في الآخرة . وعلاقة الآية بالعمل البدعى وغير المشروع .

١٩٢ كلام ابن تيمية رحمه الله مفصل في هذا الموضوع .

١٩٥ وجه آخر في هذه المسألة .

١٩٦ قوله تعالى : (تسقى من عين آنية) . الخلاف في معنى آنية .

» » (ليس لهم طعام إلا من ضريع) يأتى للشيخ رحمه الله في دفع الإيهام .

١٩٧ سؤال للفخر الرازى وجوابه عليه . الرد على من يجعل فيها شبهة .

١٩٨ قاله تعالى : (وجوه يومئذ ناعمة - إلى - وذراى مبثوثة) . فى هذا بيان لتقسيم ما تقدم . مقارنة بين القسمين .

٢٠٠ تنبيه : تكرار كلمة فيها مرتين للدلالة على قسمى النعم بعين جارية وبسرر مرفوعة .

قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت - إلى - مذكر) ،

٢٠١ بيان الارتباط بين هذه المسميات الأربعة الإبل والسماء والجبال والأرض .

٢٠٢ كلام الشيخ على خلق السموات والأرض .

بيان الجمع بين سطحت وبين ما تقدم من أنها كروية الشكل .

٢٠٣ تنبيه : بيان كيف وجه النظر هنا بكيف خلقت . والكيف لم يشهدوه .

٢٠٤ أبيات زيد بن عمرو مؤمن الجاهلية ... وأسدت وجهى لن أسلت ...

الصفحة	الموضوع
٢٠٥	قوله تعالى : (إن إلينا إيابهم - إلى - حسابهم) . معنى الإياب وما فيه من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم .
٢٠٦	لربط بين مذكر وبين إلينا إيابهم . سورة الفجر :
٢٠٩	قوله تعالى : (والفجر وليال عشر - إلى - إذا يسر) الخلاف في المراد بالفجر الاسم لأولى النهار أم الوصف لكل ما تفجر عن غيره ؟
٢١٠	(الليالى المشر) - الشفع والوتر والخلاف فيه نحواً من عشرين قولاً .
٢١١	تحقيق أنه لا وتر في الكون كله إلا الله .
٢١٢	(والليل إذا يسر) هل هو عام في كل الليالى أم في خصوص ليال منها .
٢١٣	الخلاف في جواب القسم .
٢١٤	قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد - إلى - طغوا في البلاد) . لم يبين هنا كيف فعل بهم . وتقدم بيان ذلك في سورة الحاقة .
٢١٥	للمراد (بإرم ذات العماد) .
٢١٦	التحقيق في أوتاد فرعون وأنها الأهرام على الراجح .
٢١٧	قوله تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه - إلى - كلا) .
٢١٧	قوله تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليقيم - إلى - حباً جمّاً) . بيان فتنة المال عطاء ومنعاً .
٢١٨	قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض - إلى - صفا) هذه الآية من هم يات الصفات وعندها عنده إحالات .
٢١٩	مواضع البحث والنظر وإحالة على كلام الشيخ .
	قوله تعالى : (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) . تقدم للشيخ رحمه الله في الفرقان عند (ويوم يمض الظالم على يديه) .
	سورة البلد :

صفحة	الموضوع
٢٢٣	قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) إحالة على المراد وعلى هذه الالام وعلى دفع الإيهام .
٢٢٤	قوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد) . هل الحل من الحلول والنزول أو الإحلال والتحليل .
٢٢٥	بيان الراجع من هذا والقرائن عليه .
٢٢٦	قوله تعالى (ووالد وما ولد) . بيان أنه على عمومته ومناسبة ما بينه وبين مكة أم القرى .
٢٢٧	قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في كبد) . وتقدم عند (إنك كادح إلى ربك كدحاً) .
٢٢٨	قوله تعالى : (يقول أهلك ما لا لبداً أحسب أن لم يره أحد) . لم يبين أياه أحد ومن الذي يراه ومجىء الجواب مقروناً بالدليل .
٢٢٩	قوله تعالى : (وهديناه النجدين) وبيان النجدين وإحالات فيها .
٢٣٠	قوله تعالى : (فلا اقتحم العقبة) يبين المراد من العقبة بما بينه . وفضل فك الرقبة .
٢٣١	بيان فضل فك الرقاب والرد على من جعل الرق شبهة وإحالة فيها .
٢٣٢	قوله تعالى (يتبما ذا مقربة) . معنى اليتيم في الإنسان والحيوان والطيور .
٢٣٣	أصل اشتقاق الفقير والمسكين والخلاف في الفرق بينهما والراجع فيها .
٢٣٤	قوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا) فيها اشتراط الإيمان صحة العمل وفيها إحالة مصير عمل المشرك في شركه بعد أن يسلم .
٢٣٥	قوله تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) علاقة الرحمة بإطعام الفقير والمسكين .
٢٣٦	سورة الشمس :
٢٣٧	قوله تعالى : (والشمس وضحاها - إلى - قد خاب من دساها) في ذلك يقسم الله سبع مرات بسبع آيات كونية على شيء واحد وبيان ذلك كله مفصلاً .

الصفحة	الموضوع
٢٤٣	تلبيه : تسوية النفس الإنسانية أعظم من خلق الإنسان في جسمه ورزقه وتصريفه في كل شأنه .
٢٤٥	تلبيه : في مجيء ذلك بعد الآيات الكونية من شمس وقمر وليل ونهار وإحالة فيها .
٢٤٦	قوله تعالى : (قد أفلح من زكاهها وقد خاب من دساها) جواب القسم .
٢٤٧	الاختلاف في مرجع الضمير في زكاهها ودساها هل هو إلى الله أم للعبد ؟
٢٤٨	الجمع بين الأقوال فيها .
٢٤٩	قوله تعالى : (كذبت ثمود بطغواها - إلى - فمقروها) . فيه إسناد الانبعاث الواحد وإسناد المقر لهم كلهم ، وبيان ذلك وإحالات فيها .
	سورة الليل :
٢٥٣	قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) تقدم عند (والنهار إذا جلاها)
	قوله تعالى : (وما خلق الذكر والأنثى) ، تقدم الإحالة عليه في سورة النجم ما في قوله (وما خلق الذكر والأنثى) هل هي مصدرية أو بمعنى الذي .
٢٥٥	إثبات أن التذكير والتأنيث بيد الله وسببه من جهة الرجل والمرأة حرف فقط .
٢٥٧	غرائب في التذكير والتأنيث في الشجر .
	قوله تعالى (إن سميعكم لشقى) . هذا جواب القسم .
٢٥٩	بيان المراد بصدق بالحسنى وما يشهد له من القرآن .
٢٦٠	تذبيه : مناقشة لأبي حبان في إirاده على التيسير للعسرى وأنه لا تيسير فيها .
٢٦١	غريبة : عن شخص كان لصاً وتاب في تذوقه للمعصية والحلال .
	غريبة : عن عمر ضد ذلك في نفس المعنى .
٢٦٢	تذبيه : في المقارنة بين من أعطى وبخل في مناقب الصديق وعموم اللفظ .
	قوله تعالى : (وما ينفي عنه ماله إذا ردى) فيه الرد على من بخل وهل ما هنا نافية أم استفهامية .

- ٢٦٣ قوله تعالى : (إن علينا للهدى) والإحالة الذي دفع الإيهام .
 » » (وإن لنا للآخرة والأولى) فسرهُ قوله في الفاتحة (رب العالمين) .
 » » (فأُنذرتكم ناراً تَلَظَّى) ، وصفها هنا بالتَلَظَّى ومناسبتها
 للاشقى المتقدم .
- ٢٦٤ قوله تعالى : (لا يصلاها إلا الآشقى - إلى - يتركى) ظاهره لا يصلاها إلا صنف
 واحد مع عموم ورود والجمع بينهما .
- ٢٦٥ علاقة التصديق بالمال بالتصديق بالبعث .
- ٢٦٧ تنبيه : على قوله (وسيجنبها الآتقى) أنها في أبي بكر رضى الله عنه .
- ٢٦٨ تنبيه آخر : الإجماع على أن ولشوف يرضى هو أبو بكر رضى الله عنه
 وما جاء في حقه صلى الله عليه وسلم (ولشوف يمطيك ربك فترضى) .
 سورة الضحى :
- ٢٧٣ قوله تعالى (والضحى والليل إذا سجى) وفيه إحالة ، وبيان اختيار الشيخ
 ٢٧٤ القراءات في (ودعك)
- ٢٧٥ الراجح في المراد بودعك أهو من الودع والترك أم التوديع ؟
 تنبيه : أنه سبحانه ما ترك رسوله قط ولن يترك .
- ٢٧٨ قوله تعالى (والآخرة خير لك من الأولى) : ظاهره أنها خير له صلى الله
 عليه وسلم فقط ، وبيان أنها خير له صلى الله عليه وسلم ولكل معنى وإحالة
 على كلام الشيخ .
- ٢٧٩ قوله تعالى (ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى) ، هذا من تعداد
 النعم عليه صلى الله عليه وسلم .
- ٢٨٠ قوله تعالى : (ولشوف يمطيك ربك فترضى) ، وبيان ما سيعطيه ربه في
 الدنيا وفي الآخرة .
- ٢٨٢ تنبيه : اللام في ولشوف للتأكيـد وليست للقسم .

الصفحة	الموضوع
	قوله تعالى : (ألم يجدك يتيماً فآوى) ، وبيان ما قيل في اختيار الله اليتيم لرسول الله .
٢٨٣	قوله تعالى : (ووجدك ضالاً فهدى) . الضلال يكون حساً ومعنى . وفيه إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في عدة مواضع أولاً في سورة يوسف .
٢٨٤	رؤيا منامية لأبي حيان في هذه الآية .
٢٨٥	إيراد رؤيا عن سورة ن نذكرها بالمناسبة .
٢٨٦	قوله تعالى : (ووجدك عائلاً فأغنى) . العائل الغنى . وبيان كيف أغناه الله .
٢٨٨	حقيقة الغنى عن النفس . والمقارنة بين الغنى للشاكر والفقير الصابر .
٢٨٩	تنبيه : لطيفة في السياق في أنواع الإسناد والخطاب .
٢٩٠	قوله تعالى : (فأما اليتيم فلا تقهر - إلى - فحدث) ، معنى قهر اليتيم .
	مبحث في النصوص الواردة في حق اليتيم وهي فوق عشرين وهو مبحث مطول .
٣٠٠	تنبيه : ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه .
	قوله تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) ، هل السائل هنا هو المحتاج أم هو المستفسر عن العلم . أم يشمل الجميع .
٣٠٢	التحدث بالنعمة وهي هنا عامة بسبب إضافة .
	سورة الشرح
٣٠٧	قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك - إلى - ورفعنا لك ذكرك) . فيها التقرير على ثلاث مسائل : شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر ، وبيانها كلها .
٣١٣	مبحث عصمة الأنبياء . وتقدم للشيخ رحمه الله في سورة طه عند (وعصى آدم ربه فغوى) وأورد كلام الشيعة والمعتزلة ، ما يتعلق بخصوصه صلى الله عليه وسلم .
٣١٦	بيان (ورفعنا لك ذكرك) .
٣١٨	قوله تعالى : (فإذا فرغت فانصب) ، المراد بالفراغ وبالانصب .
	(٤٦ - أضواء البيان ج ٩)

تنبيه : قراءة شاذة ذكرها الألوسي احتج بها الشيعة والرد عليهم .

٣٢٠ أمثلة من تأويل اللعب

٣٢١ قوله تعالى (وإلى ربك فارغب) التقديم هنا مشعر بالتخصيص كقوله تعالى (إياك نعبد)

سورة التين :

٣٢٥ قوله تعالى (والتين والزيتون - إلى - وهذا البلد الأمين) بيان المراد هل هو التمرة أم مكان إنباتها

٣٢٧ تصحيح ابن القيم أن التمرة هي المقصودة

٣٢٨ الراجح من ذلك كله مما هو من أسلوب القرآن وهذا الكتاب

٣٢٩ قوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) هذا هو المقسم عليه وإحالات على كلام الشيخ رحمه الله

٣٣٢ قوله تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين) المراد بهذا الرد إلى الكبر ويكون عاماً ، أم إلى النار ويكون خاصاً في الكافر .

٣٣٣ بيان الراجح من ذلك

٣٣٤ حفظ القرآن لعقول حفظته عند كبر السن .

٣٣٥ تنبيه : محاولة ربط هذه السورة بأصل الخليقة وإسكان آدم الجنة ثم خروجه منها ثم رد المؤمنين إليها .

٣٣٧ سر لطيف بين المقسم به والمقسم عليه . علاقة هذا بالبلد الأمين

٣٣٨ قوله تعالى (فما يكذبك بعد بالدين) فسر ممالك يوم الدين وبيان له الخطاب قوله تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين) . السؤال للإثبات . ما يقوله من قرأ هذه السورة .

بيان أحكم الحاكمين هل من العدل في الحكم أم من الحكمة في الفعل .
سورة العلق :

٣٤٣ قوله تعالى (اقرأ باسم ربك - إلى - علم الإنسان ما) في هذه الآيات

تسع مسائل مرتبطة بعضها ببعض. ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية فيها حوالى
٢٢٠ صفحة

٣٤٤ بيان المسائل التسع إجمالاً ثم التفصيل

٣٥٣ تنبيه : شرف للتعليم بالقلم

٣٥٤ أقسام القلم فى السنة

٣٥٥ عنايته صلى الله عليه وسلم بالتعليم بالقلم

٣٥٦ من كتاب الوحي الخلفاء الأربعة ذكره ابن القيم رحمه الله

٣٥٧ جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا تعلق له بأصل الدين

٣٥٨ مبحث تعليم النساء القراءة والكتابة

٣٦٢ مسألة فى بيان أولية الكتابة عموماً والعربية خصوصاً الحروف المكتوب بها

الآن فى لغات العالم .

٣٦٣ عدد المعروف من اللغات . تقريباً خطأ الجزم

تنبيه : التعليم بالقلم لا يمنع للتعليم بدون القلم

٣٦٩ قوله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) : لفظ الإنسان عام

لكنه مخصوص وبيان المخصص لها

٣٧٢ بيان أن النفي ليس هو السبب المباشر فى الطغيان ، بل من لطيف الأسلوب

أن رآه ، فقد يرى نفسه استغنى ، وهو غير مستغن .

٣٧٣ قوله تعالى (لئن لم تفته لنسفنا بالناصية - إلى - خاطئة) إحالة على ما تقدم

تنبيه بلاغى فى علاقة ما يسمى بالحجاز للرسول إذا كانت الجزئية .

٣٧٤ قوله تعالى (فاسجد واقترب) والربط بين السجود والاقتراب إلى الله .

سورة القدر :

٣٧٩ قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) الضمير فى أنزلناه

٣٨١ بيان للنزل ليلة القدر ماهو ، وكلام ابن تيمية رحمه الله فى الجمع

بين الأقوال .

٣٨٢ النقاش حول كيفية إنزال القرآن وجواب سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم
بيان عدم التعارض بين الأقوال .

٣٨٤ بيان موضع ليلة القدر أنها في رمضان .

٣٨٥ قوله تعالى (ليلة القدر خير من ألف شهر) . المراد بالقدر هل هو التقدير ،
أم هو الرفعة والشرف ، وكلام الشيخ رحمه الله ، وبيان الراجع من القرآن
وإثبات بقائها ولم ينقها إلا الشبهة .

٣٨٧ تنبيه : تحديدها من رمضان والراجع في العشر الاواخر .

٣٨٨ الراجع من تلك الأقوال كلها والجمع بينها .

٣٨٩ السر في عدم تعيينها .

مباحث متفرقة عن هذه الليلة .

٣٩٠ قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) المراد بالروح هل هو جبريل
أو نوع من الملائكة .

٣٩١ قوله تعالى (من كل أمر) هل هو واحد الأمور ، أم واحد الأوامر .

٣٩٢ قوله تعالى (سلام هي حق مطاع الفجر) معنى السلام هل التحية أم السلامة .
لطيفة : في جعل الليل ظرف المسكرات إنزال القرآن - الإسراء - التهجيد .
سورة البينة :

٣٩٧ أسماء سورة البينة .

قوله تعالى (لم يكن الذين كفروا - إلى - من بعد ماجاءتهم البينة)

بيان الفرق بين المشركين والكافرين

٣٩٩ إحالة على دفع الإيهام ونبهة منه .

٤٠٠ هل الكفر ملة واحدة . وحكم المجوس

الاختلاف في منفيكين اختلافاً كثيراً ، يقيد المفسرون هذه الآية من
أصعب ما في كتاب الله نظماً وتفسيراً . بيان الإشكال فيها - ماجاء عن الشيخ
رحمه الله في إملائه عنها .

- ٤٠٢ وجهة نظر في « منفيين » تحمل هذا الإشكال كله فيما يظهر . كلام الشيخ الإسلام فيها شامل .
- ٤٠٤ تفسير البينة بما قيدها (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .
- ٤٠٥ بيان أنه صلى الله عليه وسلم في شخصية بينة .
- ٤٠٧ فيها كتب بمعنى كتاب أو مكتوب . وبيان المراد بالمكتوب ماهو .
- ٤٠٨ بيان أن الظاهر في كتب على نصها : جمع كتاب .
- ٤٠٩ قوله تعالى « وما تفرق الدين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » لماذا خص أهل الكتاب هنا مع ذكر المشركين معهم أولاً
- ٤١٠ تنبيه على ما تقدم
- ٤١١ قوله تعالى « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » لم يبين أين هذا الأمر المذكور في القرآن أم في كتبهم . بيان أنه في كل منهما .
- ٤١٢ معنى قيمة ، وأن القرآن أقومها .
- ٤١٤ تنبيه : الرد على من يدعو إلى وحدة الأديان ، وبيان أن ما جاء به القرآن هو الدين القيم والذي لا يقبل الله غيره اليوم ،
- ٤١٥ قوله تعالى : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين - إلى - البرية) معنى البرية والقراءات فيها ، تضمنت الآية مسألتين وبيانها ، بيان أن الدواب خير من أولئك لإثبات الإيمان عندها .
- ٤١٧ الحكمة في تصيير البهائم يوم القيامة تراباً دون الكافر .
- ٤١٧ قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) . وفيها مبحث العموم في البرية والتفضيل بين الملائكة ومؤمني الإنس والدليل .
- ٤٢١ بيان حقيقة التفضيل في صدور العمل من كل منهما لا في الذات والماهية .
- ٤٢١ قوله تعالى : (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) الآية . فيها أربع مسائل منها ثلاث مجملات .

- الصفحة الموضوع
- ٤٢٢ قوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) . وبيان هذا الرضوان وزمنه في الدنيا أم الآخرة .
- ٤٢٤ تنبيه : بيان لازم رضوان العبد على ربه .
- ٤٢٥ قوله تعالى : (ذلك لمن خشى ربه) . بيان النتائج المترتبة على مخافة الله .
- ٤٢٩ سورة : « إذا زلزلت » . بيان الزلزال لغة .
- ٤٣٠ إحالة على كلام الشيخ في سورة الجمع عند (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) .
- ٤٣٠ الاختلاف في الإثقال هنا على ثلاثة أقوال : موتاها - كنوزها . ما عمل على ظهرها .
- ٤٣١ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في إملائه أنها موتاها .
- ٤٣٢ قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) . وبيان عموميين فيها الأول « من » والثاني « يعمل » .
- ٤٣٥ فيها التنبيه بالأدنى على الأعلى .
- تنبيه : يتعلق بتفتيت الذرة وأن القرآن سبق إلى الإشارة إلى التفجير النووي والرد على المنطقيين بأن الذرة هي الجوهر للفرد .
- ٤٣٩ سورة والماديات : وإحالة على إملاء للشيخ رحمه الله تعالى ، وقد جمع أقوال المفسرين كلها . بيان نقطة الخلاف في معنى الجمع والذي توسطن به : أهو المزدلفة أو القتال .
- ٤٤٢ القرائن في الآية المأمنة من كونه المزدلفة .
- ٤٤٣ ما يفيد الربط بين السور من ترجيح المعنى المراد .
- ٤٤٤ جواب القسم ، وبيان الكنود عند القرطبي ، وفي لغة ريحة ومضر .
- ٤٤٥ سبب تسمية كنده بكندة لأنها جمعدت أباه .
- ٤٤٦ تفسير القرآن لمعنى الكنود .

- الصفحة الموضوع
- ٤٤٧ الإنسان هنا من اللام الخصوص - وأن هذه من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه للشرع .
- قوله تعالى : (وإنه على ذلك لشهيد) . والخلاف في مرجع الضمير في وإنه ، ورجع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه رجوعه إلى الإنسان في مبعثه في دفع الإيهام بدليله .
- ٤٤٨ قوله تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) . لفظ الخير عام ولكنه هنا خاص بالمال . الخلاف في اللام هل هي سببيه أم بسبب حبه الخير شديد البخل أم مقدمة بمعنى لشديد حب الخير .
- ٤٥٠ قوله تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) . معنى البعثرة . أخذها من أصلين في اللغة : البعث والنثر
- ٤٥١ قوله تعالى (وحصل ما في الصدور) ومعنى حصل . والمراد بما في الصدور هي الأعمال أم القلوب ، ويانراجع
- ٤٥٣ قوله تعالى : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) ، ومفهوم الظرفية
- ٤٥٧ سورة القارعة : إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة الواقعة ، يبان أن أسماء يوم القيامة ليس من قسم المترادف ، وأن كل اسم يأتي معه ما يناسبه من أحول ذلك اليوم
- ٤٥٨ معنى القارعة في القرآن ، وناسبها مع ما بعدها
- ٤٥٩ قوله تعالى : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) ، معنى الفراش ، وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله في إملائه
- ٤٦٠ الفرق والجمع بين وصفهم بالفراش وصفهم مرة أخرى بالجراد المنتشر . وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله في سورتي اقتربت و « ق » ويس .
- قوله تعالى : (وتكون الجبال كالمنهوش) . وإحالة على كلام الشيخ في سورة الواقعة .
- ٤٦١ قوله تعالى (فأما من ثقلت موازينه) الآية . ودلالة ذلك على وجود الوزن

فعلا . والموازين يراد بها الموزون ويراد بها الآية . وإحالة على كلام الشيخ
رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله (ونضع الموازين القسط) . إسناد
الرضا للميشة في قوله (في عيشة راضية) .

٤٦٣ كون الإسناد حقيقياً .

٤٦٣ قوله تعالى : (أما من خفت موازينه فأمه هاوية) . وبيان الخلاف في المراد
بأمه هل هي رأسه أم هي النار . إحالة على كلام للشيخ رحمه الله في دفع
إيهام الاضطراب .

٤٦٤ تفسير القرآن للهاوية . وبيان أن لا تعارض بين المعنيين .

٤٦٩ سورة التكاثر : معنى ألهاكم ، والتكاثر ، عام في كل ما يتكاثر فيه .

٤٧٠ بيان ما فيه التكاثر ، وبيان عموم وشمول اللفظ له .

٤٧٢ قوله تعالى (حق زرتم المقابر) . والصحيح فيما يراد به .

٤٧٣ تنبيه : في حكم زيارة النساء للقبور ، والراجع من الخلاف فيها .

٤٧٥ تنبيه آخر : من لطائف التفسير في معنى (زرتم المقابر) .

٤٧٦ إفكار الساف على ما يصنع للقبور ، من المباهاة بها بالاندلس ومصر وغيرها

إنكار السلف على الكثيرين من زيارة القبور والمباهاة بها .

٤٧٧ بيان خطأ هؤلاء في اشتغالهم دائماً بذلك . وتنقلاتهم إليها .

٤٧٨ قوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون) الكلام على

تكرار لفظ كلا هنا .

٤٧٩ الاستدلال من الآية على ثبوت عذاب القبر .

٤٧٩ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه في هذه المسألة . أصرح

دليل في إثبات عذاب القبر على سبيل الإجمال .

قوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) .

بيان لو الشرطية وجوابها .

الصفحة	الموضوع
٤٨٠	لترون الجعيم : جواب لقسم محذوف . وبيان الخلاف في زمن أول تلك الرؤية .
٤٨١	مراتب العلم الثلاثة : علم اليقين ، عين اليقين ، حق اليقين ،
٤٨٢	قوله تعالى : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) ، بيان أصل النعيم الذي يكون عند السؤال ، وبيان أن الآية عامة في كل ما ينعم به .
٤٨٤	سبب نزولها .
٤٩١	سورة والمصر : بيان المراد بالمصر ، والخلاف فيه ، ودليل كل قول والراجع منها .
٤٩٤	قوله تعالى : (إن الإنسان لفي خسر) . أل فيه جملة عاماً ، وإحالة ذلك على دفع الإيهام . بيان المراد بالخسر وأقسامه من نصوص القرآن الكريم .
٤٩٥	ربط السورة بالتي قبلها ، والتي بعدها يظهر المعنى أكثر .
٤٩٧	تحقيق المناط في معنى خسران الإنسان .
٥٠٠	تنبيه : أقوال العلماء في سبب التلويح المذكور في هذه السورة .
٥٠١	تنبيه : في دخول الجن مع الإنس في ذلك العموم .
	قوله تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ، مناقشة دخول الأعمال في معنى الإيمان ، أو هي شرط في صحته .
٥٠٢	معنى الصالحات ، وإحالة على كلام للشيخ رحمه الله - التواصي بالحق هنا من الخاص ببعض العام .

٥٠٣ معنى الحق الذى تواصوا به ، وعلاقة الآية بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٥٠٤ عموم وجود ذلك فى جميع الأمم .

٥٠٥ الوصايا العشر

٥٠٦ الربط بين هذه الآية وسورة الفاتحة والهداية إلى الصراط المستقيم .

٥٠٧ إحالة على كلام الشيخ رحمه الله

٥٠٨ تنبيه : علاقتها بآية الاستقامة وتمدى النفع إلى الآخرين .

٥٠٩ تنبيه : كيف يتقى الإنسان عدويته من الجن والإنس

٥١٣ « سورة الهمزة » الخلاف فى كلمة : ويل ، وإحالة على بيان الشيخ لها

٥١٤ بيان الظاهر من كل ما تقدم

٥١٥ معانى الهمز واللمز ، وبيان القرآن أنهما متغايرتان لامترادفتان

٥١٦ قوله تعالى (الذى جمع مالا وعدده) . بيان أن هذا علة لما قبله ومعنى عدده

٥١٧ قوله تعالى (أىحسب أن ماله أخله)

قوله تعالى (كلا لينبذن فى الحطمة) . فسرت الحطمة بما بعدها ، نار الله للوقدة .

قوله تعالى (إنها عليهم مؤصدة فى عهد ممددة) ومعنى الوصد وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله

٥٢١ سورة الفيل : الخلاف فى معنى « سجيل » وبيان وإحالة على كلام الشيخ رحمه الله .

٥٢٢ مناقشة من نفى الحجارة من سجيل أو تأولها .

٥٢٤ ماحكى عن الشيخ محمد عبده والتسيد رشيد رضا واعتذار السيد قطب عنهما

٥٢ بيان حقيقة ذلك من نصوص القرآن

٥٢٦ خطأ تحكيم الفصل في خوارق العادات ، وعجز العقل عن قصور بعض
المشاهد المحسوس

٥٢٨ تنبيه : كيف أهلك الله جيش أبرهة وهو كتابى ، ونصر العرب
وهم وثنيون .

٥٢٩ أبيات أبى طالب في القصة .

٥٣٣ سورة « لإيلاف قريش » الخلاف في لإيلاف

٥٣٥ معنى الإيلاف - قريش علم على القبيلة وسبب تسميتها بذلك .

٥٣٦ قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) . أى البيت الحرام بدليل عند
(بيتك المحرم)

٥٣٧ قوله تعالى : (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . فيه تعليل لموجب
الأمر بالمعبادة . إحالة على كلام للشيخ رحمه الله تعالى

تنبيه : فى الآية بيان موجب العبادة لله وحده ونظائرها من القرآن .

٥٣٨ بيان كون الشكر يزيد النعم

٥٣٩ تنبيه : فى هذه السورة بيان أن كمال الإنعام فى الأمرين المذكورين
الإطعام والأمان .

تنبيه آخر : فيها دليل على استجابة دعوة الأنبياء

٥٤٣ « سورة الماعون » اسم الموصول منهم بينه ما بعده وبيان ضده فى المؤمن
بيان اختصاص ذكر هذين الوصفين : دع اليتيم وعدم الخس على طامام
المسكين .

٥٤٤ مقابلة إطعام المسكين والخوف من يوم عبوس : شدة العناية باليتيم في هذا المقام .

٥٥٥ معنى : دع اليتيم

قوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) الخلاف في المراد بالمصلين هنا .

٥٤٦ حكم النسيان في الصلاة منه صلى الله عليه وسلم . حكم المرائى في صلاته

٥٤٧ إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيمن سها عن الصلاة وأضاعها . وإحالة على كلامه عمن تركها جهداً أو كسلاً .

٥٤٨ تنبيهه : مقارنة بين المنافق والمؤمن في شأن الصلاة .

٥٤٩ بيان أثر الصلاة في الإسلام

٥٥٠ مبحثان في الآية . الأول الرياء وما حده . الثاني : حكم العارية .

المبحث الأول في الرياء . تعريفه وحكمه

٥٥٣ الرياء الطارىء للعمل الذي بدأه صاحبه خالصاً لله

٥٥٤ الثاني : حكم العارية

٥٥٦ تضمين مانع الماعون إذا ترتب عليه إتلاف - وبيان أن الترك فعل

٥٥٧ تمدح العرب بعدم منع الماعون

٥٥٧ ضمان العارية

٥٥٩ حكم من جهد العارية

٥٦٠ في السورة ، منهج على جمع أطراف الموضوع .

٥٦١ ومنها مأخذ لما لك رحمه الله : أن من شرط الشهادة الاستشهاد وسماع

كل الحديث .

الصفحة	الموضوع
٥٦٥	« سورة الكوثر » الخلاف في المراد بالكوثر والأقوال المتعددة فيه ،
٥٦٧	الذي تطمئن إليه النفس في معناه ، أنه الخير الكثير والحوض أحد أفرادہ .
٥٦٨	عرض موجز لما ظهر لي من ربط قصار السور بعضها ببعض ، كربط الآيات في السورة الواحدة .
٥٧١	قوله تعالى (فصل لربك وانحر) . بيان أنه سبب عما قبله . فيه تنبيه لطيف بمد بيان حال سهو المنافقين عن الصلاة ، جاز الحث عليها هنا ، ولما كان قبلها التحذير من الرياء ، جاء هنا الحث على الإخلاص لربك .
٥٧٢	والصلاة قبل صلاة العيد والنحر للضحية أو الهدى ، وفيها مأخذ تأخير النحر عن الصلاة ، وبيان ذلك من السنة .
	إحالة على كلام الشيخ في مبحث الضحية ، بيان صفة النحر والذبح ، وما يختص به كل منهما ،
٥٧٣	الحكمة في أن النحر للابل .
	قوله تعالى (إن شئت لك هو الأبر) ، وبيان الشائء والأبر .
٥٧٩	« سورة الكافرون » مجيء لفظة « قل » .
٥٨٠	هل في السورة تكرار أم لا . وما المراد منه مع أمثلة على التأكيد .
٥٨١	إحالة على كلام الشيخ في معنى (لا أعبد ما تعبدون) .
٥٨٤	قوله تعالى : (لستم دينكم ولي دين) ونظائرها من القرآن .
٥٨٥	تنبيه : في عدم صلاحية أنصاف الحلول ، تعتبر هذه السورة حداً فاصلاً بين الفريقين .
٥٨٩	« سورة : إذا جاء نصر الله والفتح » . ما يدل عليه اجتماع النصر والفتح هنا ، وأن النصر أعم ،

- الصفحة الموضوع
- ٥٩١ قوله تعالى : (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) . وبيان المراد بالفتح ما هو .
- ٥٩٢ نبذة عن بعض وقائع غزوة الأحزاب ، وما جاء فيها من بشار للفتح مكة وغيرها .
- ٥٩٥ قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . إحالة على ما تقدم من معنى التسبيح . إقتران التسبيح هنا بحمد الله ومناسبته مع أول السورة .
- ٥٩٦ بيان أن التوبة دعوة جميع الرسل لأمتهم
- ٥٩٧ نفيه : بيان معنى الآية من فعله صلى الله عليه وسلم ولفت نظر لبعض أصحاب الأذكار .
- ٥٩٨ دلالة الإيماء في الآية إلى قرب أجله صلى الله عليه وسلم ، ودقة الاستنباط .
- ٦٠٣ سورة : (تبت يدا أبي لهب) . تصريف مادة تب .
- ٦٠٤ تفصيل : ما وقع لأبي لهب من معاني التب . وإسناد التب للدين . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في إسناد الكذب إلى الناصية .
- ٦٠٥ قوله تعالى : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) . بيان كون ما ، نافية أو استفهامية .
- ٦٠٦ قوله تعالى : (وما كسب) من مال أو عمل ، وفيه إحالة على كلام الشيخ رحمه الله تعالى عليه .
- ٦٠٧ نفيه : للمقارنة بين حمله صلى الله عليه وسلم عليهم ومجاوبته همه بذلك .
- ٦٠٧ مجيء قوله وتعالى « وتب » بمد « تبت » أولا .

- الصفحة الموضوع
- ٦١١ « سورة قل هو الله أحد » معنى الأحاد وتصريف الكلمة .
- ٦١٤ السورة كلها تفسير لمعنى الأحاد ، بل الرسالة كلها تدور حول هذا المعنى وهو وحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله واستحقاقه للمعبادة وأن يصمد الخلق إليه .
- إحالة على كلام الشيخ عند قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد) .
- ٦١٥ تقرير القرآن لمعنى الوحدانية لله سبحانه بطريقتة الإلزام العقلي .
- قوله تعالى (الله الصمد) أقوال المفسرين ، وأنه يفسره ما بعده .
- ٦١٦ إحالة على كلام للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .
- قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد) إحالة فيها على كلام الشيخ رحمة الله علينا وعليه .
- نفيه : نفي اتخاذ الولد لا يستلزم نفي الولادة ، أى أنه لم يولد .
- ٦١٨ جاء بيان المانع من اتخاذ الولد لله سبحانه . ولم يأت بيانه من أن يولد سبحانه ، وبيان ذلك .
- ٦١٩ بيان أنه سبحانه يستحيل عليه أن يولد ، بدليل التمانع العقلي .
- ٦٢٠ الدليل العقلي على عدم اتخاذ الولد لله تعالى . لماذا قدم نفي الولد على نفي الولادة مع أن الولادة أسبق .
- ٦٢١ لماذا نفي الولادة في قوله تعالى : (ولم يولد) مع أنه لم يدع أحد ذلك على الله .
- ٦٢٢ قوله تعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) . بيان الكفو والند ، وإحالة على كلام الشيخ .
- ٦٢٣ أسباب نزولها وبيان فضلها .
- ٦٢٤ حول السؤال عن الماهية .

الصفحة	الموضوع
٦٢٧	المؤذنان : مقدمة بين السورتين
٦٢٨	ارتباط السورتين بسورة الإخلاص .
٦٢٩	إحالة الشيخ رحمه الله على سورة الناس .
٦٢٣	الربط بينها وما قبلها من إعلان التوحيد ومعرفة الإيمان مع الشرك .
	قوله تعالى : (قل أعوذ برب الفلق) الفلق فعل بمعنى مفعول . واختلف في المراد منه .
٦٣٤	ما يشهد له القرآن من المعاني .
٦٣٥	قوله تعالى : (من شر ما خلق) . ما هنا على عمومها حق شملت إبليس وجهنم ، وأخذ المعترلة منها موضوع خلق أفعال العباد والرد عليهم . إحالة على كلام الشيخ في هذه المسألة .
٦٣٦	قوله تعالى : (ومن شر غاسق إذا وقب) ، الخلاف في معنى الغاسق .
٦٣٧	الصحيح مما قيل فيه .
٦٣٨	قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد) وشموله للرجال أيضاً ، إحالة على كلام الشيخ رحمه الله في مبحث السحر .
٦٣٩	مسألة حكم الساحر إذا قتل بسحره .
٦٤٠	تنبيه : يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان ، وكذلك الحسد . قوله تعالى : (ومن شر حاسد إذا حسد) . دلالة اقتران الحسد بالسحر هنا . عرض لبيان أمر الحسد مما اشترك فيه مع السحر .
٦٤١	تعذر تعريف الحسد منطقياً .
٦٤١	إنكار بعض الفلاسفة وقوع الحسد .
٦٤٢	تنبيه : بيان ماهو المحسود عليه ، والنعمة التي تستحق الحسد حقاً .
٦٤٣	تنبيه : أثر العين والفرق بين العين والحسد .

الصفحة	الموضوع
٦٤٤	الفرق بين الحسد والغبطة .
٦٤٥	تحذير من الحسد ، وأنه أول معصية وقعت .
٦٤٦	أسباب الحسد .
٦٤٧	تنبيه : مما يؤخذ من وقوع هذه السورة آخر المصحف ، حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئاً بالمين عند الأئمة الأربعة .
٦٤٩	مانقل أنه ينبغي على الإمام منع العائن من مخالطة الناس .
٦٥٠	مسألة ماتعالج به العين .
٦٥٠	ماتتقى به قبل وقوعها .
٦٥١	كيفية العمل في الغسل لمن به العين وتفضيل ذلك وماذا يفعل بالماء .
٦٥٣	علاج العائن لنفسه من داء الحسد .
٦٥٧	« سورة الناس » قوله تعالى : (قل أعوذ برب الناس) ، وبيان موجب إحالة الشيخ رحمه الله على هذه السورة من تحميل المسؤولية .
٦٥٨	موجب الإحالة ، اشتمال هذه السورة على ثلاث صفات عظيمة لله تعالى .
٦٦٠	علاقة هذه السورة بسورة الإخلاص ، وبسورة الفاتحة ، وبسورة البقرة .
٦٦٠	صريح النصوص في كون الرواية تستوجب العبادة . إضافة الرب إلى الناس ، مع أنه رب كل شيء ، والسرفيه والنصوص العديدة .
٦٦٣	قوله تعالى : (ملك الناس) وبيان ما فيها من التدرج في درجات الكمال .
٦٦٤	ما تقر به الإضافة في ملك الناس مع أنه سبحانه ملك كل شيء ، والنصوص فيها .
٦٦٧	قوله تعالى : (إله الناس) . هذه هي المرتبة الثالثة في كمال العبودية . وهي الغاية المطلوبة من الخلق أفراد الله تعالى بالعبادة .
٦٦٨	ربط بين خاتمة المصحف ، وافتتاحيته ، من باب عوداً على بدء .
(٤٧ - أضواء البيان ج ٩)	

٦٦٩ قوله تعالى (من شر الوسواس الخناس) إحالة على كلام الشيخ في معنى الوسوسة .

٦٧٠ قوله تعالى (الذي يوسوس في صدور الناس) والخلاف في الظرف هنا لاى شيء . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله .

٦٧٢ الظاهر من كل ما تقدم .

الخلاف في المراد من لفظ الناس هنا .

٦٧٣ رأى الإمام ابن تيمية رحمه الله في ذلك . الترجيع بكثرة الاستعمال في القرآن . منافشة الإمام ابن تيمية للعباد على لفظى نفر رجال .

٦٧٤ رأى لأبى السعود في معنى الناس بحذف باء من النسيان . ورد هذا القول . مناقشة الجمع إلى المثق .

٦٧٦ الراجع من كل ذلك في معنى (الناس) هنا تنبيه على مقارنة لطيفة بين المعذبين لأبى حيان . التطاع إلى ذلك من زمن ، وبيان وجهات نظر أخرى .
٦٧٨ رب الفلق تعادل رب العالمين في أول المصحف لأن مامن موجود في السكون إلا وهو مفروق عن غيره ، وبيان ذلك تعدد المستعاض منه في الأولى وانفراده في الثانية لشدة خطوه .

٦٧٩ الوسواس الخناس سبب كل فتنة ابتداء من آدم إلى اليوم .

٦٨٠ امتداد الوسيلة له وهو نزع اللباس عن المرأة .

٦٨١ بيان أن الشك أخطر سلاح .

كلمة مؤتمر المبشرين في الشرق عن التشكيك .

٦٨٢ وجهة نظر أخرى بين سورة الناس ونسق المصحف .

٦٨٣ الموضوع الإجمالى لسورة البقرة تشمل الأصول والفروع

٦٨٤ ما يفيد نسق المصحف الشريف في هذا الموضوع .

الموضوع

الصفحة

٦٨٥ المعوذتان وقفة بنا عند آخر المصحف

أشد العداوة الحسد

٦٨٦ تنبيه : طريقة النجاة من الوسواس من الجنة والناس أمران :

الأول : من عمومات التكليف .

الثاني : كنت سمعته من الشيخ في آية من كتاب الله .

٦٩٠ الآثار في الاستعاذة بالسورتين

٦٩١ خاتمة نسأل الله حسن الختام

٦٩٢ اعتذار

٦٩٣ شكر وتقدير

٦٩٩ رسالة في الناسخ والمنسوخ في أبيات للسيوطي شرحها الشيخ .

جدول تصويب خطأ الجزء التاسع من الأضواء

الثاني من التتمة

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	١٤	حقوق الطبع محفوظة	التقدير	١٧٦	١٨	التقديم	التقدير
٢٤	٦	بالسبحات	إلى الله ما قدره	١٧٧	٧	إلى الله ما قدره	إلى ما قدره
٢٩	١٥	وتقدم سورة	وماء آسن	١٨١	١٧	وماء غير آسن	وماء غير آسن
٣٨	٩	والقمر في فلك والقمر كل في فلك	الغيلة	٢٠١	٧	الغيلة	الغيلة
٤١	٥	النصوص	أنهما	٢٣١	٣	أنهما	أيهما
٤٨	٩	عاقبة	عمن	٢٥٤	٦	عمن	عن من
٥١	١٥	هذه	مع يتأني	٢٨٥	١٥	مع يتأني	مع ما يتأني
٥١	١٨	وأما أنا	منه	٢٩٣	٣	منه	منه
٥٦	١٤	من شيء	قس	٣٠٠	٨	قس	قسا
٥٨	٤	المجرمين	مسيره	٣٠١	٢	مسيره	ميسرة
٦٨	٦	يجادل بغير	النار إلى	٣٣٢	١٤	النار إلى	إلى النار
٧٦	١٧	وما ضل	فيهم	٣٥٧	١٧	فيهم	فيها
٨٤	١٩	خير	القلنشدى	٣٦٩	٩	القلنشدى	القلنشدى
٨٦	٧	حمى	الشدياقى	٣٦٤	١٠	الشدياقى	الشدياقى
٩٦	١٠	ذر	على صالح	٤١٧	١٣	على صالح	على أن صالح
١١٢	١٥	أعرضنا	يعملون لا يعصون يعملون] وقوله	٤١٨	١٥	يعملون لا يعصون يعملون	لا يعصون
١١٦	١٤	العالم	قل لا أقول	٤١٨	١٦	قل لا أقول	قل لا أقول
١٢٣	١٣	سلالا	لم يوضع القوى يكمل القوس	٤١٩	٣	لم يوضع القوى يكمل القوس	على الآية
١٢٤	١	عنس	عنما	٤٢٠	١٠	عنما	عنم
١٢٤	١٤	ممنون	فيه	٤٢٠	١١	فيه	فيهم
١٣٥	١٤	بما عمل عليها	نوازع ثم	٤٢٠	١٤	نوازع ثم	نوازع الشر
١٣٩	١٤	أما أشفى	أن يأتى بعمهم في حق من يأتى بعمهم	٤٢٠	١٨	أن يأتى بعمهم في حق من يأتى بعمهم	أن يأتى بعمهم في حق من يأتى بعمهم
١٤٠	١١	به صدغه					
١٧٥	٩	وتحمدون					

صفحة سطر	خطاً	صواب
٤٥٩	٦	زال ولا يزال
٤٥٩	٨	ملائه إملائه
٤٦٥	١	يزيده يذهبن
٤٦٥	١	كالجرد كالجراد
٤٧٢	٨	جاء جاءت
٤٧٣	٣	في الآخرة الآخرة
٤٧٥	٣	إه إنه
٤٧٦	١٢	إني إلى
٤٧٦	١٣	لا زيارة قبور إلا زيارة القبور
٤٧٦	١٤	فلانا فلان
٤٧٦	١٥	طفوها طافوها
٤٧٦	١٧	أسفار أسفاراً
٤٧٨	١	عليهم عليه
٤٧٨	١٤	البعض بعضهم
٤٨١	١١	عا طي
٤٨١	٣	تعبد أن تعبد
٤٨١	١٥	يقين اليقين
٤٨١	١٦	ووجهتها وجهتها
٤٨٣	١	إخوانا أعداء
٤٨٣	١٢	لا تزال لا تزال
٤٨٤	١	روى أورد
٤٨٧	٤	أنعمت أنعمت به
٤٩١	٩	وقد ينفذ وقد ينفذ
٤٩١	١٥	على التفسير إن على التفسير إذ
٤٩٣	١٥	ويرشح لهذا ويرجع هذا
٤٩٦	-١	كالآتي في الآتي
٤٩٩	-٣	ولم يتنافس ولم ينافس
٥٠٠	٦	حمة برأس بالجمة رأساً
٥٠٠	٦	البیض الواضحات

صفحة سطر	خطاً	صواب
٤٢٤	أول الصفحة ٢٢٤	٤٢٤
٤٢٤	١٤ فعلا	قطعا
٤٢٥	١ تجاوزوا	تجاوز
٤٢٥	٣ حسبي حسبي	حسبنا حسبنا أى
٤٢٥	٤ ذاك	كافينا
٤٢٦	أول الصفحة ٣٢٦	ذلك
٤٣٠	٨ موناها	موتاها
٤٣١	٨ المرسلين	المرسلون
٤٣٢	١٢ بحثان	مبحثان
٤٣٣	١١ لقو	لقوله
٤٣٥	٦ الدين	إن الدين
٤٣٥	١٥ وجل	وجمل
٤٣٩	١٧ الإبل	الحيل وقد
٤٤٠	١٥ فوسف	فوسفط
٤٤١	٦ وهذ	وهذا
٤٤١	١٢ وجد	وجدت
٤٤٢	أول الصفحة ٢٤٢	٤٤٢
٤٤٢	١ جمعا	جمع
٤٤٣	٤ يقرف	يقرف
٤٤٣	٥ ويتوطف	ويتوسطن
٤٤٣	١١ ترشيحا	ترجيحا
٤٤٥	٥ الشا	الشاعر
٤٤٩	١٢ كلون	وتأ كلون
٤٥١	١ للمديات	الماديات
٤٥١	٣ الشا	الشاعر
٤٥٣	٥ لا يخفى	لا تخفى
٤٥٨	١ القرمة	للقارعة

صفحة سطر	خطأ	صواب
٣ ٥٠١	له	آية
٥ ٥٠٦	باحق	بالحق
١ ٥٠٧	لابنه	لقمان لابنه
٤ ٥٠٧	علينا عليه	علينا وعليه
١٤ ٥٢٤	موج	موجة
١٥ ٥٢٦	عيسى	لعيسى
٥ ٥٢٨	ممتلئة	ممتلئة
١٣ ٥٢٨	إرهص	إرهاص
٨ ٥٢٩	المنتصرة	المنتصر
٥ ٥٣٦	قول	قول الشاعر
١١ ٥٣٩	معاى بدنه	معاى فى بدنه
٢ ٥٥١	ديب ال	ديب النمل
١٥ ٥٥١	ل	بل
١٢ ٥٥٢	لدى	الذى
٧ ٥٥٤	عانها	ضمانها
١٣ ٥٥٤	وفقرض	والقرض
١٠ ٥٥٥	بوا	بواحدة
٧ ٥٥٦	مض	بعض
١٥ ٥٥٦	المر	العربى
٨ ٥٦٠	فى قول	فى قوله
٥ ٥٧٣	الفقهاء أن	الفقهاء على أن
٦ ٥٧٣	على ذلك	على أن ذلك
١٥ ٥٧٣	شانوك	شانتك
٤ ٥٧٤	سبحانه تعالى	سبحانه وتعالى
٣ ٥٨٠	ولا تتم	ولا أنتم
١٠ ٥٨٢	لم يساو	لم كساو
٨ ٥٨٥	وسط	وسطا
٦ ٥٨٩	المفتح	صواب
١٤ ٥٩٥	مفترا	مفترا
١ ٥٩٦	بالإنما	بالإنعام
٢ ٥٩٦	البعض	بعضهم
١ ٥٩٨	وبأمر	وبأمره
٦ ٥٩٨	الإيمان	الإيماء
٢٣ ٥٩٨	بافتح	بالفتح
٨ ٦ ٤	التبات	التباب
١ ٦٠٥	فما كان	فلما كان
١٢ ٦٠٥	قراء	قراءة
١٤ ٦٠٦	جاء به	جابه
٥ ٦٠٧	لأوه	لأواه
٢ ٦١٢	فرد به	فرد بل
١٥ ٦٢٢	وحد	واحد
٢ ٦١٣	ودلاتها	ودلاتها
١٥ ٦٢٣	أو إلى ابن	أو لابن
٦١٤ أول الصفحة ٦٠٤	٦١٤	
٣ ٦٢٣	إلى	إلى غيره
٧ ٦٢٣	قل	قال
٩ ٦٢٥	سبحان ما	سبحان من لا
٣ ٦٣٥	باليله	ياليله
١١ ٦٣٩	أخبرنى أنه	أخبرنى من رأى
٨ ٦٣٩	البعض	بعضهم
٨ ٦٤٨	الحامن	الحامل
٨ ٦٤٧	ولا كفار	ولا كفارة
٧ ٦٤٦	كانت معصية	إذا كانت أول معصية
٧ ٦٤٦	بأبيننا	لا بيننا

صفحة سطر	خطأ	صواب
٣ ٥٠١	له	آية
٥ ٥٠٦	باحق	بالحق
١ ٥٠٧	لابنه	لقمان لابنه
٤ ٥٠٧	علينا عليه	علينا وعليه
١٤ ٥٢٤	موج	موجة
١٥ ٥٢٦	عيسى	لعيسى
٥ ٥٢٨	ممتلئة	ممتلئة
١٣ ٥٢٨	إرهص	إرهاص
٨ ٥٢٩	المنتصرة	المنتصر
٥ ٥٣٦	قول	قول الشاعر
١١ ٥٣٩	معاى بدنه	معاى فى بدنه
٢ ٥٥١	ديب ال	ديب النمل
١٥ ٥٥١	ل	بل
١٢ ٥٥٢	لدى	الذى
٧ ٥٥٤	عانها	ضمانها
١٣ ٥٥٤	وفقرض	والقرض
١٠ ٥٥٥	بوا	بواحدة
٧ ٥٥٦	مض	بعض
١٥ ٥٥٦	المر	العربى
٨ ٥٦٠	فى قول	فى قوله
٥ ٥٧٣	الفقهاء أن	الفقهاء على أن
٦ ٥٧٣	على ذلك	على أن ذلك
١٥ ٥٧٣	شانوك	شانتك
٤ ٥٧٤	سبحانه تعالى	سبحانه وتعالى
٣ ٥٨٠	ولا تتم	ولا أنتم
١٠ ٥٨٢	لم يساو	لم كساو
٨ ٥٨٥	وسط	وسطا

صفحة سطر	خطأ	صواب	صفحة سطر	خطأ	صواب
٦٤٧ ١٤	من	من أثر العين	٦٧٢ ٦	إطاق	إطلاق
٦٥٠ ١	رحل	رحلا	٦٧٢ ١٦	كن	كان
٦٥١ ٨	يكفو	يكفا	٦٧٤ ٧	والفغة	والغفلة
٦٥٣ -٥	بدای	یداوی	٦٧٧ ١٥	يثر	يشير
٦٥٩ ١٢	واستحققه	واستحقاقه	٦٨١ ٤	والاستغلال	والاستقلال
٦٦٢ ١	متعالى الملك	فتمالى الله الملك	٦٨٣ ٧	من ربك	من ربهم
٦٦٣ ٢	بدأ	بدء	٠٠٠ ١٦	روع	فروع
٦٦٣ ٧	تداد	تعداد	٦٨٧ ٨	فيتخيل	فيخيل
٦٦٤ ٣	ضرورة له	ضرورة بالالوهية	٦٨٧ ٨	صوتا يجد	صوتا أو يجد
٦٦٥ أول الصفحة ٥٦٥	٦٦٥		٦٨٨ ٩	الغريمة	العزيمة
٦٦٥ ٣	كمل	كل	٦٩٢ ٧	سبة	نسبة
٦٦٦ ٧	كاملتين	كاملين	٦٩٦ ١٥	أبناء	أبنائه
٦٦٩ ٣	مباغة	مبالغة	٦٩٧ ٧	في محالة	في محاولة
٦٧٠ ٧	على ما جار	على ماهو جار			

الكلمة الأخيرة :

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات
والصلاة والسلام على رسوله نخر الكائنات

وبعد :

فهذا هو الجزء التاسع - والآخر - من تفسير [أضواء البيان في
إيضاح القرآن بالقرآن] لمؤلفه العالم الجليل الشيخ محمد الأمين الجكني
الشنقيطي (م ١٣٩٣ هـ) رحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدم للمكتبة
الإسلامية من آثار علمية نفيسة .

هذا هو الكتاب بأجزائه التسع ؛ سواء منها ما أتمه الشيخ بنفسه ،
وذلك حتى نهاية الجزء السابع ، أو أتمه تلميذه العالم المحقق الشيخ عطية
محمد سالم على أسلوب شيخه ومنهجه وذلك في الجزءين الآخرين ، الثامن والتاسع .
هذا هو الكتاب الذي شرفت مطبعة المدني (المؤسسة السعودية بمصر)
أن تكون القائمة بإخراجه وتقديمه لقراء اللغة العربية حيث كانوا من أرض الله .
ولا شك أنه عمل نعتز به ، وليس هناك شيء أفضل من القرآن وعلومه
نعتز به ونفتنفس فيه .

حيا الله العالم الجليل الذي وقف عمره المبارك على خدمة القرآن
ومعارفه ، ثم توج أعماله بهذا الأثر النفيس .
وحيا الله تلميذه الذي أتم ما بدأه شيخه وسار على نهجه في غير
ما قصور ولا تقصير .

وحيا الله الكرام الباذلين ، الذين أنفقوا أموالهم في سقاء على هذا
العمل المشكور ، ويسروه لطلاب العلم ، وجملوه وقفاً لله .
وتحية كبيرة عظيمة مخصصة إلى الإمام الجليل ، والعالم الحجة ، سماحة
الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الذي كان لجهوده الموفقة أكبر الأثر
في إشاعة هذا الخير ، وإذاعته بين الناس .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله
رب العالمين ؟

مدير المطبعة

محمد علي صبح المدني

الفهرس الفقهي لسكامل أضواء البيان

قد جمع هذا الفهرس مباحث الفقه المنتورة في أضواء البيان ، ورتبت فيه حسب الأبواب الفقهية ، ومبين فيه عنوان البحث ورقم الجزء والصحيفة والسورة .

وذلك تسهيلا لادارس وتوفيرا للوقت .

وبالله التوفيق ؟

الفهرس الفقهي لكامل أضواء البيان

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
			الطهارة والنجاسة
٢٩٦	٣	النحل	طهارة المني
٦١٩	٨	المدثر	طهارة الثوب للصلاة
١٠٧		المائدة	نجاسة الخمر والكولونيا
٣٥	٢	»	مباحث الوضوء
٧	٢	»	غسل الرجلين
١٤	٢	»	المسح على الخفين
٣٦	٢	»	التيمم

كتاب الصلاة

٥٧٩	٤	طه	ستر العورة للصلاة
٦٢١	٣	بنی اسرائیل	أوقات الصلاة
٣٧٨	١	النساء	وقت الظهر - العصر - المغرب
٤٠٦	١		» العشاء - الصبح
١١٩	٩	الانشقاق	الشفق الأبيض
			ظهر الحائض قبل الغروب
٤٠٥	١	النساء	بما يسع ركعة واحدة
٣٥٧	٣	النحل	الإستعاذة عند القراءة
٢٣٨	٤	مريم	موقف الإمام أهل من المأمومين
٧٥٥	٥	المؤمنون	نظر المصلي وهو في صلاته
٢٣٧	١	النساء	قصر الصلاة في السفر

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣٦٠	١	النساء	مشروعية القصر وتحديد المسافة
٣٩٤	١	»	جمع التقديم والتأخير في السفر
١٦١	٣	الحجر	الأما كن المنى عن الصلاة فيها
٣٤٥	١	النساء	صلاة الخوف
٣٣١	٤	مريم	إضاعة الصلاة وحكم تاركها
٩٢٤	٣	بنى إسرائيل	التداوى بالقرآن
٤٦١	٨	المعارج	موجز حكم تارك الصلاة عند الأئمة
	٨	سورة الجمعة	مباحث صلاة الجمعة
			أول جمعة في الإسلام وأول جمعة صلاحها
٢٧١	٨	»	النبي صلى الله عليه وسلم
٢٧٣	»	»	الساعة التي في يوم الجمعة
٢٧٥	»	»	القراءة في فجر يوم الجمعة وحكمتها
٢٧٦	»	»	حجود التلاوة في صبح الجمعة
٢٧٩	»	»	الخلاف في المراد بالسمى إليها
٢٨١			الخلاف في القدر الذي به تدرك الجمعة
			حكم صلاة الجمعة عند الأئمة :
٢٨٨			عند مالك
٢٨٩			» الشافعي
٢٩١			» الأحناف
...			» الحنابلة
٢٩٤			بيان من لا جمعة عليه
٢٩٨			سقوطها على أهل البوادي
٢٩٩	٨	الجمعة	مكان الجمعة عند الأئمة
٣٠١	»	»	اشتراط الاستيطان

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣٠٢	٨	الجمعة	اشتراط الأمير والقاضي
٣٠٦	د	د	المدد في الجمعة
٣٠٨	د	د	وقت الصبح إلى الجمعة
٣١٠	د	د	الفصل إلى الجمعة
٢٢٩	٦	النور	صلاة المرأة في بيتها
٦١٤	٨	المزمل	قيام الليل
			حرمة البيت الحرام
٢٢٦	٨		خروج النساء إلى المساجد

الجنائز

٤١٦	٦	النحل	تلقين الميت
٤٧٣	٩	التكاثر	زيارة النساء للمقابر

المساجد

٥٤٦			المواطن للنهي عن الصلاة فيها
٥٥٣			اختصاص للمساجد الثلاثة
٥٥٩			مضاعفة الصلاة للفرض والنفل
٥٦٧			الصلاة في الصف الأول والروضة
٥٧٠			تقديم للمؤمنين على الإمام
٥٦٩			حكم المضاعفة لخارج المسجد
٢٣٨	٦	النور	صلاة المرأة في بيتها أفضل لها
٥٧٢	٨		صلاة الأربعين صلاة في المسجد النبوي الجن
٥٧٥	٥		السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن
٥٧٦	٨	د	شد الرحل وبيان حكمه
٢٠٣	٨	الجمعة	الأذان ومشروعيته

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٢٠٩	٨	الجمعة	فضل الأذان
٢٠٩	»	»	آداب المؤذن
٢١٠	»	»	كراهية التغنى فيه
٢١١	»	»	ألفاظ الأذان
»	»	»	الإقامة
٢١٦	»	»	الترجيع
٢١٦	»	»	التثويب
٢١٧	»	»	عدد للتكبيرات
٢٢٠	»	»	صفات الأذان الأربع
٢٢٤	»	»	كيفية أداء الأذان
٢٢٤	»	»	حكمه عند الأئمة
٢٢٦	»	»	هل هو حق للصلاة أم للوقت
٢٢٩	»	»	حكم من تركه من أهل المساجد
٢٣٠	»	»	لا أذان على النساء
٢٣١	»	»	تعدد المؤذنين لصلاة الجمعة
٢٣٣	»	»	مكان الأذان الأول (الزوراء)
٢٣٨	»	»	تعدد الأذان للصلوات الخمس
٢٤٠	»	»	خلاف الأحناف في تعدد الأذان للصبح
٢٤٠	»	»	لزوم تعيين مؤذن للأول من الصبح
٢٤١	»	»	تعدد للمؤذنين في وقت للفريضة
٢٤٣	»	»	صفة أذانهم عند الاجتماع
»	»	»	عند الشافعية
٢٤٤	»	»	المالكية
٢٤٥	»	»	الحنابلة
٢٤٥	»	»	الأحناف

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٢٤٦	٨	الجمعة	عند ابن حزم
٢٥١	د	د	محاكاة المؤذن
			بعض الزيادات على ألفاظ الأذان
٢٥٢			عند المحاكاة
...			الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقبها
٢٥٤			إذا سمع النداء وهو في نافلة
			إذا دخل للمسجد أثناء الأذان
			هل يصلى التحية أو يجيب المؤذن ؟
			ومحاكاة أكثر من مؤذن في وقت
٢٥٨			لا أصل لكل ما زيد في ألفاظه
٢٦٠			الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان
٢٦٢			حتى على خير العمل
٢٦٤			هل يتنفل لأذان عثمان

كتاب الزكاة

٤٦٣	٨	المارج	تاريخ مشروعاتها
			أصول الأموال الزكوية
٤٦٤			الخلاص في الحيل وبيان الراجع
٤٦٩			أنصاء الزكاة
٤٦٩			كلام مالك في الملوقة والمواهل
٤٧٤			زكاة البقر
٤٧٧			الكلام في الخلطة
٤٧٩			للمناسبة بين الأنصاء
٤٨١			ما يجوز أخذه وما لا يجوز
٤٨٣			من أسرار التشريع في الزكاة
٤٨٤	٨	المارج	زكاة الفطر

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٤٨٩			مناقشة القول في القيمة
٤٩٤			القدر الواجب في الفطر
٤٩٥			الاقوال في وزن الصاع
٤٩٩			عمل معياره بالماء والحدس
٤٣١	٢	التوبة	زكاة الذهب والفضة
٤٣٤	٢	"	نصاب الذهب والفضة
٤٣٨	٢	"	زكاة الحلي
٤٥٧	٢	"	عروض التجارة
٤٦٢	٢	"	زكاة الدين
٢١٢	٢	الانعام	" الحرث والعسل
٤٦٦	٢	التوبة	" المعادن
٤٧٤	٢	"	مصارف الزكاة

الصيام

١٢٠	١	البقرة	الأيام للمعدودات
			بيان الحيطين الأبيض والأسود
٣٨٧	٩	القدر	تحديد ليلة القدر
٦١٤	٨	المزمل	قيام الليل في رمضان

كتاب الحج

٧٠	٥	الحج	وجوب الحج وشروطه
٢٨٢	١	البقرة	كفر من لم يحج
٧٤	٥	الحج	سقوط وجوبه عند العبد والصغير
٧٥	٥	"	الاستطاعة في الحج

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
١٠٨	٥	الحج	الحج على الفور
١٠٤	د	د	الحج عن الغير
٦٥١	د	د	حكم العمرة
٣١٨	د	د	مواقيت الحج والعمرة
٥٧٠	د	د	إدخال الحج على العمرة
٢٤٣	د	د	التلبية
٦٧	د	د	أفضلية الحج ماشياً أو راكباً
٢٥٦	د	د	محظورات الإحرام
٤٦٢	د	د	غسل المحرم رأسه وحجامة
١٣٠	٢	المائدة	قتل المحرم للصيد
٥٧١	٥	الحج	التمتع
١٢٦	د	د	الأنساك الثلاثة
١٩١	د	د	الطواف
٦٨٦	د	د	د
٢٢٩	د	د	السعى
٢٥٤	د	د	الوقوف بعرفة
١٤١	١	البقرة	الإفاضة
٢٦٤	٥	الحج	النزول من المزدلفة
٢٧٥	٥	د	جمرة العقبة
٢٨٧	٥	الحج	التحالف من الإحرام
٥٨٧	د	د	الحلق أو التقصير
٢٩٣	د	د	الرمي أيام التشريق
٤٨٩	د	د	التبجل من منى والمهدى
٥٧٣	د	د	هدى التطوع والواجب

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣٢	١	البقرة	ما استيسر من الهدى
٦٠٢	٥	الحج	الاكل من الهدى
١٣٧	٢	المائدة	ما يجوز قتله في الإحرام من الحيوان
٦٢	٨	الحشر	قتل الحرم للزنبور
٤١	٢	المائدة	د د د والنخل ... إلخ
١٤٢	٧	د	قتل الصيد خطأ أو نسياناً
١٤٤	٢	د	إذا تكرّر قتل الصيد
١٤٨	٢	د	بيان المثلية في الصيد
١٤٩	٢	د	التخيير بين الجزاء والإطعام والصيام
١٤٤	٢	د	حكم بياض الصيد
١٥٥	٢	د	شجر الحرم المكي
١٦٠	٢	د	حكم حرم المدينة صيده وشجره
١٦٧	٢	د	حكم صيد وادي وج
١٦٨	٢	د	مباحث أخرى في الحرم والصيد
٥٦٥	٥	الحج	الفوات والإحصار
٥٥٤	د	د	الصوم عن الهدى
٤٧٨	د	د	تمدد الفدية
٦٠٩	د	د	الاضحية
٦١٦	د	د	الفرع والمثيرة
١٤٠	١	البقرة	الإنجاء في الحج
١٢٢	١	د	الإحصار
			تحريم التصوير في المسجد الحرام
٦٤	٥	الحج	وشدة النسكير عليه
٥٨	٥	د	حرمة المسجد الحرام
٣٧٣	٨	التعظيم	عموم جواز العمرة من التنعيم

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
			الزيارة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم
٦١٣	٧	الحجرات	عليه وسلم
٥٧٥	٨		السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن
			اليئوع والربا
٢٦١	١	البقرة	الإشهاد على البيع
			بيع الثمر بعد بدو صلاحه والنخل بعد
١٣٧	٣	الحجر	تأثيره والحب بعد اشتداده
٢٦٠	١	البقرة	كتابة الدين
٢٣٢	٣	النحل	بيع الحيون باللحم
٢٣١	»	»	جنس اللحوم
٣٥٥	١	النساء	شراء الوصى من مال اليتيم
	٨	الجمعة	تحريم البيع عند نداء الجمعة
٩١	»	المطففين	تطيف الكيل والربا
١٠١	٩	المطففين	البيع برخص ليضر الآخرين
١٠٢	٩	»	تعيين نوع الكيل والوزن للامام
١٠٢	٩	»	بيان بعض حيل التطيف
٢٢٩	١	البقرة	ربا الجاهلية
٢٣٠	١	»	ربا النساء وربا الفضل ... إلخ
٢٥٦	١	البقرة	الأوراق للتعامل بها
٢٥٨	١	»	يئوع الأجال والمينة
			الإجارة
١٠	٣	هود	الأجرة على التلاوة
٥٥	٤	الكهف	الشركة
٥٥٠	٩	الماعون	أحكام العرية وتضمينها
٥٠	٤	الكهف	الوكالة

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
			كتاب النكاح
٣٠٥	١	النساء	نكاح اليتيمة وعدم إجبارها
٣٠٥	د	د	نكاح الأربع
٤٢٥	١	د	المدل بين النساء
٢٧٨	٢	الأنعام	العزل
٦٣	٩	التكوير	العزل ومنع الحمل
١٤٣	١	البقرة	منع إتيان النساء في غير محل الحرث
١٤٦	د	د	الرد بعيب في النكاح
٣٢٥ ، ٣١٨	١	النساء	ملك اليمين
١٤٢	١	البقرة	منع نكاح للشركات
١٤٢	١	د	نساء أهل الكتاب
١٦٠	٨	المتحنة	نكاح الكفار
٣١٤	١	النساء	المهرمات في النكاح
٢١٧	١	البقرة	الرضاع
٢٩٥	٣	النحل	لبن النحل
٣٠٤	د	د	لبن المرأة الميتة والبهيمة الميتة
٣٢٢	١	النساء	تحريم نكاح المتعة
٧٧٢	٥	المؤمنون	تحريم نكاح المتعة
٥٠٣	٨	العارج	د د د
٣١٨	٣	النحل	للتزويج بالجن
٥٧١	٤	طه	نفقة الزوجة والأولاد
٤٠٩	٢	الأنفال	د د د
٢١٤	٦	النور	نكاح الأيامي
٧١	٦	د	نكاح الزانية
٣٤٠	د	الفرقان	د البنت من الزنا

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
١٦٤	٨	المتحنة	فسخ نكاح المشرك إذا لم يهاجر
٣٥٨	٨	الطلاق	الطلاق : السني والبدعي
١٥٩	١	البقرة	حكمة كون الطلاق بيد الرجل
١٥٩	د	د	عدد الطلقات
١٥٧	د	د	رد المصلحة
١٦٠	د	د	طلاق الثلاث بكلمة واحدة
١٤٩	د	د	عدة المصلحة الحرة
٣٥٦	٨	الطلاق	عدة الأمة ومناقشة هامة
٢١٩	١	د	متعة المصلحة
٣٢٨	١	النساء	النشوز

الخلع

٣٦٤	٨	الجمعة	عدة الحامل
٨٢	٣	الرعد	مدة الحمل والحيض أقله وأكثره
٨٤	٣	د	مدة الحمل والحيض أقله وأكثره
٣٨٥	٧	الاحقاف	مدة الحمل والحيض أقله وأكثره
٢١٧	١	البقرة	عدة المتوفى عنها
٥١٣	٦	الاحزاب	الظهار
٥٤٥	٦	الاحزاب	كفارة الظهار
٣٦٥	٨	الطلاق	مدة الرضاع
٣٠٢	١	آل عمران	مباحث اليتيم
			رشد اليتيم
٢٧٨	٢	الانعام	علامة البلوغ
٢٧٨	د	د	معرفة الرشد
	٩	الماعون	حفظ مال اليتيم

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
		اللباس والأواني	
٢٣٨	٣	النحل	لبس الحرير والذهب للنساء
٢٣٩	"	"	" ذلك للرجال
٢٣٧	"	"	منع تشبه الرجال بالنساء
٢٣٦	"	"	جواز لبس الثوب المكلل بالثؤلؤ
٢٣٨	"	"	منع الشرب في آنية الذهب والفضة
٢٤١	"	"	الفضة للرجال
١٩٢	٦	النور	زينة المرأة وسترها
٥٨٤	٦	الأحزاب	حجاب المرأة
٥٥٨		الماعون	ضمان العارية

الأطعمة

٢٤٦	٢	الأنعام	ما يحرم أكله وما اختلف فيه
٩٠	١	البقرة	ما يحل من الميتة وصيد البحر
١٠٥	"	"	ما يحل من الميتة وصيد البحر
٣	١	"	الميتة ولحم الخنزير أيهما يقدمه المضطر
٣	١	"	" الإنسان للمضطر
٣	١	"	للميتة والصيد المحرم
٣	١	البقرة	للميتة وطعام الغير
٣	٢	المائدة	ذكاة الجنين بذكاة أمه
١٤٢	١	البقرة	منع الخمر واليسر
٣٠٩	٣	النحل	النبيذ

الميراث

١	النساء	ميراث الأولاد
"	"	" الاختين والبنتين
٢	الأنفال	" ذوى الأرحام

٢٧١
٢٧١
٢٧١

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٣١٣	١	الدخان	ميراث الكلاله
٢٢٣	٤	مريم	عدم ميراث الانبياء
٧٤٢	٤	الانبياء	الوصية
١١٠	٢	المائدة	توارث أهل الكتاب

الوقف

ألفاظ الوقف وما يشمل منها النبات

٢٣٤	٧	الزخرف	وما لا يشملها
-----	---	--------	---------------

الآيمان والندور

١٤٧	١	البقرة	انعقاد اليمين
١١٩	٢	المائدة	الآيمان وكفاراتها
٨٥	٤	الكهف	الاستثناء في اليمين
١٥٥	٣	الحجر	تعدد الاستثناء
			اليمين بالحرام
٦٩	٩	التكوير	مبحث عام في القسم
٤٨٨	٤	مريم	النذر
٦٤٩	٥	الحج	للنذر
٥٩٣	٨	الجن	نذر الصلاة في غير المساجد

الرق

٤١٧	٧	محمد	سبب الرق وأحكامه
		المائدة	للقصاص والحدود
٥٨	٢	المائدة	القصاص
١٠٥	٠	٠	المماثلة في القصاص
٣٨٦	٣	النحل	لا يقتل مسلم بكافر
٧٩	٢	المائدة	لا يقتل مسلم بكافر
٤٩٩	٣	بنو إسرائيل	القصاص والدية

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٥٥٥	٢	بنى إسرائيل	القسامة
٨٦	٢	المائدة	قطاع الطريق
١٧	٥	الحج	قتل الجنين
٣٣	٢	المائدة	القتل بالسحر وكل أعماله
٦٠٤	٤	الأنبياء	للسحر
٤٧٢	٤	طه	"
	٩	الفلق	القتل بالعين في الحسد
١٧٦	٤	الكهف	حكم استتابة الزنديق
١٩٨	٢	الأنعام	المراف والكاهن
٣٢٥	٢	الأعراف	فاحشة قوم لوط
٤٠		هود	" " "
٢٨	٢	"	" " "
٤٠٧	٢	الأنفال	للسرقة من الغنيمة
٥٥٩	٩	الماعون	حكم من جحد المارية
٢٢٦	١	النساء	تنصيف الحد على ملك اليمين
٧٦٩	٥	المؤمنون	الاستمناء باليد
٨٥	٦	النور	حد الزنا
١٣١	٦	"	اللعان
٣٨٩	٦	الشعراء	السفر والشعراء ، وإذا قذف في شعره
١٢٦	٦	النور	لجوء الجاني إلى الحرم

الجهاد

٣٤٣	٢	الأنفال	الأنفال والغنائم
٣٨٥	"	"	التنكيل
٣٨٩	٢	"	من أسر أسيراً فله سلبه
٣٩٤	٢	"	تخميس السلب
٣٩٩	"	"	ما يقطاه الفارس وغيره

الصفحة	الجزء	السورة	المبحث
٤٨	٣	هود	تخصيص بنى هاشم بهم الغنيمة
٣٥١	٢	د	للغنيمة والخمس ومصرفهما
٤٠٨	د	د	حكم النساء والصبيان في الغنيمة
٤٠٤			الفلول من الغنيمة
			أرض مكة بيعها وإيجارها
٣٧٣	٢	الأنفال	وما فتح صلحاً أو عنوة
٤٨	٨	الحشر	الحصاد وقطيع الشجر

القضاء

٦٥٠	٤	الأنبياء	الحكم واجتهاد الحاكم والقياس
٧٣١	٤	د	قضية داود وسليمان في الحكم
٢٩	٥	الحج	التقليد والجهل
١٦	د	د	الجدل بحق
١٧٨	٢	المائدة	الشهادة
١٣١	٩	البروج	د وأقسامها
٦٢٦	٧	الحجرات	د
٥٢٩	٧	محمد	الحكم بالقرائن
٥٠٦	٨	المعارج	مورد الشهادة في القرآن
٥٠٨	٨	د	الشهادة من حيث الجنس والعدد
٥١٠	٨	د	شهادة جماعة الصبيان
٥١١	د	د	شروط العدالة والصدق
٥١١	د	د	تاريخ أو تزكية الشهود
٥١١	د	د	مراتب الشهود وإحدى عشرة مرتبة
٥١٤	د	د	تفريق الشهود
٥١٥	د	د	علامة الشهادة باليمين في الحكم
١٢٦	٩	البروج	د د د د
٥٦١	٩	د	من شروط الشهادة عند مالك